المشرق

السنة الحادية والثلاثون | آب وايلول ١٩٣٣

سنة الفداء

بقلم الاب بولس موترد اليسوعي

ان قداسة الحبر الاعظم افتتح بنشوره « Quod nuper » يوبيلًا خارق العادة ، في هذه السنة ١٩٣٣ ، للاحتفال بمرور تسعة عشر قرنًا على سرّ الفداء العظيم . ولقد قال نفسه ، في خطاب القاه في عيد الميلاد سنة ١٩٣٢ ، ان هـذه السنة المختارة « توافق رأي عامّـة المؤمنين الذين يجملون ، دون ما تفتيش او بحث ، السنة الثالثة والثلاثين من حسابنا الجاري تاريخًا لوفاة المخلص ».

واذًا فليس في منشور الاب الاقدس ما يقيّد سلطة نائب المسيح المعصومة عن الخطأ . فهو لا يقرّر السنة ٣٣ كتاريخ حقيقي لسرّ الفداء ، ولا يتدخل في مجادلات المؤرخين وعلماء التفسير . ويكفينا ، في ذلك ، ان نتحقق الشك الذي صرح به في الجملة الثانية من المنشور اذ قال: « إنه ، وان لم نكن على تمام اليقين من السنة التي حدث فيها هذا السرّ العظيم ، فلا يمكننا ان نقابل بالسكوت

ذكرى هـذا الحادث ، بل ذكرى هذه السلسلة من الحوادث العجيبة الفائقة الاهمية ».

على ان افتتاح هذا اليوبيل لفت انظار العالم المتمدّن باجمعه الى وفاة المسيح ، فأثار مشكلةً قديمة كثيرًا ما عالجها علماء التفسير ، وانهم ليعودون اليها اليوم ، وقد اصبح الشعب بكامله يهتمّ بها بفضل هذا اليوبيل ، الا وهي سنة وفاة المسيح. واننا لنعتقد ان قرّاء « المشرق » يتشوّقون كغيرهم الى الاطلاع على هذا الامر ، فنرى من واجبنا ان نلخّص لهم حالة المسألة الحاضرة.

لا يخفى ان كتبة الاناجيل كانوا ، كغيرهم من مؤرخي العصر القديم ، لا يهتمّون الاهتمام الكافي بذكر سني الحوادث التي يدوّنونها. حتى اننا لا نرى الا واحدًا منهم ، هو القديس لوقا ، يشير مرة واحدة (٣:١) الى تاريخ احدى الحوادث فيقول ان يوحنا المعمدان بدأ بعثته « في السنة الخامسة عشرة من ملك طيباريوس قيصر » . ثم يعدّد بعض الظواهر الموافقة لهذا الامر ، دون ان يشير الى سنة صريحة الّا « الخامسة عشرة من ملك طيباريوس » كما تقدّم. على ان هذا التاريخ نفسه لا يخلو من اضطراب والتباس ، كما سنرى ، بالنسبة الى من يقرأه في القرن العشرين.

وعليه ، أفنكون صفرًا من كل دليل يمكننا من ان نعيّن ، وان تقريبيًا ، تاريخ السنة التي حصل فيها فداؤنا ؟ لا ، واليكم الاسباب :

كما ان وفاة هيرودس الكبير ، التي حدثت في السنة الرابعة قبل ابتداء حسابنا الجاري ، مكّنتنا من جعل ميلاد المسيح ، لا في السنة الاولى من الحساب المذكور الذي وضعه الراهب دينيس الصغير (Denys le Petit) بل في الفترة الواقعة بين السنة التاسعة والرابعة ، كذلك يمكننا ، بالاستناد الى بعض الحوادث التاريخية المتعدّدة والمتنوّعة ، ان نقترب كثيرًا من الواقع في تقرير سنة الفداء والقيامة.

واول ما يجب علينا الانتباه له في هذه الحوادث التاريخية وجود بيلاطس البنطي حاكمًا في اليهودية على عهد آلام المسيح. ونحن نعلم ، بواسطة المعلومات المستقاة من تاريخ يوسيفوس اليهودي ، ان هـذا الوالي خُلع في السنة ٣٦ من

حسابنا، بعد ان اقام في ولايته عشر سنوات اي من ٢٦ الى ٣٦. فينتج ان سنة الفداء تنحصر بين هـذين التاريخين. وهو استنتاج اول تزيده وضوحاً اذا ما انتبهنا، من جهة الى ان بيلاطس المذكور كان والياً قبـل ابتداء حياة المسيح العامة، ومن جهة اخرى الى ان اهتداء بولس الرسول، الذي لا يمكن ان يتأخر عن السنة ٣٦، لا يمكن كذلك ان يكون قد حدث بعد وفاة المسيح باقل من سنتين.

بقي علينا ان نبحث في مدة حيـاة المسيح العامة. ولا يخفى ان اعتقاد الجمهور الكبير من المؤمنين ان هذه الحياة دامت ثلاث سنوات. على اننـا نرى من الواجب ان نقول، وان فاجأنا اعتقاد الجمهور، ان هذا الرأي غـير ثابت تماماً. فان ما يورده القديس يوحنا عن الاعياد الفصحية الثلاثة (٢ : ١٣، ٦ : ٤، ١٣ : ١) التي حدثت خلال رسالة المسيح، يفيد ان هذه الرسالة دامت سنتين على الاقـل، ولكن لا يمكن من الاقرار انـه تتابعت على مدة سنة ثالثة ايضاً. ولهذا اختلف العلماء في هذه النقطة، فتباينت آراؤهم بين السنتين والثلاث. وعليه فاننا بالنظر الى جميع هذه الحوادث نجدنا مدفوعين الى التقدم خطوة في تقرير سنة الفداء، فالى حصرها بين السنتين ٢٨ و٣٤.

ولكن لا يمكننا ان نترك المشكل عنـد هذه النقطة. واي سنة يجب اختيارها، بين هذه السنوات السبع، تاريخاً للفداء؟ وهنا نرى امامنا طريقين للوصول الى نتيجة ترجيحية: الاولى طريق البحث التاريخي المحض، والثانية طريق الحساب الفلكي.

امـا الاولى فتتصف بكونها غير مباشرة تماماً، وغير متوافرة الدقة لسوء الحظ. وهي تكون بالتفتيش عن تاريخ تلك السنة الخامسة عشرة للملك طيباريوس التي ذكرها القديس لوقا موافقةً لابتداء حياة المسيح العامة. فمتى بدأت هـذه السنة، وبالتالي متى بدأ ملك طيباريوس؟ سؤال سهلٌ واضح لاول وهلة. الا ان البحث فيـه اوصل المفسّرين الى اختلاف يُذكر. اذا اعتبرنا السنة الخامسة عشرة جارية على الحساب العادي، اي بكونها تبدأ من السنة الرابعـة عشرة لوفاة اغوسطوس، نرى انها تدوم من ١٩ آب سنة ٢٨ الى ١٩ آب سنة ٢٩.

فتكون النتيجة من ثمَّ ان آلام المسيح حدثت في السنة ٣١ على اقل تقدير ، او في السنة ٣٣ على الابعد . وبالتالي يجب ان نجعل للمسيح ، اوان اعتماده ، سنًا تجاوز الثلاثين سنة التي يذكرها القديس لوقا (٣ : ٢٣) حرًا تقريبيًا ليسوع في ذاك الوقت . وذلك لما اشرنا اليه سابقًا من ان المخلص وُلد لا في السنة الاولى للحساب الميلادي الجاري ، بل في السنة الرابعة او الخامسة قبله .

فكان ان تراجع البعض من العلماء امام هذه النتائج المستخرجة من افادة ابعد من ان تكون جلية الوضوح ، فحاولوا ايجاد طريقة جديدة لحساب السنة الخامسة عشرة من ملك طيباريوس . فلجأوا الى فرضية قوامها ان سنيّ ملك طيباريوس يجب ان تحسب ، لا ابتداء من موت اغوسطوس ، بل اعتبارًا من اشراك طيباريوس بالملك قبل وفاة سالفه بسنتين او ثلاث . وهكذا تتأخر موافقة السنة الخامسة عشرة الى نحو السنة ٢٦ للميلاد . ولكن هذه الفرضية لم تسلم من الانتقاد ، فلاحظ بعضهم انــه لم يُعثر قط على رقيم ، ولا على قطعة نقود ، ولا على اي اثر تاريخي يفيد هــذه الطريقة في حساب سنيّ الامبراطور طيباريوس . بيد انهم يعتبرون ان القديس لوقا ، على كونه بدأ منذ موت اغوسطوس ، جرى في حسابه على الطريقة الشرقية اي انه اخذ يحسب السنوات من تشرين الاول ، وهو الشهر الذي كان يفتتح السنة في الشرق القديم . وعليه تكون السنة الثانية لملك طيباريوس مبدوءة بتشرين الاول الذي يتلو وفاة اغوسطوس ، فتكون السنة الخامسة عشرة مبدوءة بتشرين الاول سنة ٢٧ .

وبفضل هاتين الطريقتين تمكّن هؤلاء العلماء من ان يقدّموا تاريخ الآلام الى السنة ٢٩ او ٣٠ .

على ان مــا يفيدنا الآن هو ان السنة ٣٤ وبالتالي السنة ٣٥ والسنة ٣٦ اصبحت خارجــة عن محيط البحث . واذن فقد اصبح زمن الفداء محصورًا بين السنوات ٢٦ و٣٤ .

افيحسن بنا ان نقف هنا في البحث ؟ لا لان لدينا لحسن الحظ ، طريقة أُخرى تتمم هذه التفتيشات على اسلوب اوفر دقةً ووضوحًا ، وهي الطريقة الفلكية وكثيرًا ما ساعد حسابها الدقيق ابحاث المؤرخين والمفسّرين .

مما لا شكّ فيه ان وفاة المسيح حدثت نهار جمعة. ومما لا شكّ فيه ايضاً ان تلك « الجمعة » وافقت مساء اليوم الذي كان على اليهود ان يأكلوا فيه الفصح كما ذكر القديس يوحنا (١٨: ٢٨) اي اليوم الرابع عشر من شهر نيسان القمري. ولا يخفى ان من السهل على علم الفلك ان يستند الى هذه الموافقة بين يوم جمعة و١٤ نيسان، فيعطينا الحل الصحيح للمشكل الحاضر. وهو علم دقيق يقرّر بكل وضوح، على مسافة قرون، تاريخ الكسوف الفلاني، او تاريخ ابتداء قمر الشهر الفلاني. واذاً فعلى علم الفلك ان يدلنا في اي سنة من السنين، بين ٢٦ و٣٤، كان الرابع عشر من شهر نيسان القمري يوم جمعة.

لقد يكون الامر بغاية السهولة، لو كنا على يقين من ان اليهود — وطريقتهم في بدء الشهور طريقة المسلمين في عصرنا اي معاينة الهلال بالعين المجرّدة — تمكنوا دائماً من رؤية القمر الجديد منذ يومه الاول، فلم يُدفعوا الى اقحام شهر زائد من آنٍ الى آخر. ثم ان هناك صعوبة أُخرى ولّدها بعض المفسّرين مأخوذين بكون المسيح قد اتمّ الفصح قبل آلامه، فاستخرجوا انه توفي لا في ١٤ نيسان، مساء العيد، بل في العيد نفسه اي في ١٥ منه. على ان علماء الفلك انتبهوا لجميع هذه الصعوبات، فوضعوا الجداول المتعدّدة الموافقة للفرضيات المختلفة في المقابلات بين ايام الاسبوع و١٤ او ١٥ نيسان القمري مما قد يطول بنا شرحه.

ولكننا نكتفي بالنتيجة المهمّة. وهي انه، على طول تلك المدة التي ذكرناها والتي حصرنا ضمنها سنة الفداء، لا نجد نهار جمعة يوافق ١٤ نيسان الا في سنتين وهما السنة ٣٠ والسنة ٣٣. ففي الاولى وافق ١٤ نيسان القمري نهار الجمعة الواقع في ٧ نيسان الشمسي سنة ٣٠، وفي الثانية وافق نهار الجمعة الواقع في ٣ نيسان الشمسي سنة ٣٣.

وعلى رغم ما يظهر بعض العلماء من الشكّ بصلاح هذه الطريقة الفلكية، نزانا مدفوعين الى القول انها على تقدم دائم في محيط العلم العالمي. واذاً فلم يبقَ للمفسّرين والمؤرخين الا ان يختاروا تاريخاً للفداء بين السنتين ٣٠ و٣٣. ولكل منهما مريدون وانصار لا يفتأون عاملين على اظهار افضلية الواحدة على

الاخرى.

على ان السنة ٣٣ التي اختارها الاب الاقدس تفرض لحياة المسيح العامة ثلاث سنوات كاملة اعتباراً من السنة الخامسة عشرة لملك طيباريوس محسوبة حساباً اعتيادياً. فهي تحلّ عدة وجوه من المشكل، وهذا ما يجعلها على قسط وافر من الارجحية. الا ان الاب الاقدس لا يفرض علينا الاخذ بها في منشوره « Quod nuper »، كما قدّمنا. ونحن نعتقد ان ما دفعه الى ذلك هو انه عندما افتكر بافتتاح هذا اليوبيل العظيم كانت السنة ١٩٣٠ قد مضت. ولهذا نرى جمهوراً من المفترين الكاثوليك، ان لم نقل اكثريتهم، لا يزالون محتفظين بافضلية السنة ٣٠. ومذهبهم في ذلك — وهو يخالف التقليد نوعاً — انهم يفرضون ان السنة الخامسة عشرة لطيباريوس تبدأ على طريقة الحساب الشرقية، اي من السنة ٢٧ الى السنة ٢٨. ويفرضون ايضاً ان حياة المسيح العامة لم تتجاوز السنتين. على ان هذا المذهب يتجنب عقبتين ظاهرتين في المذهب الآخر: اولاهما ان المذهب الاول يفرض للمسيح عند موته على الصليب عمراً يبلغ ٣٧ سنة على الاقل، ان لم نقل ٣٩ او ٤٠، مما يبعد بنا عن الثلاثين السنة التقريبية التي يشير اليها القديس لوقا (٣: ٢٣). والعقبة الثانية ان المذهب الاول لا يترك بين موت المسيح واهتداء القديس بولس الا مدة ثلاث سنوات على الاكثر، وهي قصيرة على اي حال. اذ لا يخفى ان اهتداء بولس الرسول حصل في زمن كانت فيه الكنيسة قد تأسست وثبتت حتى خارج فلسطين. وقد كانت في دمشق على ازدهار يظهر غير محتمل ان لم نجعل بين زمنه وبين تأسيسها اربع سنوات او خمساً.

والخلاصة ان للقارئ الكريم حق الاختيار. ولكن مهما كان اختياره، ومهما ظلّ من الشك حول سنة الفداء، فان السنة الحالية التي اشار اليها الاب الاقدس تذكاراً لذاك الفداء المجيد، لجديرة بان تحيي في قلوب جميع المؤمنين احرّ العواطف واخلص العبادات لذاك السرّ العظيم.

القضاء في لبنان

بزمن الامراء الشهابيين

بقلم عيسى اسكندر المعلوف ، مؤلف تاريخ
الاسر الشرقية وعضو المجمع العلمي العربي

توطئة

ولا خفاء ان الامراء الشهابيين كانوا خلفاء الامراء المعنيين في حكم لبنان . فتولاه الشهابيون من سنة ١٦٩٧—١٨٤٢ م . وكانوا يصطافون في دير القمر وبتدّين ، ويشتون غالباً في مدينة بيروت . وكان مقرّ الايالة عكا ، ثم صيدا ، الى ان اتخذ الحاكم بيروت كرسياً له سنة ١٨٤١ . ومقاطعاتهم هي اقليم الخروب ، وجزين ، والتفاح ، في الجانب الجنوبي . وجبل الريحان ، والبقاع ، والمتن ، في الجانب الشرقي . وكسروان ، والفتوح ، وبلاد جبيل ، والبترون ، وجبة المنيطرة ، وجبة بشراي ، والكورة ، والزاوية ، في الجانب الشمالي . وكان سنجق جبل الشوف سبع مقاطعات هي الشوف ، والمناصف ، والعرقوب ، والجرد ، والمتن ، والشحار ، والغرب . وكان يحكم البلاد ، بعد الامير ، الاقطاعيون من مقدمين ، ومشايخ ، واعيان . وكانت الايالة تضيق وتتسع بحسب الشؤون السياسية . وللامراء والمقدمين والمشايخ امتيازات تجب مراعاتها . وكانت الدعاوى ترفع الى الاقطاعي ، فاذا لم ينصف المتداعين فالى الحاكم الاعلى . وهكذا كانت شؤون الرعية وادارتها بانظمة اصطلح عليها مما فصلته في كتابي : « دواني القطوف » [1] ، وفي ما كتبته من مقالات « تاريخ لبنان في ايام الحرب » [2] وفي

---

١) راجع «دواني القطوف» المطبوع من الصفحة ٢٤٥—٢٦٧ ٢) راجع كتاب

« تاريخ الاسر الشرقية » المخطوط .

ولقد امعنت في البحث عن القضاء مطولاً لتعريفه في جميع ادواره من القديم الى يومنا . والآن اقتصر على ذكر اشهر القضاة من مسلمين ودروز ومسيحيين في عهد الامراء الشهابيين فاقول :

١

الشيخ احمد البربير

قاضي لبنان بزمن الامير يوسف الشهابي (١)

ان ما نشر في مجلة « المشرق » الغراء في هذه الايام الاخيرة من مقالات القضاء في لبنان ذكّرني بمقالة لي ، بل برسالة مطوّلة في تاريخ القضاء عند المسلمين من صدر الاسلام الى يومنا ، نشرتُ منها خلاصةً في مجلة « المحامي » الزحلية في بضع سنوات ، حتى وصلتُ الى القضاء في زمن الدولة العثمانية . واوقفتُ الباقي لانني اريد نشره مطوّلاً لتطوّره في ذلك العهد الى زمن متصرفية لبنان ثم الى يومنا . ولقد جمعتُ كثيراً من الاحكام والوثائق والفتاوي واشباهها ، ولا سيما في زمن قائميّتي مقام النصارى والدروز وما بعدهما ، مما وقع لي من الاوراق القديمة ، فحفظتها بين مخطوطاتي التي جددتها بعد بيع قسم منها للجامعة الاميركية في بيروت .

وبهذه المناسبة اقول كلمة في بعض كبار القضاة والشعراء والمؤلفين ، منهم المرحوم الشيخ احمد البربير الدمياطي البيروتي ، الذي جمعت آثاره من نظم ونثر ووقفتُ على مؤلفاته . فوضعتُ لهُ ديواناً مطوّلاً فيه المقاطيع والقصائد الرائعة . وهذه لمعة من ترجمته وقضائه في لبنان :

«لبنان : مباحث علمية واجتماعية» المطبوع من ص ١٤٢-١٤٨ في بحث « الاخلاق والعادات » لصاحب هذه المقالة .

١) مقالة مقتضبة من « الاخبار المدوّنة والمرويّة في انساب الاسر الشرقية » في ١٦ مجلداً ، ومن « مناوص الدرر في ادباء القرن التاسع عشر » لكاتب المقالة .

ترجمة البربير

ان اسرة البربير اصلها بنو القحف في بيروت ، وقيل ان احد الاطباء الملقب بالبربير، على لغة ايطالية في ذلك العهد[1]، كان يختلف الى جدّهم فلقب به ، وترك اسم القحف . وهي من اشراف المسلمين يلقّب افرادها بالاسياد ، ولا تزال بقيتها في بيروت ، وفيها ادباء معروفون اشهرهم المترجَم له .

ولد السيد احمد ابن السيد عبد اللطيف ابن السيد احمد الشريف البربير في دمياط (من القطر المصري) لان اباه كان تاجرًا فيها ، وذلك سنة ١١٦٠ ﻫ (١٧٤٧م) وكان نابغة بالحفظ والذكاء تُروى عنه اخبار غريبة في الاستظهار والمحاضرة . درس الفقه والحديث والادب على الشيخ عبد الحيّ بن ابي بكر بن احمد من آل فتح الله البيروتي اصلًا ، الدمياطي مولدًا وسكنًا ، فنشأ المترجم له فقيهاً اديباً نظم الشعر في الثالثة عشرة من سنيه واجاد في حسن الخيال ، ودقة التصوّر ، ورشاقة التراكيب ، حتى كان نظمه من السهل الممتنع، ولازم اشياخاً من كبار العلماء في القطر المصري ، منهم السيد محمد مرتضى الزبيدي ، شارح الاحياء والقاموس ، ولم يكتفِ بمشايخ القطر المصري الاعلام فجاء بيروت ودمشق سنة ١١٨٣ ﻫ (١٧٦٩ م .) ولم يجد في بيروت ما كان يظنّ من العلماء الاعلام فنظم فيها بيتين يدلّان على استيائه من تأخر العلم فيها ، فقصد دمشق للاخذ عن علمائها ، فاتصل بالشيخ مصطفى الرحمتي ،ومدح دمشق. ولكن وصول محمد بك ابي الذهب اليها ، واضطراب حبل الامن فيها ، اضطرهُ ان يعود الى بيروت ، فانشأ مكتباً للتعليم وشهر بتفقهه وادبه فيها :

فنمي خبره الى الامير يوسف الشهابي ، حاكم لبنان وبيروت في تلك الايام ، فطلبه اليه وحاول اقناعه بتولّي القضاء ، فتنصّل حتى اكرهه عليه . فقبل ان يكون قاضياً بعد اللتيا والتي ، وبعد ان كتب على الامير الحاكم صكاً يتضمن شروطاً متى اخلَّ بها ، فليس له عليه سبيل في البقاء قاضياً.

١) والبربير هو الحلاق الذي كان يرسل العلق ويحجم المرضى ويفصد احياناً ويضع الضمادات ونحوها.

ومن اهم تلك الشروط الكثيرة: انه لا يتعرض للدعوى بعد انفصالها والحكم بها في مجلس قضائه . ولا ينقضها بل يعضدها وينفذها.

ومنها: انه اذا كان الحقّ عليه يمتثل امر الشرع.

ومنها: انه لا يكرهه على لبس عمامة ولا فرجية مما كان يلبسه القضاة.

ومنها: انه يبعث رجلًا من اتباعه يجلس في المحكمة ليأخذ ما على الدعوى من السحت المشهور بين القضاة.

فامتثل الامير ذلك بطيبة خاطر . ولم يبدِ اقل نقض لشرط من شروط البربير الذي كان يودّ ان يخلّ الامير باحدها ليترك القضاء لانه كان مكرهاً عليه.

فاخذ يحاول ان يعتذر الى الامير اعذارًا كثيرة ليسمح له بترك القضاء والعودة الى التدريس والتأليف ، ومشافهة العلماء مما كلف به وانقطع له . فلم يعره الامير اذنًا صاغية حتى عيل صبر البربير فقال يتشكى من ذلك المنصب:

قد عدلنا ، وما عدلنا لغيٍّ ، وحكمنا بامر رب السماء ،
فشكا الناس حكمنا ، ولعمري ، قلَّ من يرتضي بحكم القضاء !

وقال يهجو المرتشين وقد اجاد ما شاءت بلاغته :

ولم أرَ في البرية مثل شخصٍ اذا (برطلتَهُ) اصلحت شانَه
بخردلةٍ كميزان اللآلي تميّل كفتاهُ لنا لسانه

وقال مستجيرًا يصف اهوال القضاء :

رماني زماني ا يجهدُ ، فمن ذا اروم ومن اقصدُ ؟
واوقعني في القضاء القضا ، وما كنت احسبه يوجدُ ،
وظيفة كرب لاثقالها تراني لموتي ، الردى احمدُ .
وحبي انقلاب صديقي لما عدوًّا اذا فاته المقصدُ .
فباطنها الذلّ والابتلا ، وظاهرها العزّ والسؤددُ .
وذا ليس دأبي ، ولا ديدني ، ولا ارتضيه ، ولا احمدُ ،
وصعب على المرء تكليفه امورًا خلاف الذي يعهدُ !
وقد ضقتُ ذرعًا ، ولكنني بخير النبيّين استنجدُ

وهكذا بقي البربير يتشكى ويتظلم من منصبه مجاهرًا في كل مجلس واجتماع بكرهه للبقاء في عمله هذا . والامير يعرض عن سماع شكواه ولا يقيله.

فكان البربير قاضياً ومفتياً في تلك الايام ، مشهورًا بانصافه وحسن آدابه

في منصبه ، وخشيته من الظلم والتحامل ، وانصرافه الى العدل ونصرة المظلوم ، واجراء الامور في مجاريها النظامية . ولقد وقفتُ في مباحثي عن الاوراق القديمة على احكام وفتاوى ووثائق تدلّ على براعته بالفقه والادب ، ووضع الاشياء في محلها . فصرف وقتاً كان فيه مكرهاً على العمل ، ولكنه لم يضجر ولا وارب ولا تزلّف . ولم يَرَ من الامير ما يحمله على الانسحاب واغاظته ، وهو الذي يداريه ويحترمه ويعزز مقامه .

فقدّم له العرائض المختلفة مستقيلًا ، فلم يقبلها . واخيراً عمد الى نظم مقصورة لطيفة املتها عليه القريحة الوقادة وضيق الذرع ، فحملها اليه وانشده اياها متأثراً ، قال منها :

تنبَّه ، أُخيَّ ، فماذا العمى وقد بلغ النيل اعلى الربى !
توارِيتَ في جنح ليل الذنوب ولم تَرَ أشراق فجر اللحى ؛
فكيف رضيتَ ترى قاضياً وفوقك بالقهر قاضي السما !
وكيف عجزت بحمل القميص وتقوى على حمل حقّ الملا !
واصبحت بالظلم في غاية ومرتبة ما لها منتهى !
اكلتَ الحُشورَ ، وخنتَ العُشورَ ، وبتَّ الاجورَ ، بسوق الردى
وفرعون كان بذا مبتدٍ وفعلك ذا خبر المبتدا
لحا الله ما نلتَ من لذةٍ حلت ، ثم مرّت بسم الحشى .
فانت كدودٍ كدود الحرير بكدٍّ وعملكه ما بنى ،
وكالشمع يحرق اجزاءه ليتحف بالنور ذات السوى .
اما في الالى سلفوا عبرة لمثلك دلّت على ما نأى !
فاين القضاة ؟ واين الملوك ؟ واين الحليّ ؟ واين الحلى ؟
واين الاحاديث في سردها - وقد انبأتك بذم القضا
فان قلت : اني امرؤٌ عادلٌ ، فلا تنسَ من حام حول الحمى
ودرءُ المفاسد تقديمُهُ على جلب مصلحة يُرتضى !
وان قلت : اني امرؤٌ مكرهٌ عليها ، فدونك رحب الفضا
وكِلْ من تخلفهم للذي احاط بما كان تحت الثرى ،
فقد رزق الطير في وكره ، وخصَّ الجنين بطيب الغذا .
وعش باليسير ، وأكل الشعير ، وترك الحرير ، ولبس العبا !
فذلك اهون من بيع دينك ، يا غافلًا ، بدنيّ الدُّنى !

وهكذا الى آخرها وهي بليغة مؤثرة . فلما سمعها الامير اعترته رعدة

وخشوع ، وحنّ قلبه وغلبته الدموع . فلم يستطع البقاء على اصراره بعدم اقالة البربير ، فاقاله وعين له ما يقوم بكفاءته . فسرَّ وشكره ونظم فيه قصائد ومقاطيع منها قوله :

اميرنا اكرم من حاتمٍ ... له بنان ضاق عنها الفضاء ،
بحلمه ادركتُ ما اشتهي ، ... وقد كفاني الله شرَّ القضاء .

ومنها قوله في قصيدة غيرها :

امير عظيم له رتبة ... على غيره صعبة المرتقى ،
قصرتُ ثنائي على وصفه ، ... واعطيته في الورى موثقا ،
ولا غرو في كونه وارثاً ... ثنائيَ دون الورى مطلقا ،
فقد «اعتق» القلب من كربه» ... «وحق الولاء لمن اعتقا !»

آثار اقلامه

ان البربير مؤلفات نفيسة تفرّغ لها بعد تركه القضاء ، وكان متصلًا بادباء عصره وقضاته وفقهائه في بيروت ودمشق ، وله منزلة عند الحكام ونوادر معهم مثل احمد باشا الجزار ، والامير يوسف الشهابي ، وسليمان باشا والي عكا ، وكذلك عند الادباء والاعيان مثل الشيخ شاهين تلحوق ، ومخايل البحري الحمصي ، والشيخ عمر البكري ، والشيخ احمد الاحمدي المصري ، وغيرهم . وله معهم مساجلات ونوادر وله مؤلفات ورسائل منها : «الشرح الجلي على بيتي الموصلي» مما طبع . واما ما بقي مخطوطاً فكثير منها بديعية ومقامات ومناظرات وشرح قصائد و«تاريخ سليمان باشا» والي عكا ، ولم اعثر على نسخة منه مع كثرة بحثي عنه .

واما اشعاره ورسائله فقد جمعتها في (ديوان كبير) من مظانّ مختلفة ، ومن مخطوطات نادرة شاردة ، وهو معدّ للطبع فيه بدائع نظمه من ذلك قوله في الشعر الفقهي :

تقول الورى : قد فاته ارث جدّه ... من الفضل والتقوى وذلك مثبتُ ،
فقلتُ لهم : شرط المواريث عندنا ... وجود حياة ، وهو بالجهل ميتُ .

وقوله عاقدًا قول حسان بن ثابت الانصاري لعلي بن ابي طالب عند قتل عثمان بن عفان :

يا من غدا لوداد اهل م زمـانـه متمرّضـا
لا تسكتنّ لمنكر ٭ان السكوت اخو الرضاء

وقوله في الصلح بين المتخالفين ، وتظرف ما شاء :

ولم أرَ الطف من مصلح توسّط بين حبيبي وبيني
تلطف حتى حكم النوم اذ سرى بين جفني وانسان عيني

وقوله في الحكم والشهادة متفننًا :

لاحكم عندي كحكم الصارم الذكر اذ فيه قطع نزاع البدو والحضر
وعادل الرمح لا تلغى شهادته فعنده خبر عن باطن البشر
هما رضيعا لبان في الوغى ، وهما لمصطلي الحرب مثل السمع والبصر

وقوله في التشكي :

لا تلحُ من يتشكى ، ان التشكي دواءُ
واوجع الضرب ما لم يكونُ فيه بكاءُ

وقوله في القاضي مضمنًا :

وقاض باع أخراهُ بتبر الراح والنشوه
لنا احكامه قالت : رشاء الحاجة الرشوه (١

وهكذا كان هذا الفقيه مشهورًا طاف في بلاد العرب واجتمع بعلمائها وتخرج عليه كثيرون من الفقهاء والادباء ، واستجازه آخرون ونظم في اغراض مختلفة . وسكن في صالحية دمشق سنة ١١٩٥ هـ (١٧٨٠ م) الى ان توفي فيها سنة ١٢٢٦ هـ (١٨١١ م) عن بنات توفين صغارًا ، لا كما ذكر العلامة الاب لويس شيخو اليسوعي في « الآداب العربية في القرن التاسع عشر » : (١ : ٧٦) ان جد المرحوم مصباح البربير هو السيد احمد هذا ، بل هو من سلالة شقيقه السيد محمد الذي هو جدّ البربيريين الحاليين ، والله اعلم .

---

١) راجع ما نشرته من شعره في مجلة المشرق (٤:٢٦٦) وفي مجلة الآثار (٣: ٣٤٣) من ديوانه المخطوط الذي جمعته له .

ارتفاع الصليب

ميمر منسوب الى القديس كيرلس اسقف اورشليم
٣١٣-٣٨٧م

نشره لاول مرّة ، وعلّق عليه
الخوري بولس قرألي ، مدير المجلة البطريركية

١
توطئة

لما كانت هذه التوطئة درساً للميمر قسمناها الى ثلاثة ابحاث :
١ - في نسخه واهميته ٢ - في الاعتراضات عليه ٣ - في صحة نسبته.

البحث الاول
في نسخه واهميته

نستهلّ هذا البحث بكلمة في تكريم الصليب في الشرق قديماً ، وفي لبنان حالاً . وننتقل منها الى وصف نصّ الميمر في مخطوطتي بكركي وحلب ومقابلتهما . ونختمه بترجمة وجيزة للقديس كيرلس الاورشليمي ، وببيان عام لاهمية الميمر.

١ — ارتفاع الصليب في الشرق

أُتيح للشرق أن يكون مهد الانسان والعمران ، ومهد العلوم والفنون والاديان . وأُتيح لسورية أن تكون دماغه المفكر ، وقلبه الحسّاس ، ولسانه الفصيح. وهي ، ان لم تكن يوماً بالبطش والسيف سيدته ، بل غالباً عبدته ، فقد تسلطت دائماً على عقله بثقافتها وعلى قلبه بعاطفتها ، وبسطت عليه عقائدها وشرائعها.

اصطفاها الرب لأن تكون أرض الميعاد لشعبه وانبيائه ، ومهبطاً لوصاياه واوحيته ، ومسرحاً لآياته ، وهيكلاً لعبادته . واختارها السيد المسيح لان

تكون مهداً لطفولته، ووطناً لانسانيته، وحقلاً خصباً لتعاليمه، ومشهداً لصلبه وقيامته، ولساناً مبشراً برسالته وألوهيته وشرائعه الرفيعة السامية. فنشأ الدين المسيحي فيها، ومنها تفرّعت اشعته وتوزّعت على كل المعمور.

في السنة الثالثة والثلاثين للميلاد ارتفع الصليب على الجلجلة حاملاً الاله المتجسّد، باسطاً يديه صليباً علامة الحب والتضحية والغفران. فتبدّل وجه الكون الادبي: ارتفع العدل على الظلم، الحلم والدعة على الغضب والعجرفة، الطهر والحياء على الخلاعة والعهارة، التقشف والزهد على السكر والشره، القناعة والتجرّد على الطمع والجشع، المحبة والاحسان على الحقد والانتقام. فتشرفت بالصليب الفضيلة على الرذيلة، وتساوى العبد والسيد، والفقير والغني، والضعيف والقوي.

ثم ثارت الوثنية المؤلّهة للرذيلة ثائرها على ديانة الصليب، وحاولت ان تستردّ مركزها، فلقيت حتفها. كانت الاضطهادات الاولى موجةً هوجاء لطمت النصرانية لطمات عنيفة توالت ثلاثة قرون، فلم تقوَ على سحقها، بل صقلتها واخرجتها من هذا المحكّ لؤلؤةً ناصعة البياض، نقيّة الجوهر، صلبةَ المعدن. أما الموجة فانكسرت حدّتها حالما ظهر رسم الصليب في الفضاء، ثم تلاشت...

في مطلع القرن الرابع ظهر الصليب لقسطنطين الملك نجوماً لامعة في قبة السماء. فاتخذهُ حرزاً وترساً وعلماً، وتغلّب به على مزاحميه واعدائه، واصبح امبراطور العالم. فاوقف الاضطهاد الذي أعلنه على النصرانية ديوقليانوس سلفه، وأسّس الامبراطورية المسيحية على ضفتي البوسفور، مفرق الشرق والغرب. تساقطت الاصنام، وتهدمت هياكلها[1]، وقامت الكنائس والصلبان على أنقاضها. تحوّل صليب العار الى علامة الشرف والانتصار، وارتفع على جباه البشر ومخادعهم وابواب منازلهم وقصورهم ومدنهم، وزوايا ازقتهم وشوارعهم،

١) في سنة ٣٣١ اقفل هيكلي الزهرة في بعلبك وأفقا بلبنان. راجع معجم الآثار المسيحية، للاب كابرول، مجلد ٣: عمود ٢٦٧٠

جلس في صدور قاعاتهم ودواوينهم ومجامعهم ، ولمع على تيجان احبارهم وملوكهم وصولجاناتهم ، مصوغاً بأثمن المعادن ، مرصعاً بأكرم الحجارة وازهاها.

وما طال الامر حتى ظهر عود الصليب المقدس المطمور في ارض الجلجلة ، فاهتزّ العالم لهذا النبأ حبوراً . وشيّد له الامبراطور قسطنطين كاتدرائية عظيمة فخيمة على انقاض هيكل الفشحا.[١] ، واخذت الامم كبارها وصغارها ، ملوكها واعيانها واحبارها تتقاطر للاكتحال برؤيته وتكريمه والتبرّك منه . وجعل قسطنطين يوم تدشين كنيسته عيداً عظيماً في الامبراطورية كلها ، كان يدوم ثمانية أيام ، وينتهي بحفلة ارتفاعه « هيبسوزيس » (*Hypsosis*) . كان يعتلي الاسقف مكاناً مرتفعاً ويرفع الصليب بيديه على رؤوس الجماهير ، ويبارك به اربعة اقطار المسكونة ، فيصرخ الشعب بحماس : كيرياليسون !

وطالبت سورية الشمالية بحصّتها من هذا العود الثمين ، فقُسم الى ثلاثة اقسام : قسم بقي محفوظاً في كنيسة القيامة بالقدس ضمن ذخيرة كبيرة من فضة ، وآخر أرسل الى القسطنطينية ، والثالث أُودع مدينة حماة . وكانت حفلة ارتفاع الصليب تُقام في اليوم نفسه في هذه العواصم الثلاث ، فتعمّ بهجتها ونعمها جميع مسيحيي الشرق.

وفي سنة ٥٧٤ ، على أثر غزوات الفرس لسورية ، حُملت ذخيرة حماة الى القسطنطينية . وفي سنة ٦٢٨ استخلص الملك هرقل ذخيرة اورشليم من ايدي الفرس الغزاة وأتى بها في سنة ٦٣٣ الى القسطنطينية . فاحتكرت عاصمة الامبراطورية الرومانية ذخائر العود المقدس . بيد انها ضاعفت الحفاوة بعيد ارتفاعه بكل ما أوتيت من عظمة وثروة وفخفخة . وكانت النصرانية باسرها تشاركها في هذه الحفاوة بالصلوات والمظاهرات والزينات ؛ فيتحول ظلام ليلة العيد الى مصابيح زاهرة ونيران باهرة ، وسكونه الى اكبر مظاهر الحماسة الدينية وأفخمها.

---

١) كان للزهرة معبد بُني على تلّ من تراب رُدم به القبر. راجع معجم كابرول مجلد ٣ : عمود ٢١٢٥

٢ — ارتفاع الصليب في لبنان

ما كاد عود الصليب المقدس يخرج من يد سورية حتى داهمها خطبٌ جلل لم يقم فيها للنصرانية بعده قائم . كانت العلة قد استحكمت من جسمها ، وكمنت تنخر في عظامها . فشت فيها بدع الاريوسية ، فالنسطورية ، فاليعقوبية ، وتمكنت منها ففككت اوصالها . وفي القرن السادس توالت عليها غزوات الفرس ، فاجهزوا على قواها : نهبوا واخربوا واحرقوا وذبحوا . انما ذهبوا كموجة هوجاء تهجم وتلتطم ، ثم تنحسر .

وفي اوائل القرن السابع تجمّع في الصحراء سيلُ العرب العرمرم وطغا على سورية المسيحية فأغرقها ، واجتازها الى وادي النيل ، فالمغرب ، فاسبانية ، فايطالية . تداعت معابدها الواحد تلو الآخر ، وسقطت او تحولت الى جوامع . انكسرت نواقيسها ، وعلت المآذن كاتدرائياتها ، واحتل الهلالُ مواقع صلبانها . طُمرت اسفارها ، وامّحت رويداً آثارها الدينية والعلمية والفنية والادبية ، وخيّم الدمار والجهل والذلّ على أمجادها . نزل صليب الخلاص والنصر والشرف عن مبانيها ومداخل مدنها ودواوينها ، وعادت شارتُه عاراً وذلّاً لراسميها ، وعلامتُه خطراً على حامليها .

تضعضع مسيحيّو سورية أمّ الكنائس ومعلمتها الاولى[1] . استسلموا للغازي صاغرين ، او انضموا اليه جاحدين ؛ ما عدا فئة قليلة عزّ عليها الخنوع والجحود ، فتركت المدن العامرة والسهول الخصبة لتعتصم بجبال لبنان الوعرة القاحلة ، حيث انشأت دولة مسيحية مستقلة متضامنة تحت ألوية رؤسائها ومقدّميها . وفي هذا الحصن المنيع دافعت ثلاثة عشر قرناً طوالاً عن حريتها المدنيّة والدينية وتقاليدها العزيزة ، راضية بالفقر والجهاد عن الذلّ والالحاد .

حاول الطغيان عبثاً ، طيلة هذه القرون العديدة ، أن يخرق الجبل الاشم .

---

١) نعني هنا ان الديانة المسيحية قد انتشرت منها . ففي رسالة وجهها الاساقفة الخارجون من مجمع القسطنطينية الاول سنة ٣٨١ الى البابا داماسوس ، او الدمشقي ، لقبوا كنيسة اورشليم بام الكنائس ، كما سيأتي الكلام في ترجمة القديس كيرلس .

هاجم مرارًا سواحله ، وطوّق جوانبه ، وتسلّق احيانًا بعض مرتفعاته ، انما لم يثبت له فيها قدم ، فانحدر كموج البحر اذا هاجم طودًا منيعاً ضرب شواطئه وحاصرها مزبدًا مرعبًا ، انما لا يسعه بلوغ قمّته ، وان بلغها لا يسعه الاستقرار فيها ، فينحسر عنها. كان لبنان هذا الطود منذ القرن السابع ، وما زال باذن الله حاميه !

اصبح لبنان حصن النصرانية بعد سقوط سورية في ايدي العرب ، وحصن الكثلكة وملجأها الوحيد في الشرق بعد سقوط القسطنطينية الاول في هوّة الشقاق وسقوطها الثاني في ايدي الاتراك

ولم يعد يُسمع صوتُ الرب جليًا في الشرق ، الا خلال ارز لبنان الباسق. ولم يبقَ اصليبه ملكًا في الشرق ، الا في هذا الجبل المقدس. . .

اينما جلت فيه واجلت النظر وجدت الصليب مرتفعًا على قممه وسفوحه وابنيته . فوق كل هضبة سائدة على جوارها ، كما يسود لبنان على جواره ، ترى له معبدًا احتلَّ قتها بارتياح وطمان وثبات جنان . حجارة بيضاء ، قطعها عماله من صخورهم الجميلة ، ونحتها صناعه وزخرفوها بمهارة وعبادة. قبة ظريفة مستديرة ام مسلّة رشيقة ، راكزة على اعمدة رخامية أنيقة ، ويتدلى داخل قفصها ، كالاجاصة بين اغصانها ، جرسٌ سبكته أيدٍ لبنانية ، اذا ترنّح سمعت له رنات ما اعذبها في الآذان وأوقعها في القلوب. هي نداء ، ودعاء ، وغناء . هي نغمة سرور وعبادة وحماس وشجون تهبط على فؤادك من تلك القبة الهيفاء، وتحرك فيه اصلب الاوتار . ثم تنسكب موجاتها بركات وتعزيات على اسطحة القرية ومنعطفاتها ، على اغراسها وحافاتها . واذا بالقوم ينسلّون من اكواخهم وبيوتهم ، من ازقتهم وحقولهم ، تاركين اشغالهم واطفالهم تلبية لدعوته المحبوبة . وقد ألفوا سماعها واستعذبوا لقاءها منذ طفوليتهم . فنغماتها تهيج في صدورهم اكبر ذكريات وتعزيات حياتهم الساذجة الهادئة ، واحلاها وابقاها.

وما هي هنيهة حتى تسمع المياس المؤثرة والالحان الشجية ، المذكّرة بعصور النصرانية القديمة المجيدة ، تختلج في صحن المعبد فترتج لها جدرانه خشوعًا . ثم تتدفق من فتحاته وتصعد على اجنحتها الروحية في الجوّ الصافي نحو قبة السماء

الاطلسية ، حيث تمثل ساجدةً أمام العزة الالهية ، مسترحمةً مسترضيةً عن هذا القطيع الصغير الباسل[١] : « ارحم يا رب من حكامه الظالمين واعدائه الروحيين ، من المبتدعين والمنشقين ، من الاباحيين والملحدين والمفسدين ، الذين يهاجمونه كالذئاب الكاسرة ، من كل جانب بلا شفقة ولا كلل !... »

وقد صانه الرب ويصونه : صان شعوره الديني وحريته المدنية وآدابه القويمة . وان شئتَ ان تعرف السرَّ في هذه الرعاية الخاصة ، فارفع نظرك الى الصليب اللامع على تلك القبة بين السماء والارض . هو الوسيط والحامي والمقوّي . هو الشاري الذي يدرأ عنه صواعق الضربات الادبية والزمنية ، ويستجلب له غيوث البركات والمعونات الالهية .

وقد ارتاح الصليب ، بعد ان سقط في الشرق عن الكاتدرائيات والقصور وشوارع العواصم ، ان يملك هنا وحده على هذا الشعب المختار : على قلبه المستقيم وعاطفته الخالصة ، على عقيدته الراسخة واخلاقه الرضية . على روابي جبله الشماء ، واعاليه الناصعة بالثلوج ، وربوعه الفتانة ، وجوه النقي الزاهي الالوان . تراه هنا يُرسم باحترام وحبّ على جبين الصغير والكبير ، ويرتفع على كل منزل انيق ام حقير ، منحوتاً في الصخر او مصبوباً بالنحاس على منزل الوجيه ، او مرسوماً بالكلس الابيض على باب الوضيع وقبو مواشيه . هو يترأس هنا ، كما في عصر امجاده ، كل اجتماع ، ويتصدّر كل قاعة ، يحرس كل مخدع ومهد ، يتدلّى من اعناق الاطفال ، ويلمع على صدور الفتيات .

هو يحبُّ اللبنانيين ويعزّزهم لانهم يحبّونه ويعزّزونه . وقد حافظوا وحدهم طيلة ستة عشر قرناً على حفلة ارتفاعه القديمة . يحتفون بها بكل ما أوتوا من حماس وما تملك ايديهم من ثروة . في ليلة الرابع عشر من ايلول المنير لعيده يحوّلون جبلهم ، من اقصاه الى اقصاه ، الى زينة عظيمة من الانوار والنيران . تقدّم لاكرامه تربتهم هشيمها ، وأشجارهم اعوادها ، وغاباتهم احطابها ،

---

١) عن الفرض الماروني : خاتمة الساعة السادسة من يوم الاربعاء : [illegible]

ومنازلهم شرفاتها، وكنائسهم اسطحتها، وتلولهم اكتافها، وسفوحهم نتوءاتها، وكهوفهم واوديتهم بطونها العميقة لترديد اصوات الزغاريد والاناشيد والتراويد، واصوات الزمور والطبول والاجراس والبارود.

وعلى اضواء المشاعل والنيران تشاهد الشعب كلّه مجتمعاً لهذه التظاهرة القومية: احباره وكباره، نساؤه ورجاله وصغاره، وقد اشتدّ سرورهم وحماستهم، وعلا هُتافهم، والشبان يدبكون ويقفزون فوق النيران المتأججة، غير مبالين بلهيبها المتعالي، صارخين بملء صدورهم:

محبةً لدين المسيح! كيرياليسون!

والجماهير تردّد بهتاف يشقّ كبد السماء، كما في اورشليم وحماه في عصور مجد النصرانية:

كيرياليسون!!!

وقد هزّت اصوات تمجيد الصليب الفضاء الواسع الحالك، ورجرجت احشاء الكهوف والاودية، وتدفّقت كالشلالات الزاخرة على المدن والسهول والبحور المنبسطة تحت اقدام الجبل الجبار، فتهيّبت. وانعكست انوار الصليب على تجاعيد وجه اليمّ العظيم القاتم، فاضطرب وازبد وأرغى. ولمت شزراً شفرات امواجه المتكسرة على صخور لبنان المسيحي...

* * *

كيرياليسون!

صدى الهتاف العظيم، الذي كان يتصاعد منذ ستة عشر قرناً من صدور الجماهير الغفيرة المحتشدة في اورشليم، وحماه، والقسطنطينية، لمشاهدة ارتفاع الصليب، يحييه الان الشعبُ اللبناني المسيحي الصغير بعدده، الكبير بأمانته وشجاعته وتقاليده.

كيرياليسون!

صدى مئات الآلاف من النواقيس التي كانت تقرع فرحاً في مساء هذا العيد في كل انحاء الشرق، وقد خفتت اصواتها في سورية منذ ثلاثة عشر قرناً، تردّده الآن أجراسُ لبنان من داخل اقفاصها الرخامية، واصوات اللبنانيين من

داخل اقفاص صدورهم.

محبة لدين المسيح ! كيرياليسون !

صدى بعيد من نـداء مقدّمي لبنان المسيحيين حـين كانوا ينقضون على الاعداء كالبواشق الكواسر ليردُّوهم عن جبلهم العزيز ويصونوا حريتهم الدينية والمدنية ، يردّده الان احفادهم في ليلة هذا العيد ، معلنين استعدادهم لبـذل المهج في سبيل استقلالهم الروحي والزمني.

كيرياليسون !

شعلةٌ من آلاف الحرائق التي كانت تستعر في مثل هذه الليلة في انحاء الامبراطورية البيزنطيـة ، وقد انطفأت منذ سقوطها في اواسط القرن الخامس عشر ، يذكّي الآن جمرتها ويضرم اوارها هؤلاء الجبليون المستقيمو الرأي ، على قمم طورهم المقدس ، في عيد تجلي الصليب الكريم.

كيرياليسون !

صدى خطاب بديع بليغ تاريخي حماسي ألقاه ، في اواخر القرن الرابـع ، بجانب القبر المقدس ، القديس كيرلّس اسقف اورشليم ، احد كبار الملافنـة والقديسين السوريين ، على الجماهير الوافـدة من كل حدب وصوب لمشاهـدة حفلات الصليب ؛ نسمعه الان بعد ستة عشر قرناً خارجاً من بطن مخطوطـة قديمة العهد احتفظ بها بطاركة الشعب الماروني ، ومن طيـات كتاب صلوات بيعة حافظ عليه أساقفتهُ في حلب . وقد أتيح لكاهن ماروني حلبي أن يبلّغ الى العالم المسيحي أقواله ، مفسراً الغامض من معانيها ، مرمماً الداثر من آياتها ، محبة لدين المسيح ! كيرياليسون !

٣ — مخطوطة بكركي

وجدنا لهذا الميمر نصّين باللغة العربية مأخوذَين عن مصدر واحد : الاول في خزانة بكركيّ الخطية ، والثاني بين مخطوطات مكتبة الكرسي الاسقفي الماروني بحلب.

وفي المتحف القبطي بالقاهرة ميمران بالعربيــة على ظهور الصليب المقدس منسوبان الى القديس كيرلس الاورشليمي : الاول حديث العبارة مسجع يختلف عن نصّينا بشكله ، انما يظهر ان بعض تفاصيله مستقاة من نصّ ميمرنا الاصلي . وسنقول فيه كلمة . اما الثاني فيحوم موضوعــه حول استخلاص الملك هرقل لذخيرة عود الصليب من الفرس سنة ٦٢٩م ، اي بعــد القديس كيرلس بثلاثة قرون ، فلا داعٍ للاهتمام بامره. وله نسخة محفوظة في متحف مونيخ بالمانيــة تحت رقم ٢٤٢ . ولنحصر الآن كلامنــا في نصّي بكركي وحلب .

أذعنـا بشرى اكتشاف هــذا الميمر في صدر الجزء العاشر من مجلتنا البطريركية لسنتها الخامسة (١٩٣٠) ، في مقدمتنا على رسالة زرع يعقوب ملك الحبشة ذي محمد جقمق سلطان مصر وسورية سنة ١٤٤٧م. ونشرنا بهذه المناسبة بيانَ توضيحات المخطوطة التي أثبتـه . واليك خلاصة ما قلناه فيها :(١)

« بين مخطوطات خزانة الكرسي البطريركي الماروني في بكركي كتاب كرشوني خطّ ، قديم العهد ، قطع من العدد ٣٧٣ سنة . خشبي الجلد ثقيله ، سميك الورق صقيله ، أسود الحبر لامعــه ، ما عدا العناوين فبالحبر الاحمر ، تعلوها رفارف مزخرفة بشتى الالوان. وقد رُقمت كراريسه بالاحرف الاسطرنجلية، ودُلَّ على آخر الجملة بنقطة حمراء ، وعلى نهاية المعنى باربع نقع من اللون ذاته محيطة بنقطة سوداء . أعدّه صاحبهُ للخلود . فجهّزه بورق متين وجلد ثخين ، غير حاسب للعثة حساباً . فقد عاشت في أوراقــه بلا رادع ، وعشّشت فيهـا

(١) المجلة البطريركية ٥ : ٦٤٦

بطمأنينة ، وخلطت بعضها ببعض لاهية ، فذهبت بقسم من حروفه وأرقامه . ولم ينثن عزمها امام صلابة دفتيه الخشبيتين ، المكسوتين بجلد من بقر ، بل هاجمتهما وتخرتهما . وكادت تطوي السفر النفيس في خبر كان ، لو لم ننجده عليها في خريف سنة ١٩٢٢ ، حين كلفنا غبطة بطريركنا المبجل مار الياس بطرس الحويك تنظيم مخطوطات هذه الخزانة . فعينا له رقم ١٥ في القائمة التي وضعناها عندئذ . وفي سنة ١٩٢٩ ، لما نقلنا مجلتنا الى لبنان استفقدناه فألفيناه بحالة غير مرضية ؛ اذ أعادت عدوّة المخطوطات عليه الكرّة . فأنقذنا كنوزه من براثنها نهائياً بنشر اثمنها ، حتى اذا تغلبت عليه للمرة الثالثة ، وهي لا شك فاعلة لرطوبة المكان ، لم تفز منه الا بما تدنت قيمته .

« واول مـا وجهنا اليه العناية ، بعد نفض غباره وانقـاذه من الجرائيم الآكلة فيه ، وضع الارقام على صفحاته ، فبلغت ٤٩٤ قياس الواحدة ١٨×١٣ سنتمترًا . وبين الصفحة ٤٤ والتي تليهـا سبع ورقات مـلوخـة ، تضمنت موضوعاً او اكثر قائماً بنفسه ، لان الموضوعين السابق واللاحق كاملان .

اما اسم الناسخ فوارد فيـه مرتين . في الصفحة ٣٥٤ رسم متقن لعجلة السنين[1] مع ايضاحات بالسريانية لمعرفة عيد الفصح على الحساب اليولياني[2] ابتداء من سنة ١٨٦٩ يونانية الموافقـة لسنة ١٥٥٨ مسيحية . وقـد علق الناسخ في الصفحات ٣٥٥—٣٥٨ شرحاً على اختلاف هذا الحساب والحساب الشرقي تحت العنوان الآتي :

« بيان الغلطة من ابن صارت بين النصارى [كتب] ذلك ويته الحقير في الكهنة يوحنا طاتيه . . . وهذه العجلة موقّعة على حساب الكرسي الرسولي كرسي رومية . . . وهو يقيم اليوم الزايـد من كل سنة في حسابه ويجعل الفصح بخمسة في نيسان . ويتبعـه في ذلك الملكية

---

١) انظر الرسم ١

٢) نسبة الى الامبراطور الروماني يوليوس قيصر الذي استقدم من الاسكندرية العالم الفلكي سوسيجنيس في سنة ٤٦ ق . م . فجعل السنة الشمسية ٣٦٥ يوماً وست ساعات . فزادت السنة ١١ دقيقة و١٠ ثوان . وقد اصلح غريغوريوس ١٣ هذا الخطأ سنة ١٥٨٢ فعُرف حسابه بالغريغوري . وهو الذي يتمشى عليه العالم اليوم . (راجع مجلة المشرق ك ٣ الاخير صفحة ٤٨و٤٦)

وسبطنا وجميع معاملات الغرب . واما النساطرة واليعاقبة فانهم يسقطوا ذلك اليوم الزايد في حساجم ويعملون الفصح في ستة من نيسان »

وفي آخر الشرح صفحة ٣٥٧ يقول :

« هلمّوا على الخاطي الحقير في الكهنة يوحنا ابن الخوري ايوب الذي اجتهد وبيّن ذلك بمعونة روح القدس . وهذا كتبناه لطائفي الكرسي الرسولي . . . »

ومن هـذا نستدلّ ان الكاتب كاهن ماروني يُدعى يوحنا ابن الخوري أيوب . ولعله القس يوحنا ايوب الحصروني الـذي اوفـده البطريرك سركيس الرزي الى رومية سنة ١٥٨٢[١] . انما قد نسخ كتابه قبل هذه السنة التي ظهر فيها الحساب الغريغوري . ولما كان التقويم يبـدأ بسنة ١٥٥٨م فالمرجح ان الكتاب نسخ سنة ١٥٥٧ او على الاكثر قبيل فصح سنة ١٥٥٨ المذكورة . ولولا ذلك لما بدأ تقويمه بتلك السنة لمعرفة ميعاد فصحها .

اما المصدر الاصلي الذي نقل عنه ناسخ المخطوطة ، او من سبقه ، فيغلب على الظن انه مجموعة لاحد السريان اليعاقبة القاطنين في القطر المصري ، حيث كان لهم شان يُذكر . كما بيّنه حضرة الخوراسقف اسحق ارملة في مقالة كتبها لمجلتنا السورية[٢] .

ويُستدلّ على جنسية الجامع السريانية ومذهبه اليعقوبي من كثرة الموضوعات المأخـوذة عن آباء السريان واحبارهم[٣] كيعقوب السروجي ، ومار اسحق السرياني ، والبطريرك يوحنا ابن المعدني ، وموسى بن حجر الموصلي . وهـو يلقب هذين الاخيرين بالقديسين ويطلب صلواتها ، وهما يعقوبيان . ولا يبعد ان يكون موضوع الاوراق السبع الملوخة قد حوى ما يشتم منه رائحة هـذه البدعة فنزعها الناسخ او صاحب الكتاب .

والدليل على ان جامع المخطوطة كان نازلًا وادي النيل نجده في ايراده

١) راجع تاريخ الموارنة للدبس صفحة ٣٩٧

٢) ١ : ٥١٩ و٦ : ٧ ، راجع ايضاً مقالته الاكثر اسهاباً في مجلة المشرق ٢٣ : ٨٢-٣٨٤ و٥٢٦ و٥٧٤ و٧٤١ ، وقد طبع نبذته هذه على حدة في المطبعة الكاثوليكية ببيروت سنة ١٩٢٥

٣) راجع ياها في مجلتنا البطريركية ٥ : ٦٥٢ - ٦٥٥

اسماء الاشهر القبطية. واذا وردت باسم آخر قابله بالشهر القبطي. ففي صفحة ٢٤١ يقول عن اليهود انهم باشروا « ازالة الروم عن قبر السيد المسيح في الثاني عشر من شهر مارديوس الذي هو برمهات (اذار) ومـا زالوا يعملون فيه الى الثالث عشر من شهر توت (ايلول) » وقد جاء في عنوان قصة القديس يهنام ، الذي له مكانة كبيرة في كلندار السريان ، انه « اكمل جهاده في العاشر من كانون الاول سنة ٦٣٣ لاسكندر وهو الرابع عشر من كيهك » . ولعل اهتمام الجامع باثبات رسالة ملك الحبشة المذكورة اعلاه الى سلطان مصر ليرفق بالمسيحيين من رعاياه ويرفع عنهم الجور في معاملات الوراثة وغيرها دليـل آخر على ان المجموعة وُضعت في القطر المصري.

ومواضيع المجموعة كلها مكتوبـة بالحرف الكرشوني ، ما عدا رسالة ملك الحبشة فبالعربية ، وتعزية للموتى ، وميمر للجمعة الكبيرة كتبها بالسريانية. اما ميمر القديس كيرلس الاورشليمي فقد ورد بالكرشوني ايضاً وشغل ٦٤ صفحة من المخطوطة من صفحة ١٨٧ حتى ٢٥١ . وسندلّ على هذه الصفحات بارقام نضعها بين قوسين معكوفين كما هي عادتنا.

٤ ــ مخطوطة حلب

ما كدنا ننتهي من درس نصّ الميمر وإعداده للطبع حتى علمنا من مطالعة كتاب « الفروض البيعية في كنيسة حلب المارونية » الذي وضعه المأسوف على علمه الخوراسقف جرجس منش الحلبي[1] ، ان بين هذه الفروض المخطوطة صلوة بالسريانية لعيـد ارتفاع الصليب ، أُلحق بها ميمر للقديس كـيرلس الاورشليمي على ظهور عـود الصليب . فاسرعنا بالاستفهام عنه حضرة الاب فرنسيس ايوب ، وكيـل مجلتنا في سورية ، وطلبنا اليه نصّ الفقرتين الاولى والاخيرة منه ، فوجدناها مطابقتين حرفياً لنصّ ميمر بكركي. ولـما كان ميعاد سفرنا الى رومية قريباً ، لا يسمح لـنا بالذهاب بنفسنا الى حلب ،

(١) صفحة ٥٧ ، طبع بالمطبعة المارونية بحلب سنة ١٩٣٦

رجوناه ان يستنسخ لنا الكتاب كله بالتصوير الشمسي. فلبى طلبنا حالًا واتحفنا بمعلوماته عن المخطوطة « انها موضوعة تحت رقم ١٠٤٣ من مكتبة القلاية ، مكسوة بجلد قديم لحق الهراء بعضه وذهب باطراف بضع ورقات. قياس صفحاتها ٢٨ × ١٦ سنتمترًا. وعددها ١٦٦. يشغل الميمر المكتوب بالكرشوني الصفحات الاربع والسبعين الاخيرة منها. اما ما سبق فيتضمن فرض عيد الصليب بالسريانية ، المؤلف من صلوات المساء ، والستار ، والليل ، والصباح » وقد لاحظنا ان بين صفحة ٣٦ و٣٧ قد سقطت ورقة حاوية لحكاية ردم اليهود لقبر السيد المسيح ، التي وردت في الصفحات ٢٢٢ – ٢٢٤ من مخطوطة بكركي. وسننبه اليها في حينها. وفي ذيل المخطوطة قرأنا الحاشية التالية:[1]

« تم كمل هذا التشمشت على يد احقر الناس وانجسهم وارذلهم بفعاله الوصخة القبيحة الكامل في كل عيب سركيس الشفي من قرية كفرحورا المحروسة[2]. وكان ذلك في سنة الف وثمانماية تسعة وستين[3]. وكانوا المعتنيين في هذا الكتاب جماعتنا الموارنة القاطنين في مدينة حلب على يد ابن عمي الشماس جبرايل. الله يجازيهم الخير امين ويخلصهم من اعدايهم امين. الرب يرحم من يترحم على حقارت الناقل والمعتنين امين »

« اجعل يا رب ذكرًا صالحًا لمعلمي[4] لاخي الحبيس ميخاييل المعتني في تدبير حقارتي في النفس والجسد الله يوفيه في ملكوته السماوية امين ولمعلمي المطران مالك ولابن خالي القس ابراهيم وللاخ الشماس جرجس صاحبين الفضل والاحسان علي. ولاخوتنا الرهبان القسوس والشمامسة القاطنين معنا في الوادي المبارك. الله يخلصنا ولهم من جميع الضربات الشيطانية امين»

وفي أسفل الصفحة حاشية أخرى بالكرشوني كُشط اسم كاتبها وغطيت كلماتها بالحبر ، توصلنا الى قراءة هذه الكلمات منها:

« قري في هذا الكتاب المبارك . . . اله . . . ابن الياس ؟ . . . من قرية اهدن . . . في سنة الف . . . وعشر . . . في ايام البطريرك يوحنا مخلوف الهدناني[5] ܘ ܡܟܐ ܠܐܚܐ ܡܚܣܢܐ »

وقد توصلنا بعد البحث الى معرفة اسم الدير الذي نسخ فيه هذا الميمر وهوية الاشخاص الثلاثة المذكورين في الحاشية: اي الحبيس ميخائيل، وسركيس الناسخ، والمطران مالك. اهتدينا اليهم من اسم هذا المطران، الذي ذكره الدويهي[6] بقوله:

---

١) انظر الرسم ٢
٢) من مقاطعة الزاوية في ساحل لبنان الشمالي
٣) يونانية اعني سنة ١٥٥٨ م
٤) شطب الناسخ على كلمة معلمي بعد ان كتبها
٥) ١٦٠٩–١٦٣٣
٦) ص ١٦٨ من تاريخه المطبوع في بيروت

« في سنة ١٥٦٠ انتقل الحبيس ملكا البقوفاوي وكان قد مضى له ستون سنة في النسك والزهد. اعتزل اولاً في دير قزحيا ثم في دير مار دوميط دارياً. ثم في كنيسة السيدة المقطوعة بالشقيف مقابل عرجس. ثم في كنيسة مار ميخائيل في دير قزحيا. »

فالمطران مالك قضى اذاً الشطر الاخير من حياته في محبسة قزحيا، وتوفي فيها بعد انجاز نسخ هذا الميمر بسنتين.

واذا عجبت من ايراد الناسخ لاسم الحبيس ميخائيل قبل اسم المطران مالك المذكور فاعرف انه البطريرك ميخائيل الرزي الذي قال عنه الدويهي[١] ما يلي:

« وفي سنة ١٥٦٧ في التاسع من اذار كانت وفاة الاب الصالح البطريرك موسى العكاري وفي اليوم الثاني عشر اتفق رؤساء الكهنة واكابر الطائفة على الحبيس ميخائيل بن الرزّي من قرية بقوفا وكان رئيساً سابقاً على دير قزحيا وعلى المحبسة. ولكنه اعتزل رئاسة الدير المذكور وانتقل الى محبسة مار بيشاي راغباً في الوحدة. فلما قضى الله بوفاة البطريرك موسى اجبرته الطائفة رغماً منه بتدبير الكرسي الانطاكي واقاموا مكانه في الحبس اخاه القس سركيس البقوفاوي ».

فناسخ الكتاب « الشقي سركيس من كفرحورا الكامل في كل عيب » هو اذاً البطريرك سركيس الرزّي، اخو الحبيس ميخائيل رئيس الدير حينئذٍ، وتلميذه. وهذا السرّ في انه ذكره قبل المطران مالك ولقبه اولاً « بمعلمي » ثم ضرب على هذا اللقب فكتب « اخي ». ويرجح ان الحبيس ميخائيل أمره بذلك تواضعاً. واغلب الظن انه هو ايضاً الذي ناظر على نسخ الميمر وأملى على اخيه الفقرات الزائدة الدخيلة، كما سنشرحه في ما يلي. اما انتساب الناسخ الى قرية كفرحورا، مع ان الدويهي يجعله مع اخيه من بقوفا، فسببه ان اهل اهدن، الواقعة شمال بقوفا، بعد ان طردوا اليعاقبة من قريتهم[٢] هجموا على قرية بقوفا، المواجهة لهم، وخربوها لانحياز سكان الجزء الاسفل منها الى اليعاقبة. فاضطر آل الرزّ الساكنين في المحلة العليا منها، مع انهم صانوا انفسهم من البدعة، ان ينزحوا الى قرية كفرحورا في الزاوية. وما برحوا فيها

١) الدويهي: ص ١٧٠

٢) الدويهي: ص ١٤٣

وفي جوارها حتى اليوم[١].

وسركيس ناسخ الميمر قد خلف اخاه على رئاسة المحبسة سنة ١٥٦٧ كما رأيت وعلى الكرسي البطريركي سنة ١٥٨١ ، كما ذكر الدويهي ايضاً في حوادث هذه السنة[٢].

ولاحظ هنا ان الحبساء الثلاثة المذكورين في الحاشية اصلهم من قرية بتوفا. والسبب في اجتماعهم في دير قزحيا ان باني محبسة مار ميخائيل التابعة لهذا الدير ، هو القس بركات البتوفاوي[٣]. وقد اشتهر رؤساء هذا الدير ورهبانه بنشاطهم في نسخ الكتب البيعية والروحية. ذكر الدويهي عن رئيس هذا الدير الاسقف يوسف الحاجي (+١٥٤٤) « انه لم ينقطع حياته عن نسخ الكتب البيعية حتى امتلأ جبل لبنان من خطه الجميل كتباً[٤] » وهكذا كان خلفه الاسقف جبرائيل ابن شقيقته[٥] الاهدني (+ ١٥٥٦) الذي تولى الحبيس ميخائيل مكانه[٦].

ومما يهمنا من كل ما تقدم ان سركيس الرزي نسخ الكتاب في دير قزحيا سنة ١٥٥٨ م ، حين كان راهباً بسيطاً ، تحت مناظرة الحبيس ميخائيل اخيه ومعلمه ورئيس الدير في تلك السنة. ولعل المطران مالك شاركه في هذه المهمة وفي التأثير على الناسخ لادخال ما ارتأياه تحسيناً وتكميلاً للموضوع.

اما كيف اتصل هذا الميمر بالموارنة مع بعدهم عن القطر المصري وانقطاع علاقاتهم بأهله فيغلب على الظن انهم اخذوه من رهبان الاقباط في القدس ، الذين كانوا يجاورون دير الموارنة ، واحتلوه بعد ان هرب رهبانه على اثر وقوع شخص في البئر ، كما هو مشهور[٧].   (له صلة)

---

١) راجع تاريخ الموارنة للمطران الدبس : ص٢٩١
٢) الدويهي : ص١٧٧
٣) الدويهي : ص ١٤٢
٤) الدويهي : ص١٦٣
٥) الدويهي : ص٢١٦
٦) الدويهي : ص١٦٦
٧) الدويهي : ص ١٦٧

ابن عبد ربه و«عقده»

درس ادبي تاريخي

بقلم جبرائيل جبّور
احد اساتذة الادب العربي في جامعة بيروت الاميركية

١١

شعره

يقول ابن الفرضي عن ابن عبد ربه «هو شاعر الاندلس واديبها.»[١] ويذكر الفتح بن خاقان ان ابن عبد ربه «حجة الادب، وان له شعرًا انتهى منتهاه وتجاوز سماك الاحسان وسهاه.»[٢] ويزعم علي بن سعيد المغربي صاحب «عنوان المرقصات والمطربات» ان ابن عبد ربه «امام اهل ادب المئة الرابعة وفرسان شعرائها في المغرب كله.»[٣] ويروي البعض ان المتنبي انشد شعرًا لابن عبد ربه فصفق بيديه وقال: «يا ابن عبد ربه لقد يأتيك العراق حبوًا.»[٤]

واخشى ان تكون آراء هؤلاء كلهم قليلة القيمة عندنا. ذلك لاننا اذا قرأنا ترجمة هؤلاء المؤرخين والادباء لغير هذا الشاعر وآراءهم في شعره وتقديرهم لمكانته الفينا ان اكثر الذين تُرجمت حياتهم شعراء كبار، وان كلًّا منهم «شاعر الاندلس واديبها» وان لكلّ منهم شعرًا «انتهى منتهاه وتجاوز سماك الاحسان وسهاه». نعم لقد تعوّد اكثر هؤلاء القدماء ان يصدروا احكامهم

---

١) ابن الفرضي ١: ٣٧ ٢) ابن خاقان: ٥١

٣) علي بن سعيد المغربي: عنوان المرقصات والمطربات، مصر سنة ١٢٨٦، ص٥٦

٤) ياقوت ٢: ٧١. ويذكر علي بن سعيد المغربي الابيات التي حكم المتنبي لسامعها ان ابن عبد ربه شاعر الاندلس، صفحة ٥٦

ويقطعوا في الامور التي تعرض امامهم ، دون روية واحتياط وايثار للقصد والاعتدال . فيبالغون في مدح المترجم او يسرفون في ذمه [اذا كانت لهم غاية في ذمه] ولا يقضون في حكمهم قضاء نزيهاً بريئاً من اغراضهم الخاصة وتأثراتهم الشخصية ، وقليل جداً من كل هؤلاء من استطاع ان يكون مستقيماً في حكمه ، مقتصداً في رأيه ، يقضي في هذه المسائل الادبية التي تعرض له من تقدير شعر شاعر ، او نثر ناثر ، والحكم على صاحبه قضاء صحيحاً خالياً من الغرض ، بريئاً من الهوى ، طليقاً من قيود العادات والتقاليد حتى يكون لحكمه وزن ولرأيه قيمة . واذن فعندما نرى هؤلاء يتفقون او يكادون يتفقون على ان ابن عبد ربه صاحبنا هو زعيم شعراء الاندلس فيجب ان لا نقنع باحكامهم ولا نتقيد بآرائهم ، اذ كل ما يقولون هو انهم سمعوا الناس تقول هذا ، او ارادوا لغرض في نفوسهم ان يكتبوا هذا ، او انهم ، وهو لا رجع ، قد تعودوا ان يقولوا في اكثر الشعراء مثل هذا .

خذ الفتح بن خاقان مثلاً وافتح كتابه عرضاً ، وها انا افتح الكتاب كذلك ، وها امامي صفحة ٣٦ ، وفيها ترجمة فقيه . انظر كيف يبدأها : « اي اشرف لاهل الاندلس ومفخر واي محتد شيد الاسلام وسحر خلدت منه الاندلس فقيهاً عالماً اعاد مجاهل جهلها معالماً » حتى يقول : « سمع بالاندلس وتنقه حتى صار اعلم من بها وافقه » . انتخب موضعاً آخر من الكتاب وهوذا صفحة ٥٣ تقع تحت نظري وفيها ترجمة فقيه آخر : « امام اللغة والاعراب وكعبة الآداب » . واقرأ في صفحة ٢٨ ترجمة لوزير فقيه : « واحد الاندلس الذي طوقها فخاراً . » او صفحة ٧٤ ، وفيها ترجمة اديب قال عنه : « زهت به الاندلس وتاهت وحاسنت ببدائعه الاشمس وزاهت فحسد المغرب فيه المشرق وغصّ به من بالعراق وشرق . » او صفحة ٩١ وفيها ترجمة شاعر صدرها بقوله : « رافع راية القريض . » وقريباً من هذا كانت احكام ابن الفرضي وكثيرين غيره ممن تعرّضوا لتقدير شعره .

الا انه لم يفت البعض منهم ان يقتصدوا نوعاً ما في مدحهم اياه من هذه الناحية فقد ذكره الضبيّ فقال فيه ما قاله الحميدي . « من اهل العلم والادب

والشعر كانت له بالعلم جلالة وفي الادب رياسة وشهرة مع ديانة وصيانة.»[١] وذكره ياقوت فاورد رواية «مدح المتنبي له واكتفى بما قاله الحميدي فيه[٢]. وذكره ابن خلكان فاشار الى انه له ديوان شعر جيد[٣]. وروى بعض اشعاره الثعالبي وقال عنه «احد محاسن الاندلس علماً وفضلاً وادباً ونبلاً» وشعره في نهاية الجزالة والحلاوة وعليه رونق البلاغة والطلاوة.[٤] والغريب ان هؤلاء الذين اعتدلوا في مدحه، واقتصدوا في نعته، واكتفى بعضهم بقوله انه من اهل الشعر وذكر البعض الآخر ان له شعراً جيداً، لم يشر احد منهم الى موضع الجودة في شعره، ولم يذكر احد منهم من اين كانت له الرياسة والشهرة في الادب، ولم يتصدَّ احد منهم الى نقد آراء الرواة التي نقلوها عنهم في صدد الحكم على هذا الشاعر. وكم كنا نود لو ذكروا لنا اسباب حكمهم او طرق نظرهم، او وصفوا لنا موازين تقديرهم للشعر علّنا نستطيع من هذا كله ان نكتشف ما يسهل علينا ان نحكم على شاعرية ابن عبد ربه حكماً عادلاً مستقيماً بعد ان ضاع اكثر شعره الذي يظهر ان بعضهم رجع اليه. قال ابن خلكان: «وله (اي لابن عبد ربه) ديوان شعر جيد.»[٥] وذكر ياقوت، والضبي عن الحميدي، ان شعر ابن عبد ربه مجموع، وان الحميدي رأى منه نيفاً وعشرين جزءاً من جملة ما جمع للحكم بن عبد الله.»[٦]

وليس بين ايدينا الآن من هذا الشعر كله سوى الف واربع مئة بيت ونيف[٧]. ولربَّ معترض يقول ان في هذا القدر من الشعر الكفاية للحكم على صاحبه، ولكننا لا نرى هذا الرأي، ولا نصدر حكماً باتاً على شاعر ما

---

١) الضبي : ١٢٧
٢) ياقوت ٢ : ٦٨
٣) ابن خلكان ١ : ٤٥
٤) الثعالبي ١ : ٤١٢
٥) ابن خلكان ١ : ٤٥
٦) ياقوت ٢ : ٦٧، والضبي : ١٢٧
٧) لقد عُني السيد شفيع بعدّها، وذكر في مقاله بعجب نامه صفحة ٤١٧، ان العقد يضم منها ١٢٥٠ بيتاً، وان في سائر الكتب ٩٢ بيتاً منها ٢٧ في المطمح، و ١٤ في طبقات الامم، و ٢ في وفيات الاعيان، ونحو ٦٠ في اليتيمة. والظاهر ان السيد شفيع اخطأ في حسابها حيث ان مجموع الارقام الاخيرة يبلغ ١٠٣ لا ٩٢ كما وانه قد اهمل نفح الطيب... للمقري ففيه شعر لم يذكر في كتاب آخر.

قبل ان نطّلع على ديوانه تامًا او على الاقل على القسم الاكبر من شعره . اذ قد يجوز ان يكون الشعر الذي بين ايدينا مما بقي لهذا الشاعر هو من احسن شعره او من ارذله ، وفي كلتا الحالتين لا يمثله تمام التمثيل . زد على ذلك اننا سنضطر ان نسقط من هذا العدد الذي ذكرناه ٤٤٥ بيتاً تألفت منها ارجوزته في غزوات الخليفة الناصر[١] ، وقد مرّ معنا انها ليست من الشعر في شيء ؛ انما هي تاريخ منظوم . وكذلك سنسقط ايضاً ١٩١ بيتاً تألفت منها ارجوزته في العروض[٢] ، تلك الارجوزة التي يصدق عليها من حيث القيمة الشعرية ما يصدق على اختها التاريخية . وسنسقط ايضاً ٦٣ بيتاً ذكر ابن عبد ربه انه ضمنها في مقطعاته الغزلية عن ضروب العروض واشار الى انه نقلها عن كتاب الخليل في العروض[٣] . فلا يبقى لدينا بعد هذا كله من شعر ابن عبد ربه سوى سبع مئة بيت ونيف . واذن فحكمنا على شاعريته وفنه انما هو يستند الى هذا القدر القليل ، وهو اذًا عرضة للخطأ ، اذ قد يجوز ان يكون فيما بقي من شعره ما يوصل الى غير هذه النتائج التي سنصل اليها . فلنسجل تحفظنا منذ الآن ونعيد القول ان حكمنا ليس نهائياً ولا باتًّا . انما هو قابل « للاستئناف والتمييز » . وعسى ان يكون في طيّات الكتب الخطية المدفونة ما يجلو غامض هذه الناحية يوماً ما .

وبعد فكنا قد درسنا في حياة ابن عبد ربه شيئاً عن المحيط الذي نشأ فيه ، فذكرنا قرطبة وما بلغت اليه في ذلك الزمن من الحضارة والرقي ، وما كان فيها من ضروب العلم وسبل اللهو ، وأشرنا الى ما كان يحيطها من مناظر طبيعية خلابة من جبال غطّت مناكبها اشجار الورد الذي كان يرى اصحابه الفضل لمن قطف بيده ما يمنحونه منه ، ونهر ينساب في ربوعها وقد قرّب برآه الواحد من الآخر وتقطعت غدرُه ، وانبسطت على جنباته مروج من الخضرة وبساتين من الفاكهة زادته بهجة ونضارة واكسبته معنى وحلاوة . وتصدينا الى المجتمع الذي عاش فيه والناس الذين احتكّ بهم وعاشرهم في الحلقات المختلفة من فقهاء وعلماء ، وامراء وخلفاء . والمحنا الى حياة اللهو التي عاشها في

١) ابن عبد ربه ٢ : ٣٦٣

٢) ابن عبد ربه ٣ : ١٦١

٣) ابن عبد ربه ٣ : ١٨٨

شبابه ، والطرق التي سلكها في لهوه ، واشرنا الى بعض المحن التي عرضت له ، وتوصلنا الى فهم بعض نزعاته وميوله ، وطبعه ، وخلقه . وللقارئ ان يقدّر تأثير هذه كلها في نفس ابن عبد ربه ، وبالتالي في شعره الذي لم تحفظ لنا الاقدار منه سوى النزر اليسير .

ويتبيّن لنا من هذه الآثار التي بقيت من شعره ان الفنون التي تعرّض لها ابن عبد ربه هي : الهجاء ، والمدح ، والرثاء ، والغزل ، والزهد ، وبالطبع قد تعرّض في سبيل هذه الفنون الى الوصف ، وربما قصر بعض شعره على وصف روضة ما او جنة من تلك الجنات التي عرفت بها قرطبة وما جاورها من بقاع الاندلس ، او على وصف حرب او قتال ، او سيف ، او جواد ، وما الى هذه الامور . اما الموشّحات التي ينسبها اليه البعض فلم نقع على اثر لشيء منها في كل المصادر التي بين ايدينا ، وسنعرض لدرس هذا الامر في آخر البحث .

الهجاء

كان ابن عبد ربه يحبّ الهجاء ، وكان يرغب في الدعابة والفكاهة فيه . ترى ذلك واضحاً في عقده ، في هذه المواضع التي تعرّض فيها بالانتقاد للكثيرين من الذين اخذ عنهم كالمبرّد ، وابن قتيبة ، وسيبويه ، او روى لهم نقلاً عن هؤلاء وغيرهم . ولعلّ القارئ لا يزال يذكر انتقاد ابن عبد ربه للمبرّد في صدد ما جمعه الاخير بكتابه الروضة ، وكيف زعم ان المبرّد كان يخطر بكل الاشعار الجميلة التي لا نظير لها فيتخطّاها الى التي تجانسه في برده ، وقال : « ما احسبه لحقه هذا الاسم المبرّد الا لبرده » ، ولعله لايزال يذكر ايضاً هذه الناحية من خلق ابن عبد ربه التي اشرنا اليها من حيث حبه للتعرّض بالغير في شيء من الانتقاد ، وذكره للروايات المختلفة في ما عيب على الشعراء وغيرهم وتدوينه الكثير من الاشعار التي قيلت في هجو الثقلاء . وقد كان لهذه الناحية من خلقه اثر ظاهر في شعره . ويظهر انه وفق الى حدّ ما في فهم الهجاء على الوجه الذي يجب ان يكون عليه من حيث تصوير المساوئ والتعرّض لاصحابها بشيء من الدعابة والفكاهة ، حتى اذا سمع الهجو سامع استنكر الدينة واستظرف

النكتة وضحك مع ناظمها . واليك مثلًا من شعره هذا وقد وقف تحت روشن قصر في قرطبة لبعض الرؤساء ، وكان فيه غناء حسن ، فرُشَّ بماء ، فاستدعى رقعة وكتب الى صاحب القصر بهذه القطعة :

يا من يضنّ بصوت الطائر الغرد ماكنت احسب هذا البخل في احد !
لو ان اسماع اهل الارض قاطبةً أصغت الى الصوت لم ينقص ولم يزدِ !
فلا تضنّ على سمعي ، تقلّده صوتًا يجول مجال الروح في الجسدِ .
اما النبيذ فاني لست اشربه ، ولست آتيك الا كسرتي بيدي .

وقال يهجو بخيلًا :

لا يفطر الصائم من اكله ، لكنه صوم لمن افطرا
في وجهه من لؤمه شاهد يكفي به الشاهد ان يخبرا
لم يعرف المعروف افعاله قط ، كما لم تنكر المنكرا (١

وقال يهجو آخر :

ما بال بابك محروسًا ببوّاب يحميه من طارق يأتي ومنتاب ؟
لا يحتجب وجهك الممقوت عن احد ، فالمقت يحجبه من غير حجّاب !
فاعزل عن الباب من قد ظلّ يحجبه فان وجهك طلّسم على الباب .(٢

وذكر في عقده انه قصد شخصاً ورجاه وامله فما اغناه شيئاً انما كتب اليه بعدةٍ في صحيفة ومطله بها ، فقال فيه :

صحيفةٌ أفنيت ليت بها وعسى عنوانها راحة الراجي اذا يئسا .
وعد له هاجس في القلب قد برمت احشاء صدري به من طول ما انغبسا .
مواعد غرّني منها وميضُ سنا حتى مددت اليها الكفّ مقتبسا .
فاصبحت حجرًا لو كنت تقربه ، من لؤمه ، بعصا موسى لما انبجسا .
كانما صيغ من بخلٍ ومن كذبٍ فكان ذاك له روحاً ، وذا نفسا .

وقال فيه ايضاً :

صحيفةٌ طابعها اللومُ ، عنوانها بالجهل مختومُ
اهدى لها ، والخلف في طيها ، والمطل والتسويف واللومُ
من وجهه نحسٌ ، ومن قربه رجسٌ ، ومن عرفانه شومُ .
لا تحتضم ، ان بتّ ضيفًا له ، فخبزه في الجوف هاضوم .
، تكلمه الالحاظ من رقة ، فهو بلحظ العين مكلومُ

١) ابن عبد ربه ٣ : ٢٢٠
٢) « « ١ : ٣٠

لا تأتدم شيئاً على أكله ، فانه بالجوع مأدوم . (١

وذكر ابن صاعد الاندلسي في طبقات الامم انه كان لابن عبد ربه ابن اخ اسمه سعيد . وكان طبيباً وشاعراً فافتصد يوماً وبعث الى عمه راغباً اليه في ان يحضر عنده مؤانساً له ، فلم يجبه عمه الى ذلك وابطأ عنه فكتب سعيد الى عمه :

لما عدمت مؤانساً وجليسا ، نادمت بقراطاً وجالينوسا ؛
وجعلت كتبها شفاء تفرّدي ، وهما الشفاء لكل جرح بوسا .
ووجدت علمهما ، اذا حصلته ، يذكي ويحيي للجسوم نفوسا .

فجاوبه ابن عبد ربه احمد :

ألفيت بقراطاً وجالينوسا لا يأكلان ، ويرزآن جليسا ،
فجعلتهم دون الاقارب جنّة ، ورضيت منهم صاحباً وانيسا .
واظن بخلك لا يرى لك تاركاً حتى تنادم بعدهم ابليسا . (٢

وترى في ردّ ابن عبد ربه ميله الى النكتة في الهجاء ، ومداعبته الشديدة الوطأة لابن اخيه ، ناسباً اليه البخل وزاعماً له ان ذاك سيجرّه الى منادمة ابليس .

وكان يجنح ابن عبد ربه في بعض الاحيان الى النكتة اللاذعة يصوغها بشيء من بذيء اللفظ او يديرها على شيء من سافل المعنى . فقد جرت بينه وبين ابي محمد القلفاط الشاعر مشادّة وخصام أثارهما القلفاط اذ دعا ابن عبد ربه بلقبه (طلاس) ، فاقذع له ابن عبد ربه بالجواب . ثم صنع القلفاط قصيدة في هجو ابن عبد ربه ، وتهاجيا . ثم التقيا مرةً عند بعض الوزراء ، فسأل عن حالهما فانشد القلفاط بيتاً هجا فيه ابن عبد ربه . غير انه ما كاد يكمله حتى بادره ابن عبد ربه ببيت صبّ فيه جام نقمته عليه فاقذع اشدّ اقذاع ، والقم القلفاط حجراً ، فانقطع خجلاً . ومع ان البيت غاية في الفحش معنى وتعبيراً فانه مثال قوي لقوة النكتة وبراعة صاحبها في ايرادها . وقد ذكره المقّري على عجره وبجره شاهداً على سرعة جواب اهل الاندلس[٣] .

---

١) ابن عبد ربه ١ : ٤٦

٢) ابن صاعد : ٧٩ ، وابن ابي اصيبعة ٢ : ٤٤

٣) المقري ٢ : ٨٢٣ ، و ج II : ٣٠٠ من طبعة اوربة

ومع ان وستنفلد (Wüstenfeld) [1] يرى ان ابن عبد ربه يمتاز بالهجاء، فانا لا نرى له شعرًا كثيرًا في هذا الفن يحق ان تذكر له فيه هذه الميزة بارزة قوية، غير ناسين اننا لاحظنا في خلقه ميـلًا للتعرض بالغير بشيء من الهجو او الانتقاد.

وكان يخلط هجاءه في بعض الاحيان بشيء من التذمر من الزمن الـذي عاش فيه. وبذلك تراه شاكيًا مثلما تراه هاجيًا. وتراه متبرمًا متذمرًا، كما تراه متهجمًا مظهرًا نقائص خصمه وعيوبه. واليك قوله في بعضهم:

رجاء دون اقربه السحـاب، ووعد مثل ما لمع السراب،
ودهر سادت العبدان فيـه وعاثت في جوانبه الذئاب،
وايـام خلت من كل خير، ودنيا قد تدرعها الكلاب
كلاب لو سألتهم ترابـًا، لقالوا عندنا انقطع التراب [2]

وقوله، وقد سأل بعض موالي السلطان اطلاق محبوس فتلكأ فيه:

حاشا لمثلك ان يفك اسيرا! او ان يكون من الزمان مجيرا!
لبست قوافي الشعر منك مدارعًا سودًا، وضلت اوجهًا وصدورا.
هلّا عطفت برحمة لما دعت ويلًا عليك مداغي، وثبورا!
لو ان لؤمك عاد جودًا عشره ما كان عندك حاتم مذكورا. [3]

واليك قوله شاكيًا الشيب والحكام:

جار المشيب على رأسي فغيّره، لما رأى عندنا الحكام قد جاروا [4]

ويتبين من هذا كله ان ما بين ايدينا من شعر ابن عبد ربه في الهجـاء قليل لا يحق لنا ان نطلق منه حكمًا على صاحبه. واننا نرى من هذا القليل ان ابن عبد ربه قد فهم شيئًا من روح الفن الهجائي من حيث حبه للفكاهة والدعابة في اظهار نقيصة الخصم. غير انه كان يجنح في بعض الاحيـان الى الدعابة اللاذعة التي يشوبها الاقذاع. وسنعرض لديباجة شعره بوجه عام في غير هذا الموضع.

---

١) Wüstenfeld صفحة ٢٥ رقم ١٠٧

٢) ابن عبد ربه ١ : ٢٤٠

٣) ابن عبد ربه ١ : ١٠٧

٤) 〃 〃 ١ : ٢١٩

المدح

ويصدق على شعر ابن عبد ربه في المدح من حيث قلّته وحكمنا عليه ما يصدق على شعره في الهجو. غير اننا نرى في هذه الاشعار القليلة قوة في المعاني، مع طلاوة ورقة تبعثها عاطفة صادقة في كثير من الاحيان. دخل على القائد ابي العباس فانشده :

الله جرّد للندى والباس سيفاً، فقلّده ابا العباس.
ملك، اذا استقبلت غرّة وجهه قبض الرجاء اليك روح اليائس،
وبه عليك من الحياء سكينةٌ ومحبّة تجري مع الانفاس.
واذا احبّ الله يوماً عبده القى عليه محبّةً للناس! (١

وروى في عقده انه سأله حاجة فيها بعض الغلظ فتلكأ عليه فاخذ سحاة من بين يديه، فوقع فيها على البديهة :

ما ضرّ عندك حاجتي؟ ما ضرّها؟ عذراً اذا اعطيت نفسك قدرها!
انظر الى عرض البلاد وطولها او لست أكرم اهلها وابرّها!
حاشا لجودك ان يوعّر حاجتي! ثقتي بجودك سهّلت لي وعرها.
لا يجتني حلو المحامد ماجدٌ حتى يذوق من المطالب مرّها.

فقضى حاجته وسارع اليها[٢]. ومدح احدهم فقال :

كريمٌ على العلّات، جزلٌ عطاؤه، بخيل، وان لم يتّسد لنوال.
وما الجود من يعطي اذا ما سألته ولكن من يعطي بغير سؤال. (٣

ومدح بعضهم لتواضعه فقال :

فتى زاده عزُّ المهابة ذلّةً، فكلّ عزيز عنده متواضعُ (٤

ومدح آخر لهيبته فقال :

يا من يجرّد من بصيرته، تحت الحوادث، صارمَ العزمِ،
رعت العدوّ فما مثلت له الا تفزّع منك في الحلمِ.
اضحى لك التدبير مطّردًا مثل اطراد الفعل للاسمِ.

١) ابن عبد ربه ١ : ١٠١
٢) ابن عبد ربه ١ : ١٠١
٣) 〃 〃 ١ : ٨٨
٤) ابن عبد ربه ١ : ١٥

رفع المحسود اليك ناظره فرآك مطلعاً مع النجم. (١

ومدح آخر باستسهال اللفظ وحسن الكلام فقال :

قول كأن فرنده شحذ على ذهن اللبيب.
لا يشتر على اللسا ن، ولا يشذّ على القلوب.
لم يغل في شنع اللغا ت، ولا يوحش بالغريب.
سيف تقلّد مثله عطف القضيب على القضيب.
هذا تجذ به الرقا ب، وذا تجذ به الخطوب. (٢

ومدح بعضهم فقارن بين خلائقه وبين زهر الروض، قال :

وما روضة بالحزن حاك لها الندى بروداً من الموشي حمر الشقائق،
يقيم الدجى اعناقها، ويميلها شعاع الضحى المستنّ في كل شارق،
اذا ضاحكتها الشمس تبكي بأعين مكللة الاجفان صفر الحمالق،
حكت ارضها لون السماء، وزانها نجوم كأمثال النجوم الموافق،
باطيب نشراً من خلائقه التي لها خضعت في الحسن زهر الحدائق. (٣

وكان يشوب شعره في المدح في بعض الاحيان شيء من المبالغة، شأن اكثر الشعراء في عصره. وقد مدح الخليفة عبد الرحمن الناصر باشعار كثيرة فيما يقول جالت في الامصار وشرّدت في البلدان حتى اتهمت وانجدت واعرقت[٤]. غير انه يسكت عن ذكر اكثرها ويكتفي بتدوين بعضها في عقده. ومن هذا القليل قوله من قصيدة :

يا ابن الخلائف، ان المزن لو علمت نداك، ما كان منها الماء ثجّاجا.
والحرب، لو علمت بأساً تصول به، ما هيجت من جبال الدين اهياجا.

الى ان يقول :

ادخلت في قبّة الاسلام مارقة اخرجتها من ديار الشرك اخراجا،
بجحفل تشرق الارض الفضاء به كالبحر يقذف بالامواج امواجا،
يقوده البدر يسري في كواكبه عرمرماً كسواد الليل رجراجا؛
تروق فيه بروق الموت لامعة ويسمعون به للرعد اهزاجا.
غادرت في عقرتي جيّان ملحمة ابكيت منها بارض الشرك اعلاجا.
في نصف شهر تركت الارض ساكنة من بعد ما كان فيها الطير قد ماجا،

١) ابن عبد ربه ١ : ١٦
٢) ابن عبد ربه ١ : ٣٠٠
٣) « « ٣ : ١٨٧
٤) ابن عبد ربه ٢ : ٣٦٣

وجدت في الخبر المأثور منصلتاً ، من الخلائف خرّاجا وولّاجا ،
تملا بك الارض عدلًا ، مثل ما ملئت ، جوراً ، وتوضح للمعروف منهاجا .
يا بدر ظلمتها ، يا شمس صبحتها ، يا ليث حومتها ، ان هائج هاجا ،
ان الخلافة لن ترضى ، ولا رضيت ، حتى عقدت لها في رأسك التاجا . (١

اما مديحه للخليفة الناصر هذا ، الذي تركه لنا في ارجوزته التاريخية الحاوية ذكر الغزوات التي قام بها الخليفة المذكور ، فليس من مستوى هذه الابيات التي ذكرنا ، ولا ترى فيه قوّة العاطفة او الخيال كما تراهما في غيره :

اقول في ايام خير الناس ، ومن تحلّى بالندى والباس ،
ونحن في حنادس كالليل ، وفتنة مثل زهاء السيل ،
حتى تولى عابد الرحمن ، ذاك الاغر من بني مروان ،
خليفة الله الذي اصطفاه على جميع الخلق ، واجتباه
من معدن الوحي وبيت الحكمة ، وخير منسوب الى امية
تكلّ عن معروفه الجنائب ، وتستحي من جوده السحائب .
في وجهه من نوره برهانُ ، وكفّه لفعله قربان .
احيا الذي مات من المكارم ، من عهد كعب ، وزمان حاتم ،
مكارم يقصر عنها الوصفُ ، وغرة يحسر عنها الطرفُ ،
وشيمة كالصاب ، او كالماء ، وهمة ترقى الى السماء .
وانظر الى البديع من بيانه يريك بدعًا من عظيم شانه .
لو كايل البحر ندى يديه ، اذ لجأت عفاته اليه ،
لناض ، او لكاد ان يغيضا ، ولاستحى من بعد ان يفيضا .
من اسبغ النعمى ، وكانت محقا ، ورتق الدنيا ، وكانت فتقا .
هو الذي جمع شمل الامه ، وجاب عنها داسات الظلمه ،
وجدّد الملك الذي قد اخلقا ، حتى رست اوتاده واستوثقا . (٢

ولعل هذه الابيات خير ابيات في المدح في ارجوزته . فاننا اذا تجاوزناها الى قلب الارجوزة نرى التكلف في المدح ، وضعف العاطفة والخيال والمعاني :

وبعدها غزاة ثنتي عشره وكم بها من خبرة وعبره !
غزا الامام ، حوله كتائبُ ، كالبدر محفوفًا به الكواكب .
غزا ، وسيف النصر في يمينه ، وطالع السعد على جبينه ،

١) ابن عبد ربه ٢ : ٣٦٢-٣٦٣
٢) ابن عبد ربه ٢ : ٣٦٤

الى ان يقول :

فاجتمعت عليه كل الامه ، وبايعته امراء الفتنه . (١

والذي اراه ، وذكرته في غير هذا الموضع ، ان الارجوزة على وجه عام نظمٌ اكثر منها شعرًا . ولابن عبد ربه غير الارجوزة ، وغير الشعر الذي ذكرنا ، مدحٌ في الخليفة الناصر وغيره يخالطه وصف دقيق للحرب ربما اتينا على ذكر بعضه في بحثنا عن الوصف في شعر ابن عبد ربه .

الزهد

اما شعره في الزهد فقد كان اكثره متكلفًا . ويكفي ان تعلم انه كان في زهده يعارض نفسه في غزله . فيأخذ قصيدته في الغزل ، وينقضها بأخرى في الزهد على نفس الوزن والقافية حدث في شبابه انه كان له محبوب عزم على الرحيل في غد يوم ، فاستولى الحزن على الشاعر . ولما اصبح اتت السماء بمطر جود حال دون السفر ، فكتب ابن عبد ربه :

هلّا ابتكرت لبينٍ انت مبتكرُ ! هيهات يأبى عليك اللهُ والقدرُ !
ما زلت ابكي حذارَ البين ، ملتهبًا حتى رثى لي فيك الريحُ والمطرُ .
يا برده من حيا مزن على كبدي ! نيرانُها بغليل الشوق تستعرُ .
آليت الا ارى شمسًا ، ولا قمرًا ، حتى اراك ، فانت الشمس والقمرُ . (٢

كان هذا في صباه . فلما زهد في كبره عمد الى هذه الاشعار فنقضها باخرى في الزهد ومحّص ابياته هذه بقوله :

يا قادرًا ليس يعفو حين يقتدر ، ماذا الذي بعد شيب الراس تنتظر ؟
عاين بقلبك ان العين غافلة عن الحقيقة ، واعلم انها سقر ،
سوداء تزفر من غيظ ، اذا سفرت للظالمين ، فلا تبقي ولا تذر .
لو لم يكن لك غير الموت موعظة لكان فيه عن اللذات مزدجر !
انت المقول له ما قلت مبتدئًا : هلّا ابتكرت لبين انت مبتكر (٣

ويظهر التكلف في شعره في الزهد ، عندما يعمد الى كلام بعض الذين

---

١) ابن عبد ربه ٢ : ٢٧٢ ٢) الضبي : ١٢٨

٣) ابن خاقان : ٥٢ اما الضبي : ١٢٩ فيروي « يا عاجزًا » . . . ولا تقضى له من عيشه وطرٌ . ويذكر بدل تزفر في البيت الثالث تسفر .

سبقوه من الائمة او الفقهاء فينظمه شعرًا قال: « قال الحسن:

« ابن آدم لست بسابق أجلك ولا ببالغ املك ولا مغلوب على رزقك ولا بمرزوق ما ليس لك فعلامَ تقتل نفسك » ، اخذت هذا المعنى فنظمته في شعري فقلت:

لست بقاضٍ املي ، ولا بعادٍ اجلي ،
ولا بمغلوب على الـ(م) رزق الذي قُدِّرَ لي ،
ولا بمعطى رزق غيـ(م) ري بالشقا والعمل ،
فليت شعري ما الذي ادخلني في شغلي ! » [1]

ولعلّ ابن عبد ربه قد تأثر بابي العتاهية في زهده . وقد شابهه بالرجوع عن حياة اللهو الى الزهد ، او ان شئت فقل شابهه بالرجوع عن شعر في اللهو الى شعر في الزهد ، وما اكثر ما يستشهد باشعار ابي العتاهية في العقد في مواضيع الزهد ، وما اكثر ما يردفها بابيات له في الموضوع نفسه فيذمّ الدنيا والزمان الذي عاش فيه ، كما كان يذم ابو العتاهية دنياه وزمانه ، ويذكر الموت ويدعو الى الالتفات الى الحياة الآخرة ، كما كان يفعل ابو العتاهية . وأخشى ان المقام لا يتسع لذكر هذه الاشعار وما يقابلها من شعر ابي العتاهية . ولكن من الخير ان ترجع الى بعضها في العقد [2] .

ومن دعوة ابن عبد ربه الى ذم الدنيا والزهد فيها قوله:

الا انما الدنيا نضارة ايكةٍ اذا اخضرّ منها جانب جفّ جانبُ .
هي الدار ، ما الآمال الا فجائع عليها ، ولا اللذات الا مصائبُ .
فكم سخنت بالامس عين قريرة ! وقرت عيون دمعها اليوم ساكبُ !
فلا تكتحل عيناك فيها بعبرةٍ على ذاهب منها ، فانك ذاهبُ ! [3]

ولم يكن كل شعر ابن عبد ربه في الزهد متكلفًا . بل كان منه ما يمثل عاطفة رجل تائب نادم . وكان منه ما حرض نفسه فيه على التوبة الخالصة ، مذكرًا اياها بوعد الله ، ومهددًا اياها بدنوّ الموت . قال:

بادر الى التوبة الخلصاء مجتهدًا والموت ويحك لم يمدد اليك يدا .

---

١) ابن عبد ربه ١ : ٢٨٨
٢) « « ١ : ٢٤٠، ٢٧٢، ٢٧٣، ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٧٩، ٢٨٠
٣) « « ١ : ٢٧٣ . اما الثعالبي ١ : ٣٦٢ فيورد « عين » و« عيون » في البيت الثالث منصوبتين على التعدية : « وغضارة » في البيت بدل « نضارة »

وارقب من الله وعداً ليس يخلفه ، لا بدّ لله من انجاز ما وعدا ! (١

وقال ايضاً :

يا ويلتا من موقف ما به أخوف من ان يعدل الحاكمُ !
ابارز الله بعصيانه ، وليس لي من دونه راحمُ ،
يا ربّ ، غفرانك عن مذنب أسرف ، الا انه نادمُ ! (٢

وله في البكاء من خوف العقاب :

مدامع قد خدّدت في الخدود ، وأعين مكحولة بالهجود ،
ومعشر اوعدهم ربهم فبادروا خشية ذاك الوعيد ،
فهم عكوف في محاريبهم يبكون من خوف عقاب المجيد ،
قد كاد ان يشرب من دمعهم ما قابلت اعينُهم في السجود . (٣

وقال ايضاً مذكراً نفسه بقرب الاجل ، وناهياً اياها عن سبل الضلال :

اتلهو بين باطية وزير ، وانت من الهلاك على شفير ؟
فيا من غرّه امل طويل يؤديه الى اجل قصير ،
اتفرحُ ، والمنيّة كل يوم تريك مكان قبرك في القبور ؟
هي الدنيا ، فان سرتك يوماً ، فان الحزن عاقبة السرور .
ستسلب كل ما جمعت منها كعارية ترد الى المعير ،
وتعتاض اليقين من التظني ، ودار الحق من دار الغرور . (٤

الغزل

واذا تركنا هذه الفنون الى الغزل نرى ان ابن عبد ربه قد ضرب فيه بسهم كبير ، واكثر شعره المتحدّر الينا في يتيمة الثعالبي وفي العقد يدور على الغزل . ويظهر ان اكثر التقريظ الذي ناله ابن عبد ربه من القدماء انما كان لشعره في الغزل . وقد كانت الابيات التي روى الرواة انها اطربت المتنبي حتى صفق بيديه واستعادها من راويها وقال : « يا ابن عبد ربه ، لقد تأتيك العراق حبواً » في باب الغزل الذي لم يطرقه المتنبي نفسه كثيراً :

يا لؤلؤاً يسبي العقول انيقا ، ورشا بتقطيع القلوب رفيقا ،
ما ان رأيت ، ولا سمعت بمثله درّاً يعود من الحياء عقيقا .

---

١) ابن عبد ربه ١ : ٢٧٧ وقابله ايضاً بابيات ابي العتاهية (ابن عبد ربه ١ : ٢٨٠)
٢) ابن عبد ربه ١ : ٢٧٦ ٣) ابن عبد ربه ١ : ٢٨٤
٤) ابن عبد ربه ١ : ٢٨٠

واذا نظرتَ الى محاسن وجهه ابصرتَ وجهك في سناه غريقا ،
يا من تقطع خصره من رقة ، ما بال قلبك لا يكون رقيقا .[١]

واكثر شعره الذي يذكره له مترجموه انما هو في الغزل . فقد نقل ابن خلكان بعض المقاطيع من شعره اكثرها في الغزل ، وما نقله ابن خاقان اكثره في الغزل . ولعلّ تقريظه له بقوله عنه « ان له شعرًا انتهى منتهاه وتجاوز سماك الاحسان وسهاه » كان لشعره في الغزل حيث انه يستشهد بعد تقريظه هذا بأبيات في الغزل[٢].

واذا درسنا هذا الشعر الغزلي الذي بقي وتحدّر الينا عنه نرى انه لم يخل في كثير من المواضع من التكلف الذي صبغ به بعض شعره في الزهد والمدح. ذلك ان اكثر المقطوعات الغزلية التي بين ايدينا قد نظمت فيما يظهر لغاية علمية لا تعبّر عن عقيدة صادقة او عاطفة صحيحة . فالقسم الاول من المقطوعات (وهو نحو ٣٠٠ بيت) قد نظم ليكون مثالاً على ضروب العروض المختلفة ، وقد ضمّنت كل قطعة منها بيتاً قديماً من الابيات التي استشهد بها الخليل في عروضه[٣] . وقيد ابن عبد ربه نفسه في ان ينظم كل مقطوعة على بحر البيت الذي استشهد به الخليل وقافيته ، وان تكون المقطوعة متضمنة للبيت ومتصلة به وداخلةً في معناه[٤] . وليس هذا بالقيد اليسير . وكذلك قل في القسم الثاني من المقطوعات (ويضم نحو ٢٠٠ بيت) فان ابن عبد ربه قد وضع اجزاءه على تأليف حروف الهجاء ، فاتى بالمقطوعة الاولى على قافية الهمزة ، وبالثانية على الباء ، وبالثالثة على التاء . وهلم جرًّا . وفي هذا من التقيد ما به . زد على هذا كله ان عدد الابيات في كل مقطوعة معيّن لا يمكن تجاوزه . فهو خمسة في القسم الاول آخرها البيت المضمّن ، واربعة في القسم الثاني . وكل هذه قيود فوق قيود . والذي يظهر لنا ان ابن عبد ربه قد قصد الى الغزل في هذه المقطوعات لغايةٍ علمية صرّح بها وهي ان يكون حفظها سهلاً على السنة الرواة[٥] . وهاك بعض نماذج منها :

١) ابن خاقان : ٥٢ ، وياقوت ٢ : ٦٧ ٢) ابن خاقان ٥١–٥٢
٣) ابن عبد ربه ٣ : ١٨٨ ٤) ابن عبد ربه ٣ : ١٨٨ ٥) ابن عبد ربه ٣ : ١٨٨

الخفيف: العروض التام – الضرب التام الجائز فيه التشعيث:

انت دائي، وفي يديك دوائي، يا شفائي من الجوى، وبلائي،
ان قلبي بحبّ من لا اسمّي في عناء، اعظم به من عناء!
كيف لا؟ كيف أن الذ بعيش؟ مات صبري به، ومات عزائي.
ايها اللائمون، ماذا عليكم ان تعيشوا، وان اموت بدائي؟
«ليس من مات فاستراح بميت انما الميت ميّت الاحياء» (١

شطر الخفيف: العروض المجزوء. الضرب:

ما لليالي تبدلت، بعدنا ودّ غيرنا،
ارهقتنا ملامة، بعد ايضاح عذرنا.
فلونا عن ذكرها، وتسلّت عن ذكرنا.
لم نقل، اذ تحرمت واستهلت بهجرنا،
«ليت شعري ماذا ترى ام عمرو في امرنا.» (٢

شطر المقتضب: له عروض واحد مجزوء مطوي وضرب مثل عروضه وهو:

يا مليحة الدعج، هل لديك من فرج؟
ام تراك قاتلتي بالدلال والغنج؟
من لحسن وجهك من سوء فعلك السمج؟
عاذليّ، حسبكما! قد غرقت في لجج.
«هل عليّ، ويحكما ان لهوت من حرج» (٣

مقطعات على تأليف حروف الهجاء، وضروب العروض الاول من الطويل سالم:

وازهر كالعيّوق يسعى بزهراء لنا منها داء، وبرء من الداء.
الا بابي صدغ حكى العين عطفه، وشارب مسك قد حكى عطفة الراء.
فما السحر ما يعزى الى ارض بابل، ولكن فتور اللحظ من طرف حوراء.
وكفّ ادارت مذهب اللون اصفرا بمذهبة في راحة الكف صفراء

الضرب الثاني من الطويل مقبوض:

معذبتي رفقاً بقلب معذّب، وان كان يرضيك العذابُ، فعذّبي!
لعمري، لقد باعدت غير مباعد، كما انني قربت غير مقرّب.
بنفسي بدرٌ اخمد البدر نوره، وشمس متى تبدو الى الشمس تغرب،
لو ان امرء القيس بن حجر بدت له لما قال: «مرّا بي على ام جندب».

---

١) ابن عبد ربه ٣: ٢١٢
٢) ابن عبد ربه ٣: ٢١٤
٣) 〃 〃 ٣: ٢١٥

الضرب الثالث من الطويل المحذوف المعتمد :

محب طوى كشحاً على الزفرات ، وانسان عين خاض في غمرات ،
فيا من بعينيه سقامي وصحتي ، ومن في يديه ميتتي وحياتي ،
بحبك عاشرت الهموم صبابةً ، كأني لها تربٌ ، وهنّ لداتي .
فخديّ ارض للدموع ، ومقلتي سماء لها تنهلّ بالعبرات . (١

وترى اثراً آخر للتكلف في شعره الغزلي في غير هذه المقطوعات تنتج عن تحديه لبعض شعراء المشرق ومحاولته تقليدهم او معارضتهم في بعض الاحيان . منه ما يتعلق باستعماله بعض انواع البديع على طريقة ابي تمام ومسلم بن الوليد اللذين اكثر من رواية شعرهما في عقده . ومنه ما يتعلق بتضمينه بعض التعابير، او استعارته بعض المعاني المألوفة عن هذين الشاعرين وغيرهما . غير انه كان في طبيعته فيما يظهر ، وفي بيئته الخاصة ومحيطه العام ، ما جعله يختلف عن هؤلاء من نواحٍ كثيرة . بل انه كان في معارضته بعضهم يخرج عن التقليد . فلقد اورد اشعاراً في رقة التشبيب لشعراء من المشرق منهم العباس بن الاحنف ، وجميل بن معمر ، وعمر بن ابي ربيعة ، وقال عن بعضها انها من الشعر المطبوع الذي يجري مع النفس رقة ويؤدي عن الضمير ابانة . ثم ذكر في آخر هذا الباب اشعاراً له صدرها بقوله : «ومن قولنا في رقة التشبيب والشعر المطبوع الذي ليس بدون ما تقدم ذكره» ويظهر من هذه الاشعار معان جديدة ليست حقاً دون ما نقل لهؤلاء الشعراء منها :

صحا القلب الا خطرة تبعث الأسى لها زفرة موصولة بحنين .
بلى ربما حلّت عرى عزماته سوالفُ آرام ، واعين عين ،
نواقط حبّات القلوب ، اذا رنت بسحر عيون وانكسار جفونِ .
وريط من الموشي ابنع تحته ثمار صدور لا ثمار غصونِ .
برودٌ كأنوار الربيع لبسنها ثياب قصاب لا ثياب مجونِ ،
فرين أديم الليل عن نور اوجهٍ تجن بها الالباب كلّ جنونِ ،
وجوه جرى فيها النعيم ، فكللت بورد خدود يجتنى وعيونِ .
سلابس للابام درعاً من الاسى وان لم يكن عند اللقا بحصين .
فكيف ، ولي قلب اذا هبت الصبا اهبّ بشوق في الضلوع دفين !

١) ابن عبد ربه ٣ : ٢٢٤ و٢٢٥ ، وليلاحظ انا اوردنا ٣ مقطوعات على الاحرف الثلاثة الاول متتابعة

ويهتاج منه كل ما كان ساكناً   دعاءُ حمام لم يبت بوكون .
وان ارتياحي من بكاء حمامةٍ   كذي شجن داويته بشجون .
كأن حمام الايك ، حين تجاوبت ،   حزين بكى من رحمةٍ لحزين (١

ويصدق على لاميته التي عارض بها صريع الغواني (مسلم بن الوليد) ما صدق على قصيدته هذه قال : ومما عارضت به صريع الغواني في قوله :

اديرا علي الراح ، لا تشربا قبلي ،   ولا تطلبا من عند قاتلتي ذحلي .
فيا حزني اني اموت صبابةً ،   ولكن على من لا يحلّ له قتلي .
فديتُ التي صدت وقالت لتربها :   دعيه، الثريّا منه اقرب من وصلي .

فقلت على رويّه :

اتقتلني ظلماً ، وتجحدني قتلي ،   وقد قام من عينيك لي شاهدا عدلِ ؟
اطلّاب ذحلي ، ليس بي غيرُ شادنٍ   بعينيه سحرٌ ، فاطلبوا عنده ذحلي .
اغار على قلبي ، فلما اتيته   أطالبه فيه ، اغار على عقلي .
بنفسي التي ضنّت بردّ سلامها ،   ولو سألت قتلي وهبتُ لها قتلي .
اذا جئتها ، صدّت حياءً بوجهها ،   فيهجبني هجر الذّ من الوصل .
وان حكمت ، جارت عليّ بحكمها   ولكن ذاك الجور اشهى من العدل .
كتمت الهوى جهدي ، فجرّده الاسى   بماء البكا : هذا يخطّ ، وذا يملي .
واحببت فيها العذل حباً لذكرها ،   فلا شيء اشهى في فؤادي من العذل .
اقول لقلبي ، كلما ضامه الاسى :   اذا ما أبيت العز فاصبر على الذلّ !
برايك ، لا رأيي ، تعرّضتَ للهوى ،   وامرك ، لا امري ، وفعلك ، لا فعلي .
وجدت الهوى نصلاً من الموت مغمداً ،   فجرّدته ، ثم اتكيت على النصل .
فان تك مقتولاً ، على غير ريبة ،   فانت الذي عرضت نفسك للقتل . (٢

وقد اعجب ابن عبد ربه في قصيدته هذه ايضاً حتى انه قال :

« فمن نظر الى سهولة هذا الشعر مع بديع معناه ورقة طبعه لم يفضل شعر صريع عنده الاّ بفضل التقدم ولاسيا اذا قرن قوله في هذا الشعر :

كتمت الذي القى من الحب عاذلي ،   فلم يدر ما بي ، فاسترحت من العذل .

بقولي في هذا الشعر :

واحببت فيها العذل حباً لذكرها ،   فلا شيء اشهى في فؤادي من العذل . (٣

---

١) ابن عبد ربه ٣ : ١٧٤ ، والثعالبي ١ : ٣٦٢

٢) ابن عبد ربه ٣ : ١٧٥ ولقد اورد الثعالبي هذه الابيات في يتيمته (١ : ٤٣٠) انما كثر فيها التصحيف والتحريف فترى « دخلي » في موضع « ذحلي » (ثأري) — و«البلاء» بدل « البكا » — و«اشقى» بدل « اشهى » — غير اننا آثرنا نقل « فيهجبني هجر » في البيت الخامس عن اليتيمة ، وهي في العقد فتهجرني هجراً . ٣) ابن عبد ربه ٣ : ١٧٥   (له تابع)

التذكار المئوي لرحلة لامرتين الى الشرق



لامرتين في لبنان وسورية

تموز ١٨٣٢ — نيسان ١٨٣٣

بقلم اغناطيوس سركيس ق. ب.

٥

(تتمة)

امثلة من كتاب الرحلة

١ لبنان كما رآه لامرتين

نجد القطعة التالية في كثير من المنتخبات الفرنسية، تحت عنوان «منزل لامرتين في بيروت». ولكنها تحتوي، فضلاً عن وصف هذا المنزل، وصفاً شعرياً دقيقاً لجميع المناظر الطبيعية التي يمكن للانسان ان يشاهدها من بيروت.

اما منزل لامرتين الذي يتكلم عنه هنا، فلا يمكن تعيين مكانه بالتحقيق. غير ان المشهور بين البيروتيين انه استأجر اولاً بيتاً في الموضع المعروف اليوم بحي مار مارون، شمالي كلية الاباء اليسوعيين. وهو امر معقول، اذا عرفنا ان هذه الناحية لم تكن، قبل مئة سنة، داخلة في حدود المدينة؛ اذ ان اسوار بيروت كانت تمتد الى الجهة الغربية من ساحة البرج ودار الحكومة؛ وبينها وبين شارع مار مارون مسافة تقارب العشر الدقائق، كما يشير الى ذلك لامرتين.

ولما اشتدَّ المرض على ابنته جوليا، غادر هذا المكان اذ قيل له ان مناخ الاشرفية اجود وانشط؛ واستأجر بيتاً تضمه التاليد في البستان الذي يملكه الآباء اللمازريون اليوم.

واليك ما قال لامرتين:

لا اذكر شيئاً الذَّ من نهوضنا باكرًا، بعد الليلة الاولى التي قضيناها بمنزلنا في بيروت. فقد تناولنا طعام الفطور على اوسع سطوحه، واخذنا نتعرَّف بالنظر الى الامكنة المجاورة.

ان منزلنا يبعد مسافة عشر دقائق عن المدينة. اما الطريق المؤدية اليه،

فشعب ضيقة ، تظللها اشجار « الندّ »[1] (*aloès*) الكبيرة ، المتدلية الاغصان فوق رؤوس المارة ، تقطع بعض القناطر القديمة الايام ، وبرجاً عظيماً[2] ، بناه فخر الدين ، امير الدروز . وهذا البرج يستخدمه اليوم بعض جنود ابراهيم باشا كمرصد يرقبون منه جميع السهول المجاورة . ثم تنساب طريقنا بين اشجار التوت ، وتصل الى مجموعة بيوت وطيئة تحيط بها غابات الليمون والبرتقال ، فتحجبها عن الانظار . ليس لهذه البيوت في بنائها نسق هندسي واحد ، والمنزل الذي في وسطها يعلوها كبرج لطيف . اما سطوحها فتصلة بعضها بالبعض الآخر بواسطة الواح خشبية تجعل منها مجموعاً انيقاً ، صالحاً للتفريج عن ضيوف غرباء ، قضوا اياماً بلياليها على سطح مركب تجاري.

وعلى بضع مئة قدم من منزلنا هذا ، يتقدم البحر حتى يدخل في الارض ؛ فيتراءى لنا من فوق جنائن الليمون و« الند » ، كبحيرة جميلة ، او كنهر ، لا يرى منه الا جانب واحد ، وقد ارست فيه المراكب العربية متهادية برخاء على تموجاته الخفيفة.

فاذا ارتقينا الى السطح الاعلى ، تحولت هذه البحيرة الى خليج واسع ، تحدّه ، من جهة ، قصور بيروت المغربية (*mauresque*) ومن الجهة الثانية سلسلة الجبال المترامية نحو طرابلس ، كاسوار قائمة . لكن الافق يمتدّ امامنا باكثر اتساعاً ؛ فهو يبتدئ بالامتداد فوق سهول احسنت حراثتها ، واكتست ارضها بردة من الاشجار المثمرة ، وقامت بينها ، هنا وهناك ، بيوت تشبه منزلنا ، ترتفع سطوحها كاشرعة بيضاء على هذا الاوقيانوس الاخضر.

ثم يضيق الافق في غضون هضبة طويلة يرتفع في قمتها دير الروم[3] بجدرانه

---

١) وضعنا كلمة « الند » (*aloès*) بين مزدوجين لان هذا الشجر ليس مما تنبته بلادنا . ولعل الصواب انه الصبار الذي لا يزال سياجاً لكثير من الطرقات في ضواحي بيروت .

٢) كان هذا البرج في الغرب القبلي من السرايا ، تقوم اليوم في موضعه بناية فخمة على الطراز الحديث . ومن هذا البرج اشتق اسم ساحة البرج.

٣) لا نعرف بالتحقيق اي دير هو هذا الذي يتكلم عنه لامرتين . لكن في الجهة التي يصفها ديرين: احدهما للرهبنة الباسيلية الحلبية في سوق الغرب تحت عاليه ؛ والثاني للرهبنة

البيضاء وقببه الزرقاء . ثم ، على بعد قليل ، تنتصب اشجار الصنوبر حتى تخيّم فوق قبب هذا الدير . اما الهضبة نفسها فتنحدر بتدرّج كأنها سلّم عظيمة بسطت درجاتها على الصخور الجبارة او فرشت باحراج التوت والزيتون ؛ وقد تقدّم البحر يغسل اقدامها باحتشام ودلال ، ثم لم يلبث ان ابتعد تاركاً المجال لسهول اوسع ، يمرّ في وسطها نهر يتململ طويلاً بين اشجار السنديان ، قبل ان يصل الى مصبّه في الخليج.

اما الجبال فلا ترتفع دفعة واحدة ؛ لكنها تبتدئ بهضاب كبيرة كأنها كوم عظيمة ، بعضها مدوّر ، وبعضها يكاد يكون مربعاً ، يتوّج رؤوسها قليل من الخضرة ؛ ويعلو كلًّا منها اما دير ، واما قرية صغيرة تنعكس عليها اشعة الشمس فتجذب الانظار ؛ بينا الهضاب تلمع كالذهب الوهاج.

وفوق هذه الروابي تأخذ درجات جبل لبنان بالاتساع . فهناك انجاد تمتد ميلًا او ميلين ، مجوّفة ، مسننة الرؤوس ، كثيرة الاودية ، عميقة مجاري المياه ؛ فيها من المهاوي المظلمة ما يضيع فيه النظر . وبعد هذه الانجاد ، ترتفع الجبال ارتفاعاً يكاد يكون عمودياً . وهنا وهناك يشاهد الناظر بقعاً سوداء تمثل له احراج الارز والصنوبر ، وبعض الاديرة المنيعة في انفرادها ، او بعض القرى المجهولة ، القائمة على ضفاف المهاوي. وفي القمة العليا من هذه السلسلة الثانية ، تكثف الاشجار ويعظم حجمها ، حتى كأنها جمّة شعر منفردة على جبهة صلعاء ، نقدر ان نميز من هنا رؤوسها المسنّنة ، الغير المتساوية ، البادية كشرفات على سطوح القصور.

ووراء هذه السلسلة ، تظهر اخيرًا جبال لبنان الحقيقي . لا يمكنني ان اميز هل ارتفاعها اقرب الى العمودية ام الى الافقية ؛ وهل هي قرعاء ام محرجة ، لان المسافة بعيدة بيننا ؛ ولان منحدراتها تمتزج بالجوّ الشفّاف كأنها جزء منه ؛ فلا يرى الناظر الا تموّجات نور الشمس المستديرة ، محيطة بها ، وقد ارتفعت

الباسلية الخناوية فوق قرية كفرشيا ، مقابل بعبدا . واذا كان لا بد من الاختيار ، فانا نفضل تعيين الثاني ، فالموقع والوصف اللذان نراهما في النص اكثر انطباقاً عليه.

قممها المشئة فاتصلت بسحب الصباح الارجوانية ، سابحةً كانها جزر منيعة في الفضاء اللامتناهي .

واذا نزل النظر من هـذا الافق السني ، لم يجد مكاناً يقف عليه الا اشجار النخيل المنتشرة في الارياف ، قرب بيوت الاعراب ؛ او غابات الصنوبر الخضراء ، المزروعة باقات منفردة في السهول ؛ او اطراف الآكام وسياجات الصبار ، او غير ذلك من نباتات تتساقط اوراقها متثاقلة كانها قطع زخرفية من الحجر على الحيطان الواطئة . وهذه الحيطان نفسها مكسوة بالطحلب المزهر والجلبلاب الارضي والكرم البري والزهور المختلفة الالوان والاشكال . ولقد تكاثرت هذه الاعشاب على الجدران ، حتى لا تستطيع ان تميز اهي مبنية من الحجارة ام من النبات ؛ وحتى كأن هذه البنايات حصون من عشب وازهار .

واخيراً ، على مقربة من منزلنا ، وتحت انظارنا ، قامت ثلاثة بيوت نظير بيتنا تكاد تكون مغطاة باشجار البرتقال المثقلة بالازهار والثمار . وفيها من المشاهد الخلابة التي تفيض بالحياة في هذه البقاع الجميلة ما يأخذ الفؤاد . وعلى سطوح هذه البيوت يجلس بعض الاعراب ، فوق الحصر ، يدخنون ، وفي النوافذ بعض نساء يتطاولن بأعناقهن ليتأملننا ، ثم يختبئن متى وجهنا انظارنا اليهنّ .

وعلى مقربة من سطحنا عائلتان من العرب تتناولان الطعام في ظل دلبة صغيرة ، على عتبة بيتها . وعلى بضع اقدام من هناك ، صبيتان سوريتان ، بارعتا الجمال ، تلبسان اثوابهما في الهواء الطلق ، وتزينان شعرهما بالزهور البيضاء والحمراء . وان لاحداهما شعراً بلغ من طوله وكثافته ان غطى جسمها بكامله ، كما تغطي الصفصافة المستحية اغصانها من كل جانب . ولكنها تهزّ احياناً هذه الذؤابة الكثيفة ، فيبين جبينها الجميل وتبرق عيناها اللامعتان بسرور الطفولة الساذج فتخرقان هنيهة هذا الحجاب الطبيعي لتستمتعا باعجابنا بجمالها . ولقد رميت اليها بقبضة من الغوازي [1]، وهي قطع صغيرة من العملة

١) جمع الغازي : لقب من كان يشهر حرباً من سلاطين تركية . ثم ضرب من النقود العثمانية ، وهو المقصود

الذهبية ، تنظمها النساء السوريات بخيط من حرير ، فيصنعن منها عقوداً واساور . فجمعت يديها الى رأسها تشكراً ، ودخلت الغرفة السفلى لتري ما نالته لامها واختها.

٢ الحياة اللبنانية في القرن الماضي كما وصفها لامرتين

كتب لامرتين القطعة التالية في بيروت في شهر كانون الاول من سنة ١٨٣٢ ؛ يصف فيها حياة الشعب اللبناني كما رآها . وهي في الحق تنطبق ليس على لبنان فحسب بل على اكثر البلدان العربية ؛ وليس على القرن الماضي فحسب ، بل ان كثيرًا مما فيها لم يزل معمولاً به في كثير من مدن وقرى الداخلية . ونحن ننقلها هنا تلخيصاً ، تاركين ما لا فائدة فيه .

ولكيلا يتعب القارئ في فهم الالفاظ ، فاننا نشير منذ الآن الى ان كل مرة يذكر الكاتب كلمة رومي او سوري او عربي فانما يقصد طائفة الروم الملكيين من ارثذكس او كاثوليك ، او الموارنة ، او الاسلام اجمالاً .

والآن فلنسمع لامرتين يتكلم :

اذا ضربنا صفحاً عن بعض هبّات للريح فوق البحر ، وبعض ساعات مطر في نصف النهار ، فان المناخ هنا يشبه مناخ فرنسة في شهر ايار . لا تكاد الامطار تتساقط حتى تظهر الارض بحلّة ربيع جديد ، وتتغطى السهول والبطاح ، في قليل من الايام ، بالنباتات المختلفة ، من زروع واعشاب وزهور . . . وتكتسي اشجار التوت ، حول البيوت ، باوراقها الفضّة الخضراء . فتصبح كحرج كثيف لا تخرقه اشعة الشمس . . . هنا وهناك ، بعض المنازل منتشرة في السهول ، كانها مراكب سابحة على هذا الاوقيانوس الاخضر . والنساء اللبنانيات ، في اثوابهن البهية الثمينة ، كانهن ملكات يتنشقن هواء الجنائن العطر . وقد جلس اكثرهن في ظل توتة او تينة يطرزن الطنافس الصوفية الفاقعة الالوان ؛ بينا غيرهن يساعدن الرجال في غزل الحرير او حياكته .

ان سكان لبنان ، من روم وسوريين وعرب ، ليسوا على شيء من البربرية . فهم اعلى ثقافة من فلاحي اريافنا . كلهم يقرأون ويكتبون . وكلهم يعرفون لغتين : العربية واليونانية او العربية والسريانية . اما طباعهم

فدمة هادئة ، يزينها الجد في العمل والقناعة في المعيشة.

يقضون الاسبوع في اشغال الحقول او في العناية بالحرير ؛ ويستريحون يوم الاحد من اتعابهم . ففي الصباح ، يحضرون مع عائلاتهم الفروض الدينية الفخمة في الكنائس الرومية او السريانية . ثم يعودون الى منازلهم فيتناولون طعاماً افخر بقليل من طعام الايام الاعتيادية.

وبعد الغداء يخرج النساء والبنات متبرجات بأثمن اثوابهنّ ، وقد عقفن شعورهنّ ونثرن فيها ازهار الليمون والقرنفل والمنثور . فيجلسن على ابواب المنازل يتحدثن مع الجارات والصديقات . لكن ليس في مقدرة القلم ان يرسم منظر هذه الزرافات بما هي عليه من بساطة طبيعية ، واثواب ثمينة فاخرة ، وجمال باهر جذّاب . اني لاشاهد هنا كل يوم وجوه نساء وفتيات لم يسعد رفائيل بمثلها حتى في احلام مخيلته الفنية . وكثيرًا ما التقي بهنّ على طريق العين ، حاملات جرة الماء على كتفهنّ ، عاريات الساقين الا من الخلاخل الفضية . ان جمالهنّ لاسمى من الجمال الاغريقي والروماني ، اذ تزينه فيهنّ سذاجة فطرية فتانة وبساطة في الظواهر خلّابة.

...

اما الرجال والصبيان فيجتمعون نهار الاحد تحت سنديانة كبيرة قرب احد الينابيع ، حيث يقضون النهار ، جالسين على الحصر يقصون القصص العجيبة . وبين حين وآخر يتناولون فنجان القهوة التقليدي ، او قدحاً من الماء البارد .

وقد يذهب البعض الى اعالي الآكام ، فيجتمعون هناك في ظلّ جفنة او زيتونة من كرم احدهم ، مسرحين الابصار كانهم يتنعمون بما حولهم من المناظر الجميلة ، كعظمة البحر وصفاء السماء ، وتغريد الاطيار [1] . او قل انهم يتنعمون بعذوبة نفسهم الفطرية وطهارتهم الساذجة . الامر الذي اضاعه الشعب عندنا في اوربة ، وسار وراء المسكرات والمنكرات .

١) يظهر ان لامرتين لم يحضر شيئاً من اجتماعات الشبان اللبنانيين ، ولاسيما القبضايات منهم ، حول اجران الحجر الثقيلة ، يتمرّنون ويتفاخرون برفعها .

اثر جليل للقرن السادس عشر

رسالة البطريرك اغناطيوس نعمة الله السرياني

(١٥٧٩ م)

عرّبها عن الاصل السرياني ، وافتتحها بترجمة حياة البطريرك المذكور

القس يوحنّا عزّو ، كاتم اسرار البطريركية السريانية الانطاكية

١

توطئة

كثيراً ما سمعنا الخلف يشيد عن السلف بذكرى الرسالة السريانية التي بعث بها البطريرك اغناطيوس نعمة الله من عاصمة الكثلكة . ولم يتأتَّ حتى اليوم الوقوف على ما انطوت عليه تلك الرسالة المستبدعة . وبينا كنت أجيل الطرف في مخطوطات مكتبة بطريركيتنا السريانية ، الغنية بالمصاحف الخطّية المتقادمة العهد ، وقع بصري على كرّاسة سريانية العبارة قد تتالت عليها الاحقاب حتى تهرّأت واخذ منها الخراب ، فتصفحتها ملياً لاحيط علماً بما تحتويه ، فاذا بها النسخة الوحيدة للرسالة السريانية المومأ اليها ، ضالّتنا المنشودة ، وقد انفذها صاحبها من رومية سنة ١٥٧٩ . فهي اذاً اثر جليل يرتقي عهده الى القرن السادس عشر للمسيح .

فطمعاً في انساء اجلها ، وتخليداً لذكر صاحبها البارّ المبتلى على مدى الايام ومرّ الاعوام ، حبَّبت اليّ نفسي ان ازفّها معرّبة الى قرّاء « المشرق » الكرام . فعنيت بترجمتها على علّاتها ، متوفّراً جهدي على احكام نصّ عباراتها . ولكي يقف القارئ اللّبيب على وعورة المسلك الذي اجتزت به ، لما آلت اليه سطورها من التلف حتى عفا بعضها وتهرّأ غيرها فاستعصت قراءتها او كادت ، أتحفته برسم آخر صحيفة منها ، وهي احسنها . وفيها ايضاً بيّنة على انها للبطريرك المشار اليه اذ يذكر الكاتب ما تعريبه: «ما سطّره وارسله

الينا ليعرّفنا به البطريرك المظلوم نعمة الله » .

بيد ان ما يحقّ له الاسف ان الرسالة المشار اليها بتراء لا اثر لاولها ، بحيث لا يتسنّى البتّ في من وجّهت اليه . فقد قيل ان البطريرك صاحبها بعث بها الى المفريان داود شاه ابن شقيقه . وقيل بل انه وجّهها الى الطائفة السريانية جمعاء ، كما يتراءى للقارئ العزيز من سياق ترجمة حياته . على انّ ما نقرأه في تضاعيف الرسالة ذاتها لا يكشف الستار عن هذا اللَّبس بل يزيده اشكالًا . لاننا نراه حيناً يوجه مقاله بصيغة المفرد ، وآناً بصيغة الجمع . فيترجح القول انه بعث بها الى ابن اخيه المفريان السابق الذكر موجّهاً الكلام اليه والى الطائفة معاً ليتلوها عليهم كما كانت العادة على الاغلب في تلك الحقبة . والله اعلم .

ثمّ يلوح لنا ان هذه الرسالة ثلثة اقسام . فالاول منها ، واوّله مفقود على ما ذكرنا ، يتجلى من سياق كلامه انه مستقلّ عن الآخرين ، بل هو رسالة قائمة بذاتها اوفدها من اورشليم حيث كان قد اقام زمناً غير يسير ، على ما يبين من قرائن الرسالة ذاتها . مع اننا لم نعثر في ترجمة حياته على انه حجّ المدينة المقدسة او اقام فيها . ولولا العبارات المفصحة عمّا نزل به من البلوى وابداء امارات التوبة لاقتضى الحكم على انها اليه لا منه . ولا يعارض هذا الرأي ما يبدو في القسم الثاني من متابعة لكلام سابق وذلك أولًا : لان القسم الاول قد انتهى معناه وخُتم بلفظة « آمين » ، ثانياً : لوجود فسحة خالية من الكتابة بين القسمين الاول والثاني تقضي بأنّ هذا ايضاً قد بُتر أوله وفقد ، وكأني بالكاتب قد ترك هذه الفسحة البيضاء بأمل العثور على المفقود ، ولكن بكلّ أسف لم تتحقق امنيّته على ما يظهر . والله اعلم . امّا القسم الثاني وما يتبعه من اخبار البلدان والايالات الغربية في القسم الثالث فهما منه ، ومصدرهما رومية العظمى حقيقةً .

ولكي يطاوع المرادُ للمطالع الكريم ويتنبّه فوراً لما ترمي اليه هذه الرسالة من المغازي والمرامي ، رأيت أن افتتحها بترجمة حياة البطريرك المغبوط المؤما اليه . فنقّبت عنها في الكتب المخطوطة والمطبوعة مستعيناً على الخصوص بما نشره المثلث الرحمات المطران ديونوسيوس افرام نقّاشة ، رئيس اساقفة حلب

السرياني ، في كتابه « عناية الرحمان في هداية السريان » وحضرة الفيكونت فيليب دي طرازي المؤرخ السرياني في كتابه « السلاسل التاريخية » فجمعت كل ما تيسّر لي ونسّقته واهديته الى القراء الافاضل .

هذا واننا لنجد عذرًا للبطريرك الكاثوليكي الصميم في اتيانه على ذكر بعض الائمة المنوفيسيتين كسويروس وميخائيل الكبير وسواهما في تضاعيف رسالته اذا ما أنعمنا النظر في ما تتطلبه الفطنة آنئذٍ حباً باستمالة بني جنسه الى حظيرة الكثلكة ، وخيفة من ان شديد تمسكهم بآبائهم وقديم عوائدهم ينفرهم منها حسبما صرح هو نفسه .

البطريرك

اغناطيوس نعمة الله الاول († ١٥٩٠)

ولد نعمة الله بن يوحنا بن نور الدين اصفر[1] في ماردين . وكان سليل عترة نبيلة يرتقي عهدها الى القرن الرابع عشر . وتلقى العلوم في دير الزعفران . ثم قبل درجة الكهنوت ، وتسقّف باسم اثناسيوس نعمة الله بوضع يدي سالفه البطريرك اغناطيوس عبد الله الاول ابن اسطفان من قلعة الامرأة . وأقيم في سنة ١٥٥٥ فربانًا . وبعد سنتين انتقل سالفه الى جوار ربه ، بعد ان قضى في البطريركية ٣٧ عاماً ، فتبوّأ صاحب الترجمة الاريكة الانطاكية وكانت سنة ١٥٥٧

كان البطريرك الجديد من حملة العلم في عصره ، متضلعاً من العلوم الرياضية ، وواسع الاطلاع في الطب ، وقد نال بسببه جاهاً عظيماً وحاز مكانة مثلى لدن الحكام العثمانيين . فاخذ يجوب متفقدًا ابناء شعبه ، ورسم اسقفاً لمديات ، قاعدة طور عابدين ، دعاه موسى . وفي سنة ١٥٦١ شخص الى كلبين ، احدى قرى ماردين ، ورسم فيها قسوساً وشمامسة .

وجرت له مداولات مع الحبر الاعظم خليقة بالذكر . منها انه اوفد سنة

---

[1] روى السيد افرام نقاشة المثلث الرحمات انه كان من آل شيلله ، وهي لفظة مختزلة عن « شي الله » .

١٥٦٠ الى عاصمة الكثلكة يوحنا ابراهيم قاشا اسقف الحديثة [1]. فلما حظي هذا بالمثول امام البابا بيوس الرابع احسن وفادته واكرمه، وحمّله رسالة جليلة الى البطريرك نعمة الله حافلة بعبارات اللطف والعطف يدعوه فيها الى بثّ فكرة الاتحاد مع الكنيسة الرومانية بين طائفته، قال فيها:

« ان اخانا الحبيب يوحنا ابراهيم قاشا، اسقف الحديثة، زار اعتاب الرسولين (بطرس وبولس) ولبث هنا بضعة اشهر وقد ألفيناه لما مثل بين يدينا فاضلاً متديّناً سامياً في التقى وخشية الله. ولما وصف لنا صلاح اخوّتك أصحبناه بكتاب منا اليك... لان وظيفتنا الرسولية تلجئنا الى مماننة كل من رؤساء الكنائس بحبّ اخوي وندعوهم الى مشاركتنا في الاعتناء بخلاص القطيع الذي اودعه الله ايانا. فنؤمل ان تكون رغبتكم في ذلك نظير رغبتنا. هذا ولا تجهل اخوّتك ان العناية بالتاج قد قلّدها المسيح بطرس وبه الاحبار الرومانيين. فيا حبّذا لو بقيت الطائفة اليعقوبية متحدة مع البيعة الرومانية دائماً كما كانت قد قامت بهذا الاتحاد في مجمع فلورنسة الذي التأم وعقد بمساعي سالفنا اوجانيوس الرابع واعتامه سنة ١٤٤٤، اعني قبل ١١٨ سنة، وحيث ان كوارث الزمان قد حالت دون ديمومة هذا الاتحاد وجب ان نحرّض اليوم اخوّتك لتبذل الوسع في اعادته من جديد. وانت تعلم ان الايمان واحد، وعروس المسيح واحدة، وهي البيعة الجامعة التي رأسها وأساسها هي البيعة الرومانية — اعطي في رومية في ٢٣ حزيران سنة ١٥٦٢م وهي الثالثة لحبريتنا. » [2]

فلما حظي البطريرك نعمة الله برسالة ابي المؤمنين ووقف على ما انطوت عليه راقته جداً وبلغ من اقصى فؤاده ما اشتملت عليه من الخطاب الابوي العذب السديد، فاقام من فوره نائباً عنه ابن اخيه المفريان داود شاه، اسقف معدن سابقاً، وعلق يطوف بنفسه متفقداً رعاياه وباثّاً بين ظهرانيهم فكرة الاتحاد مع الكنيسة الرومانية واخذ يرغب اساقفة بطريركيته، والوجوه فيها، قدر ما كانت تسمح له الفطنة آنئذ. وفي الوقت ذاته شدّد التوصية على نائبه داود شاه المارّ ذكره [3] ببذل الهمة ومواصلة السعي في تحقيق امنيته بتهيئة الشعب لاعتناق الاعتقاد بالايمان الكاثوليكي. وكان عدد الاساقفة اليعاقبة حينئذٍ كما روى القاصد لاونرد هابيل الذي اوفده اليهم الكرسي الرسولي، كما

١) بلدة في آثور على الدجلة.

٢) طالع «الشرق المسيحي» للوكيان ج ٢ عمود ١٤٠٥ عن تأريخ راينالدوس، عند سنة ١٥٦٢، عدد ٢١.

٣) هو ابن شقيق البطريرك نعمة الله المقدسي قسطنطين.

سيأتي ، ٢١ اسقفاً عدا البطريرك ونائبه ، وقد ذكر اسماء ثمانية من العلماء بينهم .

بيد ان ابليس ، عدوّ الخير ، لم يرقه نجاح البطريرك الشهم بل طفق يعرقل مساعيه فاثار عليه اعوانه ، وزيّن لهم ان ينزلوا به محنة عظمى ، هي أنه لمّا أتى البطريرك الى آمد (ديار بكر)[1] ضمّه وبعض علماء المسلمين مجلس جرت في غضونه بينهم مباحثة ادّت بالعلماء الى اتهامه بالكفر او اعداده مسلماً . وتقدّم شهود من ديوان الحاكم شهدوا عليه مؤكدين اسلامه ، فانكر عليهم ذلك ، فاسلموه للجلد ، فالحبس . ثمّ التأم مجلس العلماء وحاكموه ، فأثبتت عليه الوشاية الزورية وقُضي عليه بالقتل كمرتدّ عن الاسلامية . فعرض عليه البعض الاسلام كي ينجو من القتل فابى . غير ان والي آمد الذي كان يودّه جدًّا لتضلّعه من العلوم وخصوصاً لحذقه في الطبّ أشفق عليه ، ولكي ينقذه من هذه التهلكة نزع عمامته عن رأسه ووضعها على رأس البطريرك المظلوم قائلًا لخصومه الهائجين ها انه اسلم فكفّوا عنه . فارتعدت فرائص البطريرك البائس فرقاً ، واضطربت خصائله هلعاً لهول المصاب وأُرتج عليه فلبث على هذا زماناً[2] . قيل وكان يصعد الى المأذنة ، ويرثي حاله بصوته الرخيم ، فيبكي سامعيه من المسيحيّين . ولمّا اشتدّ عليه وخز ضميره ، وهاله منظر الشعب واقلقه ، خاصة لانه لم يعد يجرأ على ان يظهر نفسه مسيحياً ، فوّض ادارة البطريركية الى ابن اخيه المفريان داود شاه الآنف الذكر ولاذ بالهرب سنة ١٥٧٨ الى قبرص ، وقيل الى رودس ، ومنها الى عاصمة الكثلكة . ولجأ الى البابا غريغوريوس الثالث عشر ، واعترف بخطيئته . فرحّب به نائب السيد المسيح وعزّاه وساعده على التوبة . فتاب حقيقةً ، واعتنق الايمان الكاثوليكي المقدّس . ولم ينفكّ عن البكاء امام صورة مريم العذراء حتى كلّمته ، على ما قيل ، فصنع صورة مثلها وارسلها الى ابن شقيقه في آمد مشفوعة بجزء من عود الصليب الكريم[3] .

---

١) تدعى ايضاً « قره آمد » اي آمد السوداء لسواد حجارتها .

٢) هذه الرواية عن رسالة منه نقلها القس جبرائيل دولباني الماردي اليعقوبي في مجموعته الموجودة اليوم في خزانة كتب مدرستنا البطريركية في دير الشرفة .

٣) عن مجموعة القس دولباني ايضاً .

وكان الحبر الاعظم يومئذ معنى باصلاح التقويم لحساب ايام السنة ، وقد جمع العلماء من كل صوب للقيام بهذه المهمة للكنيسة ، فاضاف اليهم البطريرك نعمة الله ايضاً ، فساعد البابا في ذلك لخبرته في الرياضيات والطب[١] .

وفي تلك الاثناء التحق بالبطريرك الى رومية موسى اسقف مذيات الذي كان قد رسمه البطريرك نفسه ، على ما مرّ بك ، يصحبه شماسه عبد النور ابن اخت المفريان ايليا . فاقام الثلاثة في حاضرة الكثلكة ، واكبوا على درس اللغة الايطالية حتى احكموها . فتعين الشماس عبد النور معلماً في مدرسة الشرقيين . ثمّ عاد الى وطنه ، وارتسم كاهناً . واما الاسقف موسى فلانه كان ضليعاً باللغة السريانية انتدب الى تدريسها لتلامذة المدرسة المارونية التي انشأها لهم في رومية البابا غريغوريوس الثالث عشر سنة ١٥٨٤

واذ كان البطريرك نعمة الله ، منذ شخوصه الى رومية ، قد أعجب بمناظرها الجميلة وانتظام الكنيسة الرومانية ، وعاين توافر وسائل القداسة فيها وازدهارها بالعلوم ، بعث برسالة الى نائبه داود شاه ، ابن شقيقه ، وسواه ، واصفاً لهم ذلك ، ومبيّناً انّ الكنيسة الرومانية هي كنيسة المسيح الحقيقية ، ورغبهم في الاتحاد معها الذي يضمن النجاح للطائفة السريانية دينياً وادبياً . ثم عاد وكتب رسالة ضافية باللغة السريانية وهي التي نُعنى بنشرها اليوم . وقد أسهب فيها بوصف رومية والشعوب الغربية وملوكها كما يلوح للقارئ اللبيب من مطالعته اياها . فكان لكلامه الوقع الحسن في القلوب فانفذ داود شاه المفريان نائبه ، من ساعته ، دستور ايمانه الى البابا غريغوريوس الثالث عشر[٢] بالاتفاق مع مينا الاصغر ، مطران السور التابعة لناحية طور عابدين ، والمطران توما النائب العام . وفي الوقت ذاته كتب المفريان الموما اليه الى عمه البطريرك نعمة الله يطلعه على ان الاساقفة معوّلون على نصبه بطريركاً خلفاً له . فسرّ البطريرك المغبوط بذلك ، وطفق يلتمس من الكرسي الرسولي مساعفته على

١) عن جريدة الكنيسة الكاثوليكية الجزء ١ سنة ٣ صحيفة ٢٧٣ ، عن المؤرخ « درّاس » ج ٣ .

٢) محفوظ في المصحف الواتكاني ، عدد ١٦٦

تحقيق امانيه ، ويؤيد المنتخب الجديد بسلطانه الرسولي كي ينشط ويتشجع فيأتي بطائفته الى الاتحاد المنشود . وكان الحبر الاعظم قد ارسل كاهناً يسوعياً اسمه يوحنا المعمدان البانو (جان باتستا البانو) الى السريان الموارنة سنة ١٥٧٨ ، فاوعز اليه تلبيةً لرغبة البطريرك بأن يعنى بشؤون السريان اليعاقبة ايضاً ، ويواجه داود شاه ففعل . ولكن لم تفلح مساعيه لشدَّة تمسكهم بمذهبهم . وكان هذا المرسل يشكّ في اخلاص نيّة البطريرك نعمة الله نفسه لانه كان يعذر اصحابه محتجاً بانه لو كان المرسل اليهم اسقفاً عوض الكاهن لقبلوه ، واذعنوا له ، وعملوا على الصلح[1] .

ولما رأى البطريرك نعمة الله ان الكرادلة ايضاً لم يثقوا بكلامه ولم يأبهوا لمواعيده ، اغتمّ غمّاً لا مزيد عليه فرفع الى البابا عريضة باللغة الايطالية مسهبة العبارة لتح فيها الى اخباره والخطوب التي اضلعته . والعريضة تفصح عن طول باعه في الفقه ورسوخ قدمه في التاريخ . واليك نسخة تعريبها ملخّصة ، قال :

ايها الاب الاقدس

اني ، انا نعمة الله باسم بطريرك انطاكية ، ألتمس من قداستك متذللاً ان تصغي اليَّ فيا ارفعه اليها بايجاز عمّا يعود الى مجده تعالى وتمجيد كنيسته وخلاص النفوس فاقول : لما كان تعلق قلبي قديماً بسدّتك الرسولية ، اعني منذ اثنتي عشرة سنة حتى الآن ، فقد حملني هذا التعلق على ان اقاسي اتعاباً وشدائد وغموماً لا توصف ، حتى اني خاطرت بحياتي من اجل اجتلاب شعبي الى الخضوع لمقامك الاسمى . وقبل شخوصي الى هنا ، كنت قد اقمت ابن اخي نائباً عني ليحقق رغبتي . والآن قد وافتني البشرى بموافقته اياي اثناء تعويل الاساقفة على انتخابه خلفاً لي في البطريركية . بيد انه رغماً عن ذلك قد تجدّدت هموي لعدم مشاهدتي من يكترث لي ويثق بكلامي مع وجودي عندكم . فقداستك عالمة ان البطريركية الانطاكية تختص بطائفتنا السريانية دون غيرها ، وذلك حسب قوانين المجامع القديمة ، ولا حقّ فيها لليونان ، كما زعم بعضهم ، وقد اضافوا الى مدّعاهم هذا انّ لهم التقدّم على الكرسي الروماني بغير حقّ . وبلغ جم الادعاء الى ان اقاموا من جنسهم ايضاً بطاركة لانطاكية والاسكندرية واورشليم[2] . وكل خبير في علم التاريخ يدري انه ليس لليونانيين غير كرسي

١) عن الآثار الخطية للمرحوم الاب انطون رباط اليسوعي .

٢) اشار بكلامه الى مجاملة الكردينال سوارين ، وكيل الشرقيين في رومية ، للطائفة الملكيّة ، وسماح الحبر الاعظم لهم ان يصفوا بطريركهم بالانطاكي والاسكندري والاورشليمي كما في عهد الشقاق .

القسطنطينية . فلقداستك الحق ان تؤيد المنتخَب الجديد وتنعته باسمه القديم اي بالانطاكي ، وذلك بدون اضافة اسم اليعقوبي اليه . فان هذه التسمية اضافها اليونان الينا عدوانًا فضلًا عن انها كانت شاملة لغير السريان ايضًا كالاقباط والارمن والحبش ، وليس اسم طائفة او اقليم . وان لا ينعت باسم بطريرك الكلدان[١] بل مجرَّدًا بطريرك انطاكية الذي مقرّه دير الزعفران وهكذا تنفى كل شبهة . وجلّ التمسي من قداستك هو ان تؤيد المنتخَب الجديد في البطريركية الانطاكية لئلا تذهب اتعابي عبثًا ، اذا ما اثنى شعبنا عن عزمه . لاني عالم بشديد تمسّكه بالقوانين والرسوم القديمة . ولقداستك مع ذلك ان تدبّر ما تراه اوفق — سُطِرَ في رومية سنة ١٥٨١ » (٢

وفي تلك الغضون ، اذ لم يعد من امل في الشرق بعودة البطريرك نعمة الله اليه لانّ وجوده فيه غدا محالًا ، اجتمع الاساقفة سنة ١٨٩٤ يونانية (١٥٨٣م) واقاموا داود شاه بطريركًا[٣] ، وتعين شقيقه المطران توما نائبًا ومعاونًا له .

اما البطريرك نعمة الله فلم يكن ليكفّ عن السعي لدى الكرسي الرسولي في ارسال قاصد الى طائفته حتى لباه الحبر الاعظم ، بل وعده ايضًا بفتح مدرسة في رومية لتثقيف شبان من طائفته يكونون جديرين بان يصيروا كهنة ، ووعده ايضًا بانشاء مطبعة لنشر الكتب السريانية . وانفذ قداسته رسالةً الى البطريرك الجديد ، ومثله صنع نائبه انطونيوس كردينال سان سورين . ثم سيّر البابا بُعيد ذلك الى بلاد الشرق قاصدًا رسوليًا يحسن التكلم باللغة العربية اسمه لاونرد هابيل وكان مطرانًا لصور ، فسار يصحبه كاهنان يسوعيّان هما الاب ليونرد سنتانجلو بصفة مستشار ولاهوتي ، والاب اغناطيوس دي لاكازا ، وكان يلمّ باللغة العربية . وكان قد تسلّم هذا القاصد من الحبر الاعظم الباليوم ، اي الدرع البطريركي ، وبراءة التأييد لبطريركية داود شاه ، وعني باستحصال فرمان من السلطان مراد خان الثالث يجيز له فيه التجوّل في تلك البلاد ، وتفقّد كنائس اورشليم وسائر بلاد المشرق . فاثلج صدر البطريرك نعمة الله لذلك ، وانقشعت سحائب همومه . فكتب بهذا الصدد الى البطريرك الجديد وغيره ، ولاسيما الى وكيله في حلب

١) كان في ذاك العصر قد اطلق اسم الكلدان على السريان وهمًا .

٢) وُجدت هذه العريضة بين السجلات السرية في الواتكان خزانة ٧ ، صندوقة ٣ ، عدد ٢٠

٣) عن لائحة البطاركة الموجودة في مكتبة دار المطرانية السريانية في حلب .

الخواجا سفر المكنى بـذي الجبين، وهو ابن المقدسي منصور قُرَيع الرهاوي نزيل حلب[1]، يوصيهم ليغتنموا هذه الفرصة لانجاز ما يبتغيه.

وصل القاصد لاوزد هابيل الى حلب. فهرع الشعب بهمّة الخواجا سفر الى ملتقاه. ولما انتهى الى الرها، اقبل وفد من قبل البطريرك داود الى لقائه، فاخذوه الى دير مار ابجاي الذي على شاطئ الفرات بين الرها وآمد. وكان قد عُيّنَ للاجتماع فحضر اليه هناك المطران توما، النائب اخو المطران الجديد، وتفاوض معه مدة ثلاثة ايام ليلًا. وقال: لقد ذاع بين الشعب انك قدمت لكي تبدّل مذهبهم وتحرم قديسيهم، واتصل نبأ قدومك بالحكّام. وهذا ما ثبّط البطريرك عن الحضور اليك خيفةً من ان يحدث شغب بمجيئه. وقد فوّض اليَّ تأييد الاتفاق باسمه، فان تدبيره كله بيدي. واثبت وكالته بعرضه على القاصد الكتب التي ارسلها البابا والكردينال وختم البطريرك. فاجتهد القاصد ليقنعه بمواجهة البطريرك نفسه، ولو بزي العلمانيين، ليفاوضه مشافهة بما أُمر، ويعرض عليه ارسال شبّان الى رومية يتلقون العلوم في المدرسة المختصة باسم السريان، وان يبعث بكتب علمية لتطبع بالسريانية والعربية، الى غير ذلك. فلم يجد من المطران الا محاولة وصدًا عن مقابلة البطريرك. فاضطرّ الى مكاشفته بالامر ففاتحه بابرازه له صورة الايمان والخضوع للكرسي الرسولي، واراه كتاب البطريرك نعمةالله المشروحة فيه هذه المسائل. فقبلها، وسلّم بها، موقعاً اياها. ولكنه لما وصل الى قبول المجمع الخلقيدوني ورفض ديسقوروس، توقّف متعجباً من قبول البطريرك نعمةالله ذلك وموافقته عليه، فقال: هذا مستحيل. فلم يألُ القاصد جهدًا في اقناعه، واقناع بقية

[1] قيل كان الخواجا سفر من اماثل الشهبا، وعلية القوم، دينًا ورؤوفًا بالفقراء، نديّ الكفّ واسع العطاء، حتى نُعت «بذي الجبين». ويُروى عنه انه كان قد ابتاع قمحًا في ايام الرخص وادّخره فباعه بقيمة بخسة ايام غلاء كبير حدث في حلب، فأحبه الشعب على اختلاف نحله، واجلّه الحكّام فعُهدت اليه نظارة الجمرك. ومما يدلّ على رفيع منزلته لدى اولي الامر ما سمح له به محمد باشا والي حلب مما لم يكن ليسمح به في زمانه للمسيحيين، وهو ان يرمّ كنيسة السريان. وسُمح كذلك لابنه نوري چلبي ببناء قاعة الدار المطرانية اللاصقة للكنيسة المذكورة في ايام البطريرك يلاطس سنة ١٥٩٦ م.

الاساقفة ، واستنجازه اياهم وعودهم للبطريرك نعمة الله . فلم يُفلح سعياً ، ولم يتمكن ، مع كل ما ابداه من الحزم والعزم وما بذله من المشقات والنفقات ، من استمالة احد من السريان سوى الخواجا سفر السابق الذكر وولديه فتح الله ونوري واتباعه من الاقارب والاصحاب . فاعتنق هؤلاء الايمان الكاثوليكي المقدّس ، ووقعوا دستور الايمان مؤكدين ، وفي مقدّمتهم الخواجا سفر ، انهم لم يحملهم على ذلك الا الهام الهي . وبعثوا بتقريرهم سنة ١٥٨٦ الى البابا والكردينال والبطريرك نعمة الله . وقد افاضوا في تقريرهم الى البابا بجُمَلِ الشكر وجميل العرفان لخليفة هامة الرسل من جراء ما ابدى للبطريرك نعمة الله من امارات اللطف والعطف بحيث اشترى له داراً خصوصية . واتوا على ذكر ما تحمّله هذا البطريرك المظلوم من المحن والتجارب ، ووصفوا صبره واستسلامه للاله الواحد القهّار . وذكروا انّ الطائفة السريانية مقرّة ومعترفة منذ قديم الايام بالخضوع لسدّته الرسولية ، فمحبتهم الصادقة ليست بجديدة بل هي من عهد آبائهم المرحومين الذين درجوا. وقد زادهم رغبة ورسوخاً ما يحظون به من الارشادات بهذا المعنى من البطريرك المذكور ونصائحه القيّمة لهم في جميع رسائله ، ولاسيما في الرسالة التي حملها منه اليهم السيد لاونرد قاصد قداسته . واسهبوا في ذكر الموانع التي حالت دون اجتماع القاصد المشار اليه بالبطريرك داود شاه ، قالوا من جملتها :

« في هذه الغضون ذاعت الاخبار وتفشّت في جميع البلدان بخلاف الواقع ، وفغر الناس افواههم واخذوا يضربون في الحدس اخماساً لاسداس . فمنهم من قال ان القاصد اتى ليحيل اهل هذه البلاد الى الفرنجة . ومنهم من تخرّص عليه انه جاء بالبطريرك نعمة الله ضمن صندوق . ومنهم من اتّهمه بكونه قدم ليعبّئ جيوشاً من النصارى . ومنهم من ادّعى انه اتى بمال جزيل ليشيد به الاماكن المقدسة في القدس الشريف – والحق يقال انهم لم يفوهوا بأكذوبة احسن من هذه – وهكذا على كل رجلين او ثلاثة يتحدثون حديثاً ويستنبطون خبراً يعملون على اشاعته في عرض البلاد وطولها . وكما اعلمنا قداستكم انّ الزمان لنحس ولذلك لم يتمكن قدس الاب المكرَّم البطريرك داود شاه من الاجتماع بقاصدكم »

وختموا هذا التقرير بتقديم الطاعة الكرسي الرسولي والتماس بركته ورضاه ، وابتهلوا اليه ليسأل لهم من سيدنا يسوع المسيح غفران خطاياهم وراحة لنفوس

مرتاهم[1]. فلما انتهت هذه الانباء الى مسمعي رأس الكنيسة المنظور احبّ جداً الخواجا سفر فسماه كونت القصر الباباوي وانعم عليه بوسام السلسلة الذهبية[2].

اما المطبعة والمدرسة اللتان اعدّهما البابا للسريان فاضحتا علماً يظهر نصيب السريان الموارنة وحدهم، فبرز من المدرسة العلماء الاعلام والافاضل.

اما البطريرك نعمة الله فصرف بقية ايامه في رومية حتى وافاه الاجل في حوالي سنة ١٠٩٠ وكان يردّد دون انقطاع العبارة التالية وهي: « ارحمني يا ربّ ارحمني » . وكانت مدّة بطريركيته ٢١ سنة، أعني من سنة ١٥٥٧ الى ١٥٧٨ . وخلفه ابن اخيه اغناطيوس الرابع، وهو داود شاه السابق الذكر، ويقال عنه انه ابتاع كنيسة الاقباط في اورشليم وابتنى بيماً شتى وتبرّع بمساعدة دير والدة الاله للسريان في صعيد مصر . وتوفي سنة ١٥٩١ في قرية قطربل من ضواحي آمد، ودفن في كنيستها المنسوبة الى مار توما الرسول، بعد ان قضى في البطريركية ١٣ سنة، وتولى البطريركية بعده في حلب البطريرك بيلاطس ابن القس اسطفان من قرية المنصورية في جوار ماردين

وقد تولى السدة البطريركية الانطاكية من اسرة البطريرك نعمة الله ايضاً بطريرك ثالث هو يوحنا الثامن عشر (١٤٨٤–١٤٩٤) . وممن يمتّ اليه بالنسب البطريرك اغناطيوس بطرس الخامس (١٥٩٨–١٦٣٩) وبرز من هذه العترة ايضاً الاساقفة طيمثاوس توما النائب البطريركي العام، وايونيس ميناس مطران السور ابنا قسطنطين شقيق البطريرك نعمة الله المار ذكرهما، والسيد ديونيسيوس ميخائيل هدايا مطران حلب († ١٨٢٧)

---

١) في خزانة السجلات الواتكانية، عدد ١٦٩، اربع اوراق فيها صورة ايمان سفر بن منصور، ورسالتان باسم السريان عموماً الواحدة الى البابا، والثانية الى الكردينال، ورسالة البطريرك داود الى القاصد لاونرد. (المكتبة الشرقية ٢: ١٨٦) . وقد حظي حضرة الخورفسقفوس اسحق ارملة السرياني الفاضل، ابان وجوده في رومية سنة ١٩٣٠، بتقرير سفر ورفاقه باللغة الدرية ونشره ملخصاً في كتابه « الرئاسة البابوية في الكنيسة السريانية »

٢) عن التقرير الذي رفعه لاونرد هابيل، القاصد الرسولي، الى البابا كسطس الخامس، وهو محفوظ في سجلات الواتكان خزانة ٣، صندوقة ٧ . وفي الشرق المسيحي للوكيان جزء ١، عمود ٣٥ و ١٤٠٦

(له صلة)

امراض الذاكرة

بقلم نقولا عطيه (دمشق)

ذكر الامر او الحادث او الشخص عاد اليه فتصوّره ؛ والذاكرة هي تلك القوة الباطنية التي وهبنا اياها الباري كي نحافظ على جميع المعلومات حسّية كانت ام عقلية ، فنعود اليها ونستعملها عند الحاجة . ولولا الذاكرة لما وجد الانسان سبيلًا الى التقدم ، بل لعجز عن استعمال قواه العقلية ، واصبح كاولئك اللواتي حكم عليهنّ في الازمنة الغابرة بان يملأن اواني لا قعر لها . يضعنَ الماء فيغور ويذهب دون ان يترك اقلّ اثر .

والذاكرة على نوعين: عقلية . وهي من خصال النفس . فلا يمكننا ان تضمحل . ولا تؤثر عنها الاسباب والعوارض المادية ، وليست هي التي نبحث عنها الآن . ومادية وهي احدى الحواسّ الباطنية بها علاقة جوهرية بخلايا الدماغ كالمخيّلة . ولا فرق بينها وبين الحواسّ الخارجية كالنظر والسمع والشم واللمس والذوق الا انه لا عضو لها يظهر للعيان كالحواس الخمس . ولقد ذهب هذا المذهب فلاسفة اليونان كافلاطون وارسطاطاليس ، وتبعهم فيه القديس توما الاكويني[1] . ثم ايّده كثير من فلاسفة القرن التاسع عشر لا بل بالغوا في الدفاع عنه ، وتجاوزوا تعليم من سبقهم ، فعيّنوا لكل من اقسام الدماغ عملًا خاصًا به كذاكرة السمع ، وذاكرة الشمّ ، وذاكرة النظر . واشهر من جاهد في سبيل

---

1) Aristote et St Thomas, *op. de Memoria et Reminiscentia.* Mercier, *Psych.* t.1, n° 128 et suiv. Farges, *Le Cerveau*, p. 188 — 189

هذه الاكتشافات بروكا[1] . فانتصر له كثير من الاطباء والفلاسفة ، ثم ما عتموا ان ادعوا ان في الدماغ خلايا خاصة بالعقل والارادة ، وان جسم الانسان ليس بحاجة الى نفس روحانية غير قابلة الفساد والموت .

ليس من غرضنا ان نفند هذه الدعايات الواهنة التي من شأنها ان تناصر بدعة من البدع لا العلم الحقيقي . لكن يكفينا ان نعلم ان الذاكرة حاسة مادّية كسائر الحواس الخارجية . وبما انها مركبة من خلايا وانسجة فانها معرّضة للعلل كسائر اعضاء الانسان . لكن هذه الامراض عديدة جدًّا ولها مظاهر مختلفة ، فسوف نبحث عن اهمها ، ثم عن الاسباب التي تؤدي اليها .

انواعها

كل منا ، شئنا ام ابينا ، مصاب بداء ، وان كان لا يهددنا بالموت فهو يضعف قوانا وينغص كثيرًا حياتنا . فيجبرنا على تدوين العلوم التي نتعلمها ، والافكار التي تخطر لنا ، والاعمال التي نعملها ، الا وهو النسيان[2] . فانه علة كل علم وكل عالم . يقضي على اثمن واكمل ما شاهدناه وسمعناه . ولولاه لكانت معارف كل منا اضعاف ما هي الآن .

وليس النسيان من العلل التي تميّز صاحبها عن غيره ، لاننا كلنا عرضة لهذا الداء ، كما ان ضعف النظر مثلًا علّة تمسّ سائر البشر ولو بدرجات متفاوتة . لكن العلة الكبرى هي ما يدعوه الفلاسفة امنيزيا *amnésie* او النسيان الشامل . وهذا المرض اذا مسّ الانسان محا سابقه وكل ما تعلمه وكل ما شاهده منذ صباه ، فيصبح كالورقة البيضاء خالية خاوية . ولقد عرفت احد الاشخاص ، وهو من علماء اللاهوت الادبي المعدودين في عصرنا هذا ، قد مسّ بهذه العلة . فبينما كان سائرًا يومًا ما في شوارع مدينة الجزائر ، وقد اشتدّ الحرّ ، شعر بخمول مدهش وخلوّ رهيب في كل قواه حتى انه نسي اسمه وكنيته وشخصيته .

1) Ribot, *Maladies de la Mémoire*, 14e éd. — Janet, *Etat mental des hystériques*. — Voissière S. J. *Eléments de Psychologie Expérimental*. p. 124-130

2) Bain, *Sens et Intelligence*, p. 295-304

فكان يسير خطوة بعد خطوة وهو لا يدري اين يذهب . وظلّ هكذا حتى غياب الشمس يسير في شوارع المدينة كأني به احد المجانين . اخيراً أُتي به الى محل اقامته . وهناك كان يدرس ويطالع دون ان يذكر قطعياً ما كان يكتبه او يطالعه . وبعد شهر عادت اليه ذاكرته بغتة فافاق كمن يفيق من سُبات عميق .

وقد تذهب الذاكرة احياناً شيئاً فشيئاً ، فيضمحلّ اولاً ذكر الاعمال الجديدة والعلوم الاخيرة . ولا يزال هذا الظلّ يمتدّ على سائر تاريخ الانسان حتى يستر ماضيه بغشاء اسود . فكأني به غمامة سوداء تظهر في الافق ، ثم لا تعتم ان تحتلّ جميع جهات السماء . والفرق بين النسيان وهذه العلة هو ان الامنيسيا تأخذ في محو آخر ما تعلمناه من حوادث واسماء وعلوم ، ثم تشمل الافكار والعواطف ، ثم تقضي على العادات التي هي نوعاً ما جوهرنا وكياننا . ولقد تمسّ هذه العلة بدرجة ضعيفة كبراء السن والشيوخ . فما تعلموه وهم صغار لا ينسونه ابداً فكأنه منحوت بالصخر ، لكن ما طالعوه وهم كبار ، وان بالغوا في الانتباه ، يضمحلّ بسرعة عجيبة . ولذا نراهم يتذمرون من سوء ذاكرتهم ويصفونها بالخيانة . واما النسيان فلا يشمل الا جزءاً من معلوماتنا القديمة او بعض شذرات مبعثرة قضت عليها السنون .

ذكرنا في اول هذا المقال ما ادعاه العالم الافرنسي الشهير « بروكا » في الذاكرة المحلية . وان كنا لا نسلّم تماماً بجميع ما يدعيه ، لا بد لنا ان نعترف بان الانسان قد يُضيع احياناً ذاكرة بعض الحواس دون غيرها . وقد اكتشف هذا العالم ، بعد تشريح عليل يدعى « لوبورني Leborgne »[1] قد فقد بغتة استعمال الكلام ، ان قسماً من دماغه قد ارتخى وذبل كالتفاحة اذا انقضت عليها اسابيع . ثم تلا هذا الاكتشاف اكتشافات غيرها ايدت ان كثيراً من العلل والامراض التي تعتري الانسان في حواسه الخمس كالطرش والخرس والعمى وغيرها ليست مسببة عن خلل يطرأ على الاعضاء او على الاعصاب لكن عن فقدان ذاكرة هذه الحواس .

[1] Dagnan-Bouveret, *Aphasie et Localisations cérébrales*, (1908) p. 468

. فمنها فَقدُ ذاكرة الكلام . فان العليل يسمع بكل دقة ما يقال امامه لكنه لا يفقد بتاتاً معنى هذه الدمدمات التي تبلغ اذنه . وقد يحدث انه هو ذاته يصبح كالاخرس . فيردد لسانه الحروف والمقاطع دون ان يذكر ما هي الاصوات التي تركب الكلمة الفلانية . ومنها فقد ذاكرة الكتابة ويدعونها « اغرافيا agraphie » اذ يضمحل معنى سائر الاشارات لا الكتابية فحسب لكن الطبيعية ايضاً . فلا يعرف العليل ان الدخان يدلُّ على النار ، وان الابتسام يعني الفرح . ومنها فقدُ ذاكرة اسماء الاعلام ، او بعض صور ومخيَّلات خاصة بحقبة من العمر ، او بمكان قضى فيه العليل بعض سنوات . وقد تتعدد هذه الامراض الخاصة فتكون تارة شاملة العواطف وطوراً التصوّرات ، تارة الازمنة وطوراً الامكنة . فلا يفرقُ العامة بينها وبين الجنون وضعف العقل . ولقد يصيب الشعب في هذا ، لان الجنون في الغالب لا يكون الا خللاً يعتري الذاكرة . بما ان العقل غير مادي وليس قابل الامراض .

لقد ذكرنا الحوادث التي تخلّ فيها الذاكرة وتضعف وتضمحل . بقي علينا ان نذكر الامراض التي تزيد هذه القوة الحسية الباطنية جلاء ووضوحاً وشمولاً . فمنها « الايرمنيزيا hypermnésie » وهي علّة تعتري الذين يموتون غرقاً او خنقاً . فتظهر لهم عند ساعتهم الاخيرة جميع الاعمال التي عملوها والمناظر التي شاهدوها والاصوات التي سمعوها ، منذ نعومة اظفارهم اي من السنة الرابعة او الخامسة الى هذه الساعة المشؤومة . واحياناً هذه الذكرى قد تكون محصورةً بحقبةٍ من العمر او بنوع خاص من الشعور او الصور او بسيرة بعض الافراد[1] . وسبب هذه العلة هو ان الدم الذي يجري في عروق الانسان يصعد بغتةً الى الدماغ فيهيج الخلايا والانسجة ويدفعها الى عمل شاقٍّ متواترٍ . فكل ما كان منسياً يظهر وكل ما تحته الاعوام ينجلي ويشعّ كالنور في الظهيرة وقد ذكر بعضهم لهذا الانبعاث الاخير اسباباً نفسية ليست من غرضنا الآن .

وقد يحدث لبعض الافراد انهم كلما عاينوا شخصاً او سمعوا بحادثة او شاهدوا منظرًا ُخيّل اليهم ان لهم به علماً سابقاً . وهذه العلة قد تكون مسببة عن خلل يحدث في الدماغ اذ تُخلط معاً ذكريات الماضي والصور الحاضرة. فيظن العليل ان الامور الحاضرة قد سلفت منذ ايام واعوام، لا يدري عددها وان الامور الماضية حوادث حاضرة.

اسبابها

تلك هي الامراض التي تعتري الانسان في ذاكرته . وليست بالمستهان بها. لانها، وان كانت بعيدة عن الجنون الحقيقي الشامل، تُفسد حياة الانسان وتجعله غير صالح للاعمال العقلية . فلا يُحسن قيادة نفسه، ولا يستطيع ان يضع صلة بين ابسط الاعمال . ولكي يتحاشاها الانسان لا بدّ له ان يعرف اسبابها فيبتعد عنها.

لقد اختلف الفلاسفة في اسباب هذه العلل . لكن اغلبهم يجمعون على انها تحدث بعد خلل يعتري خلايا الدماغ . وهذا الخلل هو اما تهشيم او فساد او جنس آخر من بلاء الانسجة يحدث بعد طوارئ طبيعية مادية او نفسية.

حدث لي يوماً اني كنتُ في احد شوارع دمشق اسير ببطء على الرصيف وبيدي جريدة اطالعها . واذا بحمّال يجوز بالقرب مني، وعلى عاتقه اخشاب خشنة . وبينا هو عابر بسرعة اصابتني تلك الاخشاب فوقعتُ وصادف رأسي حجرًا هناك . فنهضتُ وذهبتُ الى احد المخازن . وهناك استرحتُ قليلًا ثم غبت عن رشدي . وفي الغد نهضتُ واذا انا بفراشي ضمن جدران غرفتي . فدعوتُ الاقارب وسألتهم عما حدث، ومن الذي نقلني الى ههنا بعد تلك الصدمة العنيفة. فقيل لي : انك انت ذاتك رجعت الى محل سكناك فنزعت ثيابك ونمت . فمن جميع هذه الاعمال لم اذكر شيئاً البتة . لان ذاكرتي كانت قد غابت هنيهة . فاذاً من اعظم اسباب الامنيزيا الصدمات التي تصيب الدماغ فترعجه او تحصره او تتلف خلاياه . واما السبب الثاني فهو شدة الحرارة . فكما ان اشعة الشمس تُحدث احياناً الموت او الجنون، فانها تحدث ايضاً ضياع

الذاكرة اذ يرتخي قسم من الدماغ ويُعدمُ وسائط العمل وحفظ الصور.

وغير هذه الاسباب المادية قد تكشف لنا الفلسفة والفيزيولوجية اسباباً اعظم خطورة منها . وهي اولاً تهييج الاعصاب، والافراط من الملاذ البدنية . فان جسم الانسان آلة في غاية الدقة والشعور كالساعة الصغيرة . اذا اخذنا في تحريك عقاربها او تغيير سير دواليبها لا تعتمُ ان تأخذ في التقديم او التأخير، ثم تشذُّ عن القوانين والسنن التي وُضعت لها ، اخيرًا تتكسر وتتهشم فلا تصلح الا للعب الاولاد . ثانياً الافراط في استعمال الكحول وسائر المشاريب السامَّة . اذ انها تسدل على الدماغ ستارًا يحول بينه وبين الصور والشواعر ، ثم يأخذ السمّ الذي كان منذ حين ينبّه الاعصاب في اتلاف الخلايا والانسجة ، ولا يعتم ان يقضي على الذاكرة فتضمحل وتبيد اليوم بعد اليوم . اخيرًا من الاسباب التي تذهب بالذاكرة الانتقال بسرعة من حالة الحزن الشديد الى حالة الفرح الشديد او بالعكس . اذ يُحدث هذا الانتقال صدمةً في الاعصاب جميعها . ولقد ذكر الدكتور ريبو حادثة امرأة اضاعت ذاكرتها اذ أُخبرت ان ابناً لها قد عُفي عنه بعد ما كان قد حُكم عليه بالاعدام . فنسيت تماماً اسمه وسائر الحوادث التي كانت تطرأ عليها بعد ذاك الخبر . ولقد ذكر غيره من الاطباء والفلاسفة حوادث كثيرة غير هذه تبين لنا ان تهييج الاعصاب الفجائي يؤثر على الدماغ وبالوقت عينه على الحواس الداخلية .

تلك هي الامراض التي تعتري الذاكرة وبعض الاسباب التي تؤدي اليها . لكننا لم نذكر ان هذه العلل ليست بخطورة الجنون ، لان الذاكرة تعود في اغلب الاحيان . وقلما سمعنا ان حادثة امنيزيا دامت العمر كله . ومع هذا لا بدَّ لنا من الابتعاد عن الاسباب التي تقود الى هذه العلة . وخصوصاً ان كانت من الاسباب النفسية والاخلاقية .

الصحةُ والطبُّ في الكتاب المقدّس

بقلم الحكيم امين الجميّل

٢

(تتمة)

١ الصحة والوقاية في الكتاب المقدس (تابع)

الاخلاق والفضيلة وقايةٌ وصحة؛ والرذيلة بليّةٌ وعلّة؛ تأثير النفس في الجسم

لم يُعرف، لصيانة الجسم، أثبت من نفع الطهارة والقناعة والسلم والاعتدال والحلم والصفح والاطمئنان، وَفقاً للوصايا الالهية وطبقاً للمواعيد المقدسة. فحيثما يسُد السلام الباطني تكن السلامة. وبضدّه ان الفسق والحقد والغضب والحسد والطمع والبخل لآفاتٌ تعرض أصول العافية، فضلاً عن الرفاهية. ان تُرِد فهم ذلك تأمل رجلاً في ثورة الغضب ترَ اعصابه تضطرب وترتجف ورأسه يحتقن وعضلاته تتوتّر او ترتخي، وجلده يصفرّ او يعرق، وقلبه يخفق، وهضمه يقف، ومُفرَزات غدده الباطنية تفسد او تجفّ. وقد أظهرت ذلك جلياً (في معدة الكلب) اختباراتُ باولو: ففورَ حدوث الغضب كانت تنضب عصارة المعدة الهاضمة، وبضدّه اذا شاهدتْ عينه شيئاً شهياً طيّباً.

والمعاينات في البشر علّمتنا ان الهموم والغموم سموم، وان الاضطرابات النفسية والعواطف البشرية غير الحميدة تجعل البنية اكثر قبولاً للامراض واقلّ مقاومة لها. واليك كلام «الكتاب» تجده هنا او هناك في بعض الاسفار[1]: «الغمّ في قلب الانسان يصرعه»، «الامل المطول يمرض القلب»، والبغية الحاصلة شجرة حياة»؛ «القلب المسرور دواءٌ ناجع والروح المنكسرة تجفّف العظام»؛ «صلاح القلب حياة الاعضاء والحسد نخر العظام»؛ «فافرح ايها

١) سفر الامثال، والجامعة، وابن سيراخ، والمزامير الخ.

الشاب في صبائك وليطب قلبك في ايام شبابك وسر في طرُق قلبك وفي مرأى عينيك». ولكن ما أحكم الشروط المقيّدة: «لكن اعلم انّ هذه كلّها سيُحضرك الله لتُدان عليها»؛ «فانقص الهمّ عن قلبك وباعد السوء عن جسدك»؛ «تمتّع ايام حياتك الفانية بالعيش مع المرأة التي أحببتها»؛ «اكفف عن الغضب ودع السخط»؛ اما الودعاء فيرثون الارض ويتلذّذون بكثرة السلام.»

وايّ طبيب اي صحّي كتب ما هو أصدق وأحكم ممّا خطّه ابن سيراخ الصحّي الكبير: «فان الحزن يجلب الموت وغمّة القلب تحني القوّة كلها»؛ او مما تقرأه في سفر الجامعة: «فاذهب كل خبزك بفرح واشرب خمرك بقلب مسرور اذا كان الله قد رضي عن اعمالك.»؛ او مما سطّره ايوب: «الغضب يقتل الغبيّ والحسد يُميت الاحمق»؛ «لا أسير مع من يذوب حسدًا لانّ مثل هذا لا حظّ له في الحكمة»، ولا حظّ له من الهناء والصحة. وقد كُتب في ما بعد: «صحة الجسد من قلة الحسد».

فاذا تدبّرنا ما سبق — ويجب ان نتدبّره — أدركنا وجوبه؛ وان هذا البناء الصحي العظيم لا يقوم الّا على اساس واحد، لانه وحده وطيد، وهو الدين. اي الاطمئنان الى العناية الالهية والاستسلام لها والايمان بخالق علّمنا هو نفسه ان ندعوه في مطالبنا: «ابانا الذي في السماوات»، وهو الرحمان القدير؛ وان نصفح لا الى سبع مرات بل الى سبعة في سبعين»؛ وكذلك ان نُقصي الهموم: «لا تهتمّوا بالغد لان الغد يهتمّ بشأنه، يكفي كل يوم شرّه»؛ «اعطنا خبزنا كفافَ يومنا.» وأن نحبّ المسالمة والسلام: «سلامي اعطيكم»، «طوبى لفاعلي السلام»؛ وأكّده الرسول: «سالموا جميع الناس قدر ما تستطيعون»؛ «لا تدع الشمس تغرب على غضبك»؛ و«لنسلكنّ سلوكًا لائقًا كما في النهار لا بالقصوف والسكر ولا بالدعارة والعهر ولا بالخصام والحسد».

وايضًا لاستاذنا الصحي بولس الرسول اوامر ونواهٍ يردّدها لاهل فيلبي ولاهل تسالونيكي، وما هي الا السلامة والعافية للجميع: «افرحوا في الرب كل حين واقول ايضًا افرحوا»؛ «افرحوا كلَّ حين». بل يبلغ به هذا الفرح، ذلك البلسم الشافي او الترياق الواقي، الى ان يكتب لاهل تورنتس: «قد

امتلأتُ تعزيةً وانا فائضٌ بالفرح في جميع مضايقنا » . والرسول يعقوب يحسب « المتجارب دواعي للمسرَّة »

والى كانت الصحة الصحية نفسها بالفضيلة وكان عكسها بالمخالفة والرذيلة لزم حتماً ان نتقيَّد ابدًا بما يرسمه « الكتاب » ، وحبّاً الاختصار نقتصر على بعض نصوصه : « طوبى للنقيَّة قلوبهم » ؛ « اغفروا للناس ليغفر لكم ابوكم السماوي زلاتكم » ؛ « احبُّوا اعداءكم وأحسنوا الى من يبغضكم » ؛ « الكبير فيكم فليكن خادماً » . والانجيل طافح بمثل ذلك . وهكذا ايضاً الرسائل : « ان كان احدٌ ممَّن يُسمَّى اخاً زانياً او بخيلاً او عابد وثن او شتَّاماً او سكيرًا او خاطفاً فمثل هذا لا تؤاكلوه » ؛ وله ايضاً : « وان كان احد لا يطيع ما نوصي به في الرسالة لا تخالطوه لكي يخجل » . وبعد ان عدَّد بولس لتلميذه تيموثاوس انواع النقائص والرذائل من كبرياء وبخل ودنس وتجديف وعقوق للوالدين ونكران للمعروف والوداد والعهود وحبّ للخصام ونفرة من الصلاح الخ أمرَه : ان يُعرِض اي يهرب من هؤلاء . سلط المحبة والقناعة والصفح والطهارة والشجاعة يحصل الجسم عينه على الهنا والعافية والرفاهية . وفي العهد الجديد خاصةً لك من هذا النوع ما ليس اوفر منه ولا افيد لتقوية القلب ونزاهة النفس فالجسم عن المكاره .

العمل والاستراحة

ـ ليس العمل ضروريًا لاكتساب الرزق وحسب ، بل انه لازم لحياة الانسجة واعتدالها وإحراق فضلهما ولتشديد القوى على اختلاف انواعهما . فالطاعة للوصيَّة : « بعرق جبينك تأكل خبزك » ، وهي في اصلها عقاب ، اصبحت بترتيب العناية مقرونةً بجزاء هو العافية . البطالة صدأ للبنية كلها ، علاوةً على انها أمّ الرذيلة ومصدر العلة ومنبت الاوهام : « في جميع اعمالك كن نشيطًا فلا يلحق بك سقم » (ابن سيراخ) ؛ وان سُئِلَ الطبُّ ما هو هذا التسمم أجاب : السمن ، النقرس ، الرمل ، فالحصى ، والامتلاء . وما عن ذلك من بول سكري وازدياد الضغط (الآفة اللاهج بها الجميع في يومنا) ؟ « فانه لما كنا

عندكم وصيناكم بهذا انه ان كان احد لا يريد ان يشتغل فلا يأكل . وقد بلغنا ان فيكم قوماً يسلكون على خلاف الترتيب غير مشتغلين بل متشاغلين بما لا يعنيهم » (الرسول بولس) . وما أضبط هذه الملاحظة : ان العاطلين عن العمل يعملون وقد يعملون بكل همة .. ولكن بما لا يعنيهم وينصرفون الى النوافل والتوافه ان لم يكن الى المؤذيات . الشغل يمنع التشاغل بما لا طائل تحته ولا فائدة منه . وله قواعده وشروطه وهي ضرورية : واولها الاستراحة لتجديد القوى . ليس مُفيدٌ للعمل واجادته والمثابرة والالتذاذ كالراحة بعد العناء . وبضده ان أقرب الناس الى انحطاط العزائم وخوار القوى وكثير من الامراض كالترستاني (المرض العصريّ) اولئك الجاهدون لقواهم غير حافلين بالراحة بأوقاتها ومقدارها (يوماً في الاسبوع) كما في الوصية الالهية) وليلاً في اليوم (الوصية الطبيعيّة) . إن المندفعين بإفراط يقلقون ويكلون قبل سواهم ، ولا تلبث تلك الهمّة ان تتحوّل الى تعب وضنك ووصب . العساكر المجهودة فريسة للاوبئة ، وهي فيهم اشدُّ فتكاً . والاختبار في الحيوان المُتعَب أيد ذلك بسديد البرهان : « يا بُنيَّ لا تتشاغل باعمال كثيرة فانك ان اكثرت منها لم تخلُ من ملام ، ان تبَعتَها لم تحُشها وان سبقتها لم تنج » ؛ « الدرس الكثير يُتعب الجسد . » (سفر الجامعة)

وايضاً ان للمقدرة على العمل ووفرة انتاجه واتقانه والتلذُّذ به فالتوقان اليه في مقام النفور منه والونا، من الانصباب عليه ، لا بدَّ من عقلية عالية ونظام عادل ومطمح شريف . الشغل اللذيذ لا يُتعب بل يريح ؛ اما شغل السخرة فمكروه ثقيل يأتي بالتعب والكلالة سريعاً ، كما ستقرأه بعد هنيهة .

ومن تصفّح رسائل بولس الرسول يجد فيها دستوراً كاملاً للعمل واثمن الارشاد لاحبائه العمّال ، وكلنا من هؤلاء . اسمعوا ايها الاشتراكيون والإباحيون ، ايها المباهون بنُصرة العمال والوضعاء ، وانتم تقودونهم حثاً الى مطامع خرقاء تقتل الهناء ، اسمعوا ، اسمعوا : « وليس مرادي ان تكون لغيركم سعة ولبعضكم ضيق بل ان تكون المساواة ؛ لكي تسُدَّ زيادتكم في هذا الدهر نقصانهم وتسدَّ زيادتهم نقصانكم حتى تحصل المساواة ؛ كما كُتب :

المكثر لم يفضل عنه والمقلّ لم ينقص عنه » ؛ اسمعوا ما قاله في مكان آخر: « ... فاني قد تعلّمت ان اكون قنوعاً في اية حالة كنتُ فيها ؛ فاني في كل مكان وكل شيء قد ألفت ان اشبع وان اجوع . اني استطيع كل شيء في الذي يقوّيني » . فهي الحكمة المشهورة : « اذا لم يكن ما تريد فأرِدْ ما يكون . »

لم يكن يوماً اشتراكية جيّدة الا في الكنيسة باول عهدها ، ولن يكون الا بين قوم مبادئهم وغايتهم كما في المسيحيين الاولين اي في الاديار . وهل ممكن ان تحيا في الشيوعية اي البولشفيكية وابوها التحاسد وأمها الطمع او الكسل او الغرور ؟ وهل يكون فيها سوى الحقد وخيبة الامل ؟ هل سمع هؤلاء الفوضويون مرّة كلاماً من نحو الآتي : « من كان سارقاً فلا يسرق فيما بعد بل فليكدّ ويعمل بيديه ما هو صالح لكي يكون له ما يشرك فيه المحتاج » ؟ ... « خادمين بنيّة صالحة كخدمتكم للربّ لا للناس ، عالمين ان مهما عمل كلٌّ واحد من الخير فسيناله من الرب عبدًا كان ام حرًّا » ؛ « وانما نسألكم ايها الاخوة ان تحرصوا على ان تكونوا هادئين تعملون ما يعنيكم وتشتغلون بايديكم كما اوصيناكم حتى تسلكوا سلوكاً لائقاً لدى الذين في الخارج ولا تكون بكم حاجةٌ الى احد » ؛ « كونوا غير متكاسلين في الاجتهاد فرحين من الرجاء صابرين في الضيق مواظبين على الصلاة ؛ باركوا الذين يضطهدونكم ... افعلوا ذلك بالصبر لا بالضجر ... لا تنقسموا ... لا تنغلب للشرّ بل اغلب الشرّ بالخير » . مَن به ذرّة من الاستقامة وحرمة الحق لا يعترف بان هذا هو تعليم الرفاهية والسعادة والصحة ، وما هو سواه هدّام مؤدٍّ اكيدًا الى اضطراب النفس وحسرة القلب وسقم الجسم ؟

٣ الامراض والطبابة في الكتاب المقدس

وانه ايضاً لمن أفيد المباحث الوقوف على الامراض في العصور القديمة ومقارنة طبابة تلك الايام بهذه الأزمان . إن تسمع موسى يتكلّم عن داء السيلان (التعقيبة) ، ابن الزنى وآفة الشيبة ، على ما تقدّم ، ويذكر أعراضه

في حدّته وإزمانه (أقطرَ السائل او احتبس به: النقطة العسكرية)، وإنْ يلفظ اسمه العبريّ وينعتـه بالنجاسة او يرتعب لأذاه وهوله فيأمر باتقائه بأصرم الحيطة والتطهير، تدرك انه هو هو الى الساعة بشكله واطواره، غير انه زاد ذيوعاً وضرراً بنسبة طغيان فساد الاخلاق ونقص العفاف اي الزواج. واذا نظرنا الى شرّه في عصرنا ظننّا ان دعوة داود[1] على اعدائه (سفر الملوك الثاني) قد حلّت على شبيبة عصرنا.

وقارئ يتّبع هذا البحث يمرّ على امراض عديدة نقتصر في هذا المقال على بيان بعضها:

التيفوس

وباء شديد الحمّى هائل العدوى والفتك قد رافق في كل أدوار التاريخ، الحروب والمجاعات على الاطلاق؛ فهو ابداً ربيبها وأليفها حتى انه يعرَف بها: وشهداء اللبنانيين بعشرات الالوف بأثنـاء الحرب الاخيرة عليه شهود. وفي بحثٍ لجمعية الاطباء والصيادلة قـد أتينا على عشرين نصّاً من «الكتاب» تنادي بأن الوباء في تلك المجاعات والحروب وبتلك الاشكال وبذلك الفتـك (كما يتبيَّن ايضاً من اسمه العبري المرازي في لغتنا: الدَبْر لجماعة الزنابير والدبار اي وفرة الهلاك) انما هو التيفوس. فقد جاء في سفر تثنية الاشتراع: «يهلكون (الكلام عن الاسرائيليين الذين اغضبوا الله بمعاصيهم) وتفترسهم حمّى ملهبة ووباء مرّ». وفي يشوع بن سيراخ: «النار والبرد والجوع والوباء كل هذه خُلقت للانتقام». وفي ارميا وباروخ وحزقيال وغيرهم من الانبيـاء تتكرَّر وتتعدَّد الآيات من نحو الآتية: «وقال لي الربُّ: لا تصلِّ من اجل هـذا الشعب للخير... بـل افنيهم بالسيف والجوع والوباء»؛ «وأرسل فيهم السيف والجوع والوباء حتى يفنوا من الارض التي أعطيتهـا لهم ولآبائهم»؛

[1] «ولا ينقطع من بيت يوآب ذو سيـلٍ وأبرص ومتوكئ على عكاز وساقط بالسيف ومعوز الى الخبز»

« هكذا قال السيد الرب وبالاحرى اذا ارسلتُ اربعة احكامي الشديدة السيف والجوع والوحش الضاري والوباء على اورشليم». ونقرأ في انجيل متى : « ستقوم أمةٌ على أمةٍ ومملكة على مملكة وتكون أوبئة ومجاعات وزلازل في اماكن شتى. »

على العيان او على الشهادة والقرينة يبني القاضي حكمه ، وهكذا يفعل الطبيب او المؤرخ وكل حاكم في امر . ان الحروب والمجاعات وسائر القرائن مكّنتنا ان نميز ما ذُكر اعلاه من الاوباء . ونجهر انه التيفوس (typhus) ، لا ما حصر الاطباء به حديثاً لفظة طاعون (peste bubonique) التي كانت تطلق على كل وباء هائل فتاك . وكم كان يستحيل هذا التمييز قبل علم الجراثيم ! والتيفوس مجهول الميكروب حتى الآن . واما الثاني ، وسببه جرثوم من الشكل المستطيل الى الكرويّة ، فلا صلة له مباشرة بالحروب والمجاعات بل بالجرذان التي تنقل ببراغيثها الجرثوم من عليل الى سليم كما ينقل القمل الداء السابق في مقام البرغوث هنا، او البعوض جرثوم البرداء. ويُشخَّص الطاعون صريحاً بالنصوص الآتية من سفر الملوك الاول : « وثقلت يد الرب على الاشدوديين فدمّرهم وضربهم بالبواسير في اشدود وتخومها وهاجت القرى والصحارى في وسط ارضهم وتولّدت «الفئران» ، وحدث أضطراب موت شديد في المدينة». البواسير للتعذيب لا تُميت ، اما الطاعون فللإهلاك الجارف. وكأنه أُوحي الى الاشدوديين فادركوا علّة ذلك . وعليه لمّا هبّوا الى التكفير عن خطيآتهم (اغتصاب تابوت الرب) قدّموا قرباناً مؤلفاً من خمسة « فئران » من ذهب

ضربة الشمس

وعوبيُّها: الرَّعن وهو يحصل كثيراً في بلادنا اذا لفح الحرُّ واصابت الشمس الرأس[1] فينتج عنه صداع واغماء وحمّى والموت عينه .

---

١) لأحد العلماء اختبار اوضح ان كلباً معرَّضاً لاشعة الشمس يسلم اذا ظلَّ رأسه في الظل . وبعكسه اذا ظُلِّل جسمه وسُلِّطت الشمس على رأسه.

. وامامنا على ذلك لا شاهدان عادلان فقط بل ثلاثة لثلاثة من الاسفار المقدّسة :« وبعدما نشأ الصبيُّ خرج ذات يوم الى ابيه عند الحصّادين (زمن وقدة الحرّ) . فقال لابيه : رأسي رأسي . فقال للغلام خذه الى أمه فحمله وسار به فبقي على ركبتيها حتى الظهر ومات . »

« وكان منسّى (بعل يهوديت) قد مات في ايام حصاد الشعير فصخد الحرُّ رأسه فمات . »

« فلما اشرقت الشمس أعدَّ الله ريحاً شرقيَّة حارَّة فضربت الشمس على رأس يونان فغُشي عليه . . . »

البُرداء

وتسمّيها العامّة بالطليانية : ملاريا . وهي اكبر آفات أقاليمنا بل البشرية على الاطلاق .

في ضربات مصر (سفر الخروج) وبغير مكان ، ذُكر نُشُر البعوض كأداة عقاب من الله . ويستبعَد ان العقاب كان بإزعاج البعوض بلدغه فقط او طنينه بل بما يجيء به من عِلَل ، شرُّها البرداء . ومن الثابت ان لا بعوض الا حيث يأسن الماء . وان لا انتقال لجرثوم البرداء الا بلسع البعوض . وبقوّة نورد ما تقدّم تميّز البرداء في ما يأتي :

« فقال أهل المدينة لاليشاع : ان موقع المدينة (مدينة اريحا) وهي قائمة في وسط على أتمّ الملائمة لاستنقاع الماء ، اي منبسط من الارض يمرّ فيه فرع من الاردن) حسنٌ كما يرى سيدي ، الا ان ماءها رديء والارض مجدبة . فسار اليشاع الى منبع الماء . وطرح فيه ملحاً وقال هكذا قال الرب : اني قد شفيتُ هذه المياه فلا يكون فيها ايضاً موت ولا جدبٌ فشُفيت المياه » . ما الماء القتّال للناس والنبات — والماء عنصر الحياة والخصب الأوليّ — الا الماء الساكن؛ فهو على السواء ، يهلك ببعوضه الانسان وبرطوبته جذور النبات . وبمصر اهميةُ « المصارف » لا تقلُّ عن اهمية القنوات الآتية بمياه السقي . فيتبين ان الاعجوبة حصلت بتسييل الماء ، وجعله جارياً (الملوك الثاني) . ثم نقرأ باشعيا النبي (١٤ :

٢٣) : « اني اقوم عليهم كما يقول رب الجنود واستأصل من بابل الاسم والبقية والذرية والعقب واجعلها ميراثاً للقنافذ ومستنقعات للمياه واكسحها بمكنسة الخراب » ؛ « اما مستنقعاته (البحر الميت) فلا تصحّ بل تترك للملح » (وهي ناشئة عن نهر الاردن ؛ وثمّت منها العدد العديد والاذى المديد مما كتبنا عنه طويلاً في « علم الصحة » وبيّنّا تعليله .)

واي « مكنسة للخراب » افعل من البرداء ! وهل من محنات افظع من مستنقعات في محالّ حارّة كجوار البحر الميت ، وهو يسفل البحر ٤٠٠ متراً .

ولنا من تاريخ رومة واليونان ، وعندنا من مشاهدات بلادنا الآن ما يفهمنا كيف ان وبال بعض المياه فتك بالسكان حتى الانقراض ، خاصةً بقرب البحار .

البرَص

لا نطيل فيه الكلام في هذه اللمحة مع انه ليس مرض شغل في « الكتاب » مكاناً مثله فخصصناه في درسنا الفرنسي بعدّة بيانات تجدها هناك ؛ وقد اضربنا عنه وعنها في هذا المقال ، لانه بعد ان روّع البشرية ، اي روع ، حتى القرون الوسطى ، زال الآن او كاد تاركاً الايذاء لسواه .

الجرَب

في سفر اللاويين ، وفي تثنية الاشتراع ، ذكرٌ لهذا الداء بعينه . ولا نعجب لتحذير الكتاب منه لانه يُعدي كثيراً ويزعج طويلاً ويذيع مديداً ، حيث الزحام والاهمال . وفي القرن الماضي عُرف سببه (حُيَيوين) وعلاجه (الكبريت) . ومن يجهل ان اهمّ أعراضه حكاك يثور في الليل ويبدل راحة النوم بعذاب ؛ ويتأتى عنه بثور وخراريج ؟

ولدن تقصّي سفر ايوب اذا بنا امام بيّنات جعلتنا نعتقد ان مرض بطل الاوجاع كان من هذا البلاء . وعلماء كثيرون الآن وافقونا على هذا الرأي ونشروه في الصحف .

أجل ، أجرَبَ كان ايوب ؛ ومن فمه نحكم عليه : « فاخذ له خزفة

ليحتكُّ بها » ؛ « في الليل تنخر عظامي » ؛ « علّتي لا تنام » ؛ « وليالي مشقّة قُدِّرت لي » ؛ « يتقلّص جلدي ويسيح »

وقد ذهب كثيرون ، ومنهم الآباء اليسوعيون في طبعتهم العربية المشهورة ، بان علّة ايوب كانت « داء الفيل » ، وهو مرض يغلب حدوثه في الرجلَين فتصبحان بضخامة « ساقَي الفيل » . والحال ان هذا التاعس شكا المزال : « جلدي لصق بعظامي » .

غريب فظيع امر هذا المسكين ايوب : فما كفاه ما حلَّ به من المصائب في حياته حتى قام بعضهم بعد اربعة آلاف سنة يتهمونه بالزُّهري مع علمهم انه داء الفاسقين الزناة ؛ وهو الرجل الذي يلقبه تعالى بالكامل ، المنادي ببراءته من كل انحراف ودنس ، القائل : « ان كان قلبي قد هام بامرأة او كمنتُ على باب قريبي ، فلتطحن امرأتي لآخر وليقع عليها آخرون » . يقولون بذلك متجاهلين ان هذا الداء ، بعكس « السيلان » ، لم نعثر له على اثر في « الكتاب » . ولعله جاء من اميركة بعد كشفها : فسمّي بعد ان اتى به البحّارون اذ ذاك : مرض نابولي ، وعندنا لقّبوه بالافرنجي ... !

ولما تعذّر هنا البحث في كل ما ورد في الاسفار من الامراض ، وبينها المهمّ حتى في ايامنا كالصرع والعمى ونزف الدم والجنون ولم تكن مهمّتنا « للمشرق » العزيز سوى موجز ، فانا نقتصر على ثلاثة امراض نستشهد عليها العهد الجديد وحده

التهاب دودة الظهر

معروف الآن باسم عالمَين « Heine-Médin » بحثا فيه مأئيا من مدّة قرن . لكنه قديم العهد كما سيتبين من الآي الآتية . وهو داء وبائي خامر يبدأ بحمى ثم يسبّب عادة شلَل الاعضاء . وفي السنين الحديثة عاد وطغا : ففي عام ١٩١٦ أُصيب به في نيويرك وحدها ١٣٠٠٠ وفي رومانية ١٥٧٦ ، ويغلب حدوثه في الطفولية . وفي التفتيش عنه في « الكتاب » تُصادف : « فقدّموا له مخلّعاً مُلقى على

سريره» (انجيل متى) ؛ «وكان رجل اعرج[1] من بطن امه يُحمل وكان يوضع كل يوم عند باب الهيكل ليسأل صدقة... فقال له بطرس : باسم يسوع الناصري قم وامشِ.» ؛ ثم نقرأ ايضاً في سفر أعمال الرسل نفسه : «فصادف بطرس في لُدّة رجلاً اسمه ايناس مضطجعاً على فراش منذ ثماني سنين وهو مخلَّع.» وفي مكان آخر : «وكان مُقيماً بلسترة ، رجلٌ عاجز الرجلين مُقعَدٌ من جوف أمه لم يمشِ قط».

الروماتيزم الحادّ

داء من ضربات البشرية الاشدّ إيلاماً والاكثر شيوعاً والاعظم اذى لانه يخلف العلل القلبية الهائلة. وقد ظلّ بلا علاج الى عصرنا حيث سُلّط عليه بنجاح باهر الدواء المعروف بساليسيلات السود.

وجعه لا يُطاق ، فأدنى حركة كأنها ضربة مِدية ؛ لذلك اتفق ان دُعينا مراراً لاناس قيل انهم مصابون بالشلل. ولم يكن قطّ شلل بل ألمٌ يشلّ. والمشلول حقيقة ، لسكتة دماغية، لا يحسّ بألم بل قد لا يشعر قطعياً. والروماتيزم يغلب حصوله للاحداث (على عكس الشلل الدماغي وهو داء الشيوخ) ومن الذكور بالاخصّ.

وبعد هذا التمهيد ليتصفّح القارئ فقرةً من متى الانجيلي هاك نصها : «ولما دخل كفرناحوم دنا اليه قائد مئة وسأله قائلاً : «يا ربّ ان فتـايَ ملقى في البيت مضروباً بالشلل مُعذَّباً بعذاب شديد.» وانه هنا بكلمات قليلة لنا مدلولات كبيرة تمكننا من تشخيص علّة مضى عليها ١٩٠٠ سنة ، وهي الروماتيزم الحادّ. وبمثل هذا الايجاز بل بأوجز يتضح كنه داء آخر من شرّ أدوائنا وهو :

الزُحار

وعامّتنا تسميه التمنّي ، او بالطليانية دوسنطاريا ، وهو ايضاً بقي الى

١) في القسم الثالث من هذا الدرس تعليق على كلمة «اعرج»

امن يشبع ويُهلك ولا علاج له . وبفضل علم الجراثيم قُسم الى نوعين : نوع قليل الحمّى او معدومها كثير الانتكاس طويل المدّة ينتج عنه خراج الكبد ويغلب وجوده في الشرق ؛ وقد اصبح شفاؤهُ ميسورًا بعلاجات فعّالة منها الامتين والياترن وخمر السياروبا وبه صحّ الكثيرون ، وعلّته جرثوم من صنف يفترق كثيرًا عن الثاني في عالم المتناهيات صغرًا . والنوع الثاني من الزحار تصحبه حمى قوية ، ومظاهره حادّة سريعة ، وهو في الاصل اوربي بعكس السابق . ولا يكون عنه إزمان ولا خراريج الكبد ولا يُداوي الا بالمصل الخاصّ به.

اما وقد فقهتَ ما تقدم فانك تحكم حالًا وبعد ١٩٠٠ سنة ايضًا بان « ابا بوبليوس وقد اخذته الحمى والزحار فزاره بولس ووضع يديه عليه فبرئ » كان مصابًا بدوسنطاريا من النوع الثاني (اعمال الرسل ٢٨ : ٨). وقد جرى هذا الحادث في جزيرة مالطة . ولذلك لم نستغرب ما شاهدناه هناك من تكريم الرسول العظيم .

شتى

ولا ريب ان مطالع «الكتاب» يصادف فيه أُمورًا عديدة وكنوزًا ثمينة ، ليس دينية وفلسفية او طبية فقط بل تأريخية واجتماعية حتى لُغوية . من ذلك الكثير : انه اشار غير مرة[1] في العهد القديم الى ما يشار به الآن كثيرًا وهو استخدام اليد اليسرى كاليمنى لتصبح مثلها مُجيدةً للشغل بفضل التمرين والممارسة . ومن الفوائد اللغوية نذكر شيئًا على سبيل المثل :

انك تلاقي مرارًا في الاسفار عبارة كهذه : « ارض تدرّ لبنًا وعسلًا » وبالعبريّة ،وقد تُرجم بالافرنسية (*miel*) وبالعربية عسل ،انما جاء في الاصل هكذا : « دباش » . ولبراهين تُعدُّ بالعشرات ولا تُردُّ ، لا ندحة عن ترجمة هذه اللفظة بكلمة : دبس ، كما بيّنّاه مطوّلًا في تعليقنا على النصوص الاصلية وفاز بموافقة رجال علم الاصول (*philologic*) .

---

١) سفر القضاة ٢٠ : ١٦ ، وسفر الاخبار الاول ١٢ : ٢

ولا حاجة بنا الى القول بان الدبس غذاء ثمين بل يجمع المفيد الى اللذيذ وطالما كان له شأنه العظيم في بلادنا . وفي الحرب قام مقام السكّر المعدوم وقتئذٍ . والسكر من افضل الاقوات . وبذلك تفهم اهمية الثمار السكرية كالعنب والتين في التوراة .

وفي الترجمات العربية كما بالافرنسية استُخدمت لفظة اعرج لما يراد به حقيقةً : مشلول مُخلَّع او كسيح ، ذلك لتقيُّدهم بحرف العبارة الاصلية ، عنيت اليونانية . تأمل انهم يعبّرون عن رجل عاجز عن الحركة والانتقال على الاطلاق « الا اذا حمله اربعة على سرير » بلفظة : اعرج (اعمال الرسل) . وكذلك قد كُتب في انجيل متى : « العميان يبصرون والعرج يمشون »

ومما يستوجب الاصلاح في طبعة الاميركان وطبعة اليسوعيين (الاحبار ٢١ : ٢٠) إتيانهم بالنص على الصورة الآتية : « من كان به عيب فلا يتقدَّم ليقرّب خبز الهه اي . . . الاجرب والاحصف ومرضوض الخصى » بالجمع ؛ مع ان للانسان خصيتين فقط .

ويستوقف النظر ان موسى يسمّي الداء الفظيع ، صايب الشبان ، من لفظ بالعبرية يفيد كما سُمّي بالعربية « الذوبان » اي السيلان . وقد تقدم الكلام عن لفظته وان اصلها مشترك في اللغتين الساميتين العظيمتين . وقد استعمل داود في مزاميره (٣١ : ١٠) لعلّة اعترت عينيه في بؤسه وحزنه كلمة من اصل واحد مع العربية : عشت ، يعني ساء بصره ليلاً ونهاراً ، ومنها الاعشى وعشية وعليه نفضّلها على الترجمة : ذبلت او خسفت عيني .

جعل الله أن ما في « الكتاب » من حكمة وفوائد ، حتى صحّية وطبية ، يزيدنا حباً لاسفاره ، وإجلالاً لآياته ، وانقياداً لنيل تعاليمه !

مغارة الراهب والعين الزرقاء

زيارة حديثة

للاب توتل اليسوعي

الى مغارة الراهب، وقد تسميها العامة مغارة مار مارون، والى العين الزرقاء، وهي نبع العاصي، وجّهنا رحلتنا الصيفية، هذا العام. سرنا ونحن قسمان: قسم مرَّ بالديمان فتبارك بلثم يدي غبطة البطريرك الماروني، ثم نام في غابة الارز وقطع المكمل مشياً وبات في القرنة السوداء وانحدر من لبنان على سفحه الشرقي. وقسمٌ قطع المسافة بين بيروت ومحطة الرحلة، عن طريق بعلبك والراس. وفي مساء يوم الجمعة ٧ تموز تلاقينا اجمعين عند نبع العاصي فضربنا هناك خيامنا وثنا. وقد تمكنا من زيارة المغارة المشهورة، ومن اخذ الرسوم في تلك الربوع، وبعضها ننشره في «المشرق» مع الكلام عليه.

اول من كتب على البلاد التي نحن في صددها ابو الفداء. وعليه عوَّل روّاد الافرنج في البحث عن نبع العاصي. جاء في تقويم البلدان (طبعة باريس ١٨٤٠، ص ٤٩)

«نهر حماة ويسمى نهر الارنط والنهر المقلوب، لجريه من الجنوب الى الشمال، ويسمى العاصي لان غالب الانهر تسقي الاراضي بغير دواليب ولا نواعير بل بانفسها تركب البلاد، ونهر حماة لا يسقي الا بنواعير تنزع منه الماء، وهو يجري بكليته من الجنوب الى الشمال، واوله نهر صغير من ضيعة قريبة من بعلبك، تسمى الراس في الشمال عن بعلبك على نحو مرحلة عنها، ويسير من

الراس شمالًا حتى يصل الى مكان يقال له قائم الهرمل بين جوسية والراس ويمر في وادٍ هناك وينبع من هناك غالب النهر المذكور من موضع يقال له مغارة الراهب ويسير شمالًا حتى يتجاوز جوسية ويصبّ في بحيرة قدس في غربي حمص »

ومن سيّاح الافرنج الذين زاروا النبع والمغارة في النصف الاول من القرن الماضي الانكليزي طومسون ، وهو مسافر من حماة الى بعلبك من ٧ الى ١٠ ايلول سنة ١٨٤٦ ، وقد روى ريتر اقواله مطولةً في جغرافيته (١٧ ص ١٥٩ وما بعد) وفيها الوصف المسهب لنبع العاصي ، والكلام على المغارة ، وعلى قائم الهرمل وضروب المذاهب في ذلك.

وممن يرجعون اليهم في معرفة تلك الاماكن الاب ميشل جوليان في كتابه على سيناء وسورية (ص ١٧٧ وما بعد) والاب لامنس في المشرق(٤ : ٢٦٤). هؤلاء كتبوا على الموضوع فاستوعبوا مادته وقد قربها الى عامة القراء الدليل الازرق الافرنسي ، فبيّن سبيل الوصول الى الهرمل ونبع العاصي ووصف البلاد الوصف المختصر المفيد الكافي . فلا زيادة على اقوالهم سوى بعض الملاحظات نضيفها الى الصور التي ننشرها.

مغارة مار مارون

فيما نحن في بلاد الهرمل ، وبالقرب من نبع العاصي ، كان سيادة المطران الياس ريشا الماروني في راس بعلبك يتأهب لزيارة مغارة مار مارون. وقد بلغنا ان غبطة البطريرك اوفد سيادته الى ذلك الموضع ليدى رأيه فيما يمكن اتخاذه من التدابير لصيانة المغارة ذكرًا للقديس اب الطائفة المارونية الكريمة.

هذا وقد اتفق المؤرخون اخيرًا على ان ليس لمار مارون علاقة بهذه المغارة. لان ديره كان شمالًا ، ما وراء حماة ، قريبًا من افامية في وادي العاصي[1]. ولكن مما لا ريب فيه ان موضع المغارة وهندامها واسمها الذي رواه ابو الفداء يؤيد القول انها كانت منسكًا للنساك .

وما ان نقابل بينها وبين ما نعرفه من الصوامع التي رأيناها في فلسطين

١) راجع القاموس اللاهوتي الكبير: مادة موارنة ، للاب دبب.

وفي سورية ، وخاصة في لبنان ، حتى نكون على بيّنة ان الكهوف الواقعة بالقرب من المياه اتخذها الاقدمون لسكناهم كمغاور نهر الكلب والفرزل ، وبعضها فيه الآثار السابقة للتاريخ ؛ ورب مغارة كانت مدافن ثم توسعت لسكنى الاحياء.

وعلى كل، فان المغارة الواقعة عند نبع العاصي كانت سكنى للرهبان . قد يميز فيها الزائر قسمين : قسماً مبنية فيه جدران حصن مشققة بمرام ، تمكن حامية الحصن من رمي الرصاص منها على المهاجين ومنعهم عن ارتياد الماء في الوادي. وهذا الحصن حديث البناء ، وقد انهارت واجهته الجنوبية ولا تزال واجهته الشمالية ظاهرة بينة كما هي في الرسم . اما المنسك ففيه بهوان كبيران ، الاول متداعي الجدران ، وهو جهة الجنوب ، والثاني في جهة الشمال وجداره قائم نحو الغرب وفيه المرامي التي ذكرناها وهو جزء من الحصن . وبين البهوين غرف متصلة يأتيها النور من طاقات مفتوحة على الغرب. وقد يبين احد الرسوم داخل المكان والبابين ؛ منهما يُرقى بسلّمين الى داخل الغرف . ومن هذا المكان كانوا يصعدون الى الطابق الاعلى وفيه الصوامع . وعند الواجهة الغربية للمغارة ثلاث كوى ربما استعملوها للصلاة على نسق الثلاثة الابواب المعروفة في الكنائس البزنطية (الايكونوستاز). وقد ذكر الاب لامنس منزر النساك وقابل بينها وبين المغارة التي وصفناها فقال :

« ومغارة الراهب تفوق مغاور عدلون والفرزل بمحاسنها . وكانت في الاصل طبيعية سكنتها ، كما يظهر ، قبائل عادية في الاعصار السابقة التاريخ ولعل هذه القبائل فضلتها على سواها لحسن موقعها قرب نهر كبير . الا ان الخلف حسنوا عمل الطبيعة واضافوا اليه منتديات نقروها في الصخر على احسن هندام مع قبة ذات حنية مقوّسة ودرج داخلي يصعد منه الى الطبقات العليا وبئر عميقة الغور تبلغ الى مياه النهر. وكل ذلك منحوت في الصخر الاصم .»

العين الزرقاء

هي في قعر الوادي على مسافة دقائق من المغارة . ماؤها زلال بارد يخرج من الشرق ، وقد ذكر بعضهم انه يأتي لا من الجبل ولكن من سهل البقاع.

ومنه يكوّن الجزء الاوفر من مياه النهر العاصي ولذلك يسمونه نبع العاصي ·
وقد قدّر الاب جوليان كمّية المياه التي تخرج من ذلك النبع مئتي متر مكعّب
بالدقيقة· وليس في نواحي راس بعلبك والمحطة الحديدية ما يُنبئ بوجود هذه
العين الفتانة · فالحقول في جوارها جرداء والسهول قاحلة · وهي تجري في
القاع متجهة شمالاً نحو الهرمل ، فلا يكشف عليها المسافر الا عند انحداره على
سفوح الجوف الذي يمرّ فيه العاصي ويفرق بين جبل لبنان وبلاد بعلبك ·

قائم الهرمل

هو نصب اسهب رينر في وصفه ، وعزاه بعضهم الى ملوك بابل · ولكن
حقيقته انه من العهد اليوناني الروماني ، فيما قبل المسيح بقرنين · وقد يهتدي به
المسافر لمعرفة طريقه وهو ظاهر من بعيد ، مكوّن من مربع مبني بالحجارة
المنحوتة ، مساحة واجهته تسعة امتار ، ويعلوه مربع آخر دونه حجماً ، وهو
متوّج بهرم مرتفع القمة ١٧ متراً فوق سطح الارض ·

اما المربّع الاول فعليه نقوش وتداوير في كل جهة من جهاته ·والمربع
الثاني مخطط بعواميد ناتئة نتوءا خفيفاً على سطح الواجهة · والنصب كان
خراباً في احدى زواياه فرممته مصلحة الآثار اللبنانية ، واعادته الى سالف حالته·
والتصاوير المنقوشة عليه تمثل حيوانات الصيد وآلاته من رماح وقسي وكنانات
وفخاخ · وليس فيها اثر لصورة الانسان · الواجهة القبلية تمثل غزالة تهرب من
كلب يطاردها ، والواجهة الشرقية فيها صورة خنزير برّي طعنته رماح ثلاثة ،
وهاجمه كلبان · وفي الشمال غزالان احدهما منتصب على اقدامه ، والثاني باركٌ ·
اما الواجهة الغربية فعليها صورة دبّ ومعه صغيراه · وعلى التماثيل مسحة يد
لها خبرة بالفن ، ولكن ليس فيها ما يدلّ على مهارة فائقة·

هذا النصب قريب من الهرمل وقد تصل طريق السيارات بينه وبين تلك
البلدة وتسهل زيارته لمن اجتاز بلاد الراس بالسيارة · فما عليه الا ان يتوجّه
من المحطة الحديدية نحو الغرب الى حيث يظهر النصب عالياً فيبلغ اليه ببضع
دقائق·

ولا عارض يعترض المسافر وقد تأمنت البلاد بفضل الدورات العسكرية المنظمة .

سنة ١٨٤٥ تفشى في بلاد الهرمل مرض الدسنترية ، ففتك بالسكان فتكاً واباد الربع منهم . زار تلك البلاد آنذاك الرحالة طومسون واستراح في قرية الهرمل من عناء سفره وتعرف الى شيخها المتوالي ؛ ففاخر الشيخ بمياه بلاده وقال ان فيها اثنتي عشرة عيناً كل عين يدور عليها طاحون . وكان شجر الجوز يأتي باثمار وافرة وقد قطفوا من احدى غاباته في تلك الايام مئة الف جوزة ، على ما رواه طومسون ، ولكن ربما كانت تلك الغابة سبب الدسنترية التي فتكت بالسكان لانهم كانوا ينامون في ظلها ، وظل شجر الجوز سيئ مضر .

وبينما نحن في جوار الهرمل نمتع النظر بمناظر الجبال والارياف والسهول ، وقد كستها اشعة شمس الشروق بهاء ونضارة ، اذ بسيارة تقطع الطريق من الهرمل الى الراس فهي كعنوان الحياة الجديدة التي دبت في هذه المجاهل وقربتها من بلاد العمران .

لقد شاهدت السهول التي حولنا مرور الجيوش والقوّاد منذ عهد الفرعون توتمس الاول وعهد الحثيين الذين تطاحنوا في البقاع بالقرب من حمص وبحيرتها الى عهد الاسكندر والرومان والبزنطيين والعرب والافرنج والتتر والماليك والاتراك وبقايا من طغا من المتاولة الحرافشة والدنادشة . وها ان علم لبنان يخفق على تلك البلاد ويدعو ابناءها الى زيارة آثارها الجليلة . فلا تنسَ ، ايها القارئ اللبيب ، في طريقك من شمالي سورية الى جنوبيها ، عن مسير نهريها الليطاني والعاصي ، ان تختلس من وقتك سويعات تقف فيها على مفارق المياه وتحيي ذكرى الزمان الماضي في مشاهدة آثار ابائنا الرهبان الاقدمين الافاضل ، لُباس المسح الورعين المتقشفين ، وفي السلام على من مرّوا بهذه المجاهل من قواد وعظماء . فقد بات اسمهم محفوظاً في طيات صخور المغارة وعلى جوانب العين الزرقاء .

الامثال والاساطير اللبنانية

المختصة باشهر السنة الشمسية

بقلم لحد خاطر

آب

آب من لفظة كلدانية بمعنى « الثمر الناضج » ، سمي بها هذا الشهر لنضج الاثمار الصيفية فيه كالعنب والتين والاجاص والرمان والسفرجل وغيرها.

يقابل آب عند الفرنسيين «اوت» ، وعند الانكليز «اوغست» ، وقد اخذ هؤلاء هذا الاسم عن الرومانيين الذين ، عملًا بقرار مجلس شيوخهم ، اطلقوا على هذا الشهر اسم احد امبراطرتهم اغسطوس قيصر ، تكريماً له وتخليداً لذكراه.

وقد خصّوا هذا الشهر بذلك دون سواه لان اغسطوس قيصر تقلّد فيه منصب القنصلية ، اي رئاسة الحكومة الرومانية ، وكان يقيم فيه ثلاث حفلات بهيجة: الاولى تذكاراً لاستلامه امرة الجند الروماني ، والثانية تذكاراً لاخضاعه البلاد المصرية ، والثالثة تذكاراً لاخماده نار فتنة اهلية.

وكان الرومان يدعون هذا الشهر قبل تسميته هذه الجديدة سكستيليس اي السادس لانه كان سادس شهر من سنتهم المبتدئة باذار ، وكان اولاً ثلاثين يوماً فجعلوه بعد هذا الابدال واحد وثلاثين يوماً، احتراماً للاسم الذي اعطوه اياه ، ولئلا ينقص عن رديفه تموز الذي اسموه « يوليو » باسم احد امبراطرتهم يوليس قيصر وجعلوه واحد وثلاثين يوماً لمثل الغاية المشار اليها ، واخذوا اليوم المزاد على آب من شباط ، على ما مرّ بك من قبل ، فاصبح شباط في السنة الكبيسة تسعة وعشرين يوماً ، وفي السنين العادية ثمانية وعشرين كما هو الآن.

ولآب عند الميثولوجيين ، اي اصحاب الخرافات الدينية القديمة ، صورة رمزية تمثله برجل عارٍ ذي شعر مشعّث ، وفي يديه اناء صغير شبه قرن يشرب

منه ، والى جانبه ريش طاووس ووعاء كبير للماء اشارة الى مـا يقع فيه من حرّ لافح وميل شديد الى الابتراد بالماء .

. . .

وآب في لبنان شهر نضج الاثمار . واللبنانيون ، قبل ان توافرت لـديهم طرق المواصلات واخترعت السيارات التي اصبحت تأتيهم بصنوف الفواكه المبكرة فور نضجها من مواقعها الحارّة فتكتظّ بها اسواقهم ويتناولون حاجتهم منها كانوا يرقبون فواكهم الوطنية بذاهب الصبر وقد وضعوا لها عبارات مأثورة تؤذن بمواعيد ظهورها ، من ذلك ما تعلق عندهم بالعنب المعدود لديهم «ملك الفواكه» والذي يبدأ نضجه في لبنان في هذا الشهر . من تلك العبارات قولهم : « في عيد الرب (٦ آب) نقّي حبّ » اشارة الى ان العنقود ينضج منـه في اوائل هذا الشهر بعض حباته . و« في عيد السيدة (١٥ آب) صفّوا العنب عالميدة » اي على المائدة ، اشارةً الى ان العنب يكمل نضجه في هذا التاريخ فيقدم منه للآكلين على مائدة الطعام ، وربما كان ذلك اشارةً الى عادة قديمـة لا تزال مرعية عند بعضهم ، وهي انهم في هذا العيد يحملون بواكير العنب الى الكنيسة فيضعونها على مائدة فيها ليباركها الكاهن ويوزّعها هو ام يوزعونهـا هم على المؤمنين ومن ثم يباشرون جنيه لحاجاتهم المنزلية وليبعه في الاسواق . و« في ٢٠ آب ادخل الكرم ولا تستهاب » ويريدون بذلك ان العنب في هـذا التاريخ يتمّ نضجه ويأذن زمن دخول الكرم وتناول ما يراد من العنب منه بدون اي محذور .

وآب في لبنان شهر الحرّ لذلك اسموه « آب اللهّاب » . واوّله موعد انتقالهم الى المصايف ولكل ساحل من سواحـل لبنان مصايف معروفـة تناوحه في الجبال ، وقد اصبح لبنان لهذا العهد مصيفاً مأثوراً لابنـاء الاقطـار المجاورة يقصدون اليه لانتجاع العافية والتلذذ بمشاهده الخلابة ، وقـد كثرت المصايف اللبنانية لهذا العهد واهتمت بها الحكومة اهتماماً مشكوراً فاصبح الاصطياف في لبنان موسماً يدرّ على اهليه اخلاف الربح .

على انه لا تمرّ ايام من آب حتى تأخذ الشمس بالرجوع نحو خطّ الاستواء .

فيتلطف الهواء نوعاً وقد قال اللبنانيون في ذلك :« عيد التجلي (٦ آب) يقول للصيف ولّ » اي اذهب.

وفي منتصف آب تدخل الشمس برج الاسد ويقولون في ذلك :« متى دخلت الشمس برج الاسد قلّ الحرّ بعد والجوّ نسد » اي تنير واخذ يميل نحو الخريف والهواء المعتدل اللطيف.

وقد يكثر الضباب في اول هذا الشهر ، فيهشّ له المزارعون لتأثيره في انضاج فواكههم ويسمونه باصطلاحهم :« طبّاخ العنب والتين »

واذا مضى آب برد الماء والهواء في لبنان وخفّت وطأة الحرّ. وقد قال احد الشعراء في ذلك :

برد الماء وطاب الليــــلُ والتَّــذَّ الشرابُ
ومضى عنك حزيرا نُ وتموزُ وآبُ

وفي آب يواصل المزارعون دراسة حبوبهم وتذريتها وهواء آب في لبنان اوفق الاهوية لتذرية الحنطة وفصل حبها عن قشها فاذا لم يذرّ فيه الفلاح حنطته ترلاه الندم بعد حين لان الريح تشتدّ في ايلول وتصبح غير صالحة للغرض المتقدم. ويقول الفلاحون في ذلك مثلهم المشهور :« اللّي ما ذرّى في آب ، شحم قلبه ذاب »

والاجاص من اكثر الفواكه اللبنانية بعد العنب والتين واسمه العامي عندهم « النجاص » وهو نوعان سكري ومنزلي وكلاهما لذيذ شهي المذاق ، وقد قال احد الزجالين اللبنانيين القدماء في الاجاص البيتين التاليين :

يقول النجاص انا النجاص بشاقه يا مطعمي السكري يا سعد من ذاقه
روحوا لمن علته بتشد على خناقه وقولوا بـاني دوا المضنى وترياقه

ويندر في آب سقوط المطر وقد لاحظ اللبنانيون ذلك فقالوا في امثالهم بهذا المعنى :« جدّي خبرني عن جد وأب ، كل الشهور بتشتي ما عدا شهر آب »

ايلول

ايلول من لفظة « اولولو » الكلدانية ، قيل ان معناها « الشر » تدخل فيه الشمس برج الميزان. يقابله من الاشهر الافرنجية ستبمبر اي السابع ، اخذاً

عن الرومانيين ، كان الزراع القدماء يقيمون فيه الحفلات التكريمية لفولكان اله الحدادين ، ويعدّون ادواتهم الزراعية تأهباً للحراثة.

. . .

وايلول في لبنان من الاشهر اللطيفة تخفّ فيه الحرارة ويبرد الهواء والعامة تقول « يقلب الهواء » اي يتغيّر متقلّباً من حار الى بارد. ومن اقوالهم فيه: «ايلول طرفه بالشتاء مبلول» وقال احد شعرائهم :

لقد مضى القيظ وامتُنت رواحله وطابت الراحُ لما جاء ايلولُ

ويعدّ اللبنانيون في ايلول مؤونتهم للشتاء مدّخرين الحبوب على انواعها ، ويقولون في ذلك :« في ايلول دبّر المكيول ، للعدس والحمص والفول»

ومن المؤن الخاصة التي يعنى بها اللبنانيون ويهيئونها للشتاء « القورما » وهي لحم يقلونه من اغنام يعلفونها طيلة الصيف لهذه الغاية ، و«الكشك» وهو دقيق يتخذ من منقوع اللبن والبرغل بعد اختماره ، والتين المطبوخ بالسكر المطيّب بقلوب الجوز واللوز والسمسم. هذا عدا ما يحفظون من الجبن والقريشة واللبن (الشديد او المقطوع) ينقعونه بالزيت أكرًا كل منها بحجم الجوزة ، والعسل ومربيات السفرجل والاجاص.

ومن تلك المؤن البيض والزبيب والدبس والمخللات بانواعها. وبعض هذه المؤن لا يهتمون بحفظه قبل ايلول مخافة ان تفسده شدة الحر وتبلوه بالعفن.

ومن امثالهم عن التموّن في ايلول قولهم :« في ايلول تموّن لعيالك واخلي الهم عن بالك» ويقولون ايضاً : « تمون في الصيف كل ما يقول لك الشتاء هاته » ، و«حجار الصيف تنفع للشتاء.»

وقد كان جدودنا يعلقون كثيرًا من الاهمية على اعداد المؤونة للشتاء ، لان المواصلات في ايامهم كانت مستصعبة والطرق غير امينة ، فكان احدهم اذا احتاج الى شيء في فصل الامطار وجد مشقة عظيمة في الحصول عليه ، لذلك كانوا يطرئون في اغانيهم كل من تجاسر على السفر منفردًا حتى الى دمشق وينعتونه بالبطولة :

جوزك يا مليحة راح على الشام وحده

جوزك يا مليحة بو زيد الهلالي

وفي ايلول ينضج الزيتون لكنهم لا يقطفون منه الا ما ارادوا اعداده « اخضر » لمؤونة الشتاء ويسمونه ايضاً « المسَبَّح » من تسبيحه في الماء ، او ما شاؤوا استخراج زيته لحاجتهم الوقتية ويدعونه :« الزيت الايلولي » ويفهمون به الزيت الذي يستعمل موقتاً ولا يصلح للادخار مؤونةً .

وفيه يتمّ نضج العنب في الغالب ويباشر صنعه زبيباً او دبساً او نبيذاً او عرقاً .

ومن عنبهم نوع يعرف « بالصبّاغي » اسود اللون يستوحشون لمنظره ويتخذون نضجه واسوداد عناقيده نذيراً بزوال الصيف ، زمن الرخاء والسعة ، الصيف الذي يقولون عنه :« بساطه واسع ، ولو كانت له امّ كانت تبكي عليه »، ومؤذناً بقرب مجيء الشتاء زمن العناء والضيق ، ويقولون في ذلك : « قمي الجدي ولا سواد العنقود » ومعناه ان شباط الذي نسمع فيه ثغاء الجداء المبشّر بقرب الربيع فالصيف هو خير من ايلول الذي ينذر اسوداد عنبه بحلول الخريف فالشتاء زمن الزمهرير والامطار وانحباس الناس في المنازل انحباساً تنقبض له صدورهم وتستوحش انفسهم .

وفي ١٤ ايلول يقع عيد الصليب ولهذا العيد المبارك عند اللبنانيين احترام بليغ ، وفي مسائه اعتادوا اقامة الزين والتنويرات ورشق الاسهم النارية في الفضاء ،وهذه العادة قديمة يعيدها بعضهم الى عهد الملك هرقل ،وآخرون الى عهد القديسة هيلانة والدة قسطنطين ، وله ايضاً عندهم ادلة على ما يقع في عامهم المقبل من صحو ومطر ورخص وغلاء . والذين يعتقدون ذلك يلاحظون يوم وقوعه من الاسبوع وتبدّل الطقس فيه ومنهم من يرقب النجوم في مسائه ، وللملاحظاتهم تلك حسابات يحسبونها واستنتاجات يستنتجونها .

ومن اخصّ اعتقاداتهم تلك ما يسمونه البواحير او الصليبيات ، وهي الايام الاثني عشر التي تبدأ من عيد الصليب ، ويستدلّ من كل منها على حالة الهواء في كل شهر من اشهر السنة القابلة ، على ان يحسب يوم العيد لشهره اي لايلول ، وهذه الايام تعرف عند العرب بالقاقم . وقد عرفت بين اللبنانيين من

يجيد استخدام هذه الطريقة بحسبان عدة ساعات لكل يوم فيكادون يعينون ايام المطر والصحو من السنة القابلة تعييناً قلّما يخطئون فيه .

ولهم في الاستدلال على حالة الجوّ في السنة المقبلة طريقة اخرى يستعملونها مساء عيد الصليب وهي : يأخذون عشية العيد اثنتي عشرة ورقة تين او توت ويشدّونها الى قضيب ينيطونه بجدار معرضاً لسقوط الندى ويخصون كل ورقة بشهر ابتداء من ايلول ثم يبكرون في الغداة لتفحصها فما كان منها جافّاً كان شهره جافّاً ، وما كان طريّاً رطباً كان شهره كذلك .

وكثيرًا ما يتجهّم الجوّ بعد عيد الصليب في اواخر ايلول وتتساقط الامطار ويقرس البرد لذلك يقولون :« بعد عيد الصليب الدنيا بتعيب » اي تصير عائبة اشبه بايام الشتاء في اصفرارها وتعكّرها ، ويقولون ايضاً :« متى صَلّبت غَربت » اي صارت شمس صيفها على وشك الغروب .

وبعد عيد الصليب تكون الغلال قد جمعت من الاملاك ، فتزول هيبتها وحرمتها ويتركها الناطور ، ويدخل اليها الرعاة بماشيتهم ويعيث فيها الحطابون ويقولون في ذلك :« بعد عيد الصليب كل اخضر بيسيب » اي يهمل .

ولعلّ ذلك الاهمال كان سبباً لخراب الغابات اللبنانية وقد احسنت الحكومة الحاضرة بما وضعته من القوانين الصارمة لحماية الاملاك والغابات والاشجار وحقّ لها الشكر ، وعلى الاهلين ان يساعدوها في ذلك وان يقبلوا على تحريج الاراضي الجرداء اغتناماً لما ينجم عنها لهم ولبلادهم من المنافع العميمة .

وتطول في بعض السنين ايام الصحو بعد عيد الصليب ويرتفع الحرّ فيظن الناس انفسهم في صيف جديد وقد قالوا في ذلك :« بعد عيد الصليب الآخراني ، صيف ثاني » اي بعد عيد الصليب على الحساب الشرقي . وقالوا :« ما لك صيفية ، الا بعد الصليبة . »

وفي ٢١ ايلول يتساوى الليل والنهار ويبدأ من ثم فصل الخريف ، وهو المسمى زمن الاعتدال الخريفي ، او الفصل الذي ينتقل منه تدريجاً من الصيف الى الشتاء . ويقول اللبنانيون في ذلك :« صلّب واعبر » اي بعد عيد الصليب اترك الصيف واستعد لاستقبال الشتاء .

الرهبانية واعمال الرسالة

بقلم الاب انطونيوس شبلي اللبناني
رئيس انطوش جبيل

طلعت الرهبانية اللبنانية في سماء الطائفة المارونية لا بل في الديار الشرقية كالنجوم اللامعة في ليلة صافية الأديم، تنبث من جدران اديارها انوار الفضيلة والتقى وتفوح من حياة ابنائها رائحة المسيح الطيّبة فتعشّقتهم القلوب وتحالفت على حبهم. وبدأ نطاق هذه الرهبانية يتسع تدريجاً «وتنمو كالشجر المغروس على مجاري المياه الذي يؤتي ثمره في اوانه وورقه لا يذبُل» (مز ١:٣) وامتدّ سلطانها الروحي في لبنان، فارتفعت على رؤوس الجبال وفي خفضات الاودية اديارها ومحابسها ومعابدها كالمنائر العالية ترمي اشعّتها حتى الى الامكنة البعيدة. وتصاعدت اصوات نواقيسها من على قمم التلال ومن فجاج الاودية يحملها نسيم الهواء مذكّرًا الناس بفرض العبادة والصلاة، فأقبل المؤمنون على كنائسها يقضون فيها واجباتهم الدينية وقد راقهم جمال وجلال حفلاتها الخاشعة فصلّوا واعترفوا وتناولوا القربان الاقدس وشهدوا قداديس متتالية على مذابحها ولا يزالون. وطالما سمعوا كلمة الله من فم كهنتها الرهبان فعادوا الى بيوتهم بقلوب ملأى بعواطف الايمان، حاملين اميالهم تذكارات العبادة اللذيذة وامثلة الرهبان التقويّة. فكان الشعب يجلّهم ويحترمهم ويقصد كنائسهم من مسافة يومين وثلاثة لوفاء فرضه لربه[1].

وبما ان غاية الرهبانية لم تُحصر في دائرة الزهد والنسك فحسبُ، بل

---

١) تاريخ الرهبانية، ج ١ : ص ١٢٦ وما يليها

اوجبت القوانين على الرهبان الرسالة احياناً عندما تدعو الحاجة الى ذلك . كان البطاركة والاساقفة ينتدبونهم في كل عصر لهذه المهنة الشريفة فمارسوها في حلب ومصر واللاذقية والشام وقبرص وصيدا وعكا وفي قرى لبنان ومدنه . وحيثما حلّت قدمهم يؤسسون الاخويات والجمعيات ويشركون المؤمنين بشركة الحبل بلا دنس والوردية وثوب السيدة ، لا يوهنهم عياء في التعليم والارشاد ، ويغسلون الصدور من الضغائن والاحقاد باذرين مواضعها بذور الحبّ المسيحي ، قاطعين دابر النزاع والخصام معيدين مياه السلام الى مجاريها مغترين الشعب بافعالهم واقوالهم .

واذا راجعنا تاريخ الرهبانية من عهد نشأتها رأينا ان الاب يمين الاهدني ورفيقيه قبلوا في شركة الوردية الفاً ومئتي شخص في قاطع بكفيا ، ١٠ خلا بيت شباب ، في مدة خمسة عشر يوماً . وفي اقامة الاب عبدالله قراعلي في ديرنا رشميا كان يعظ في كنيسة القرية القريبة منه فيتوافد الناس على سماعه للتأثير الناتج عن كلامه ومن طهارة سيرته[1] . ولمّا صار اسقفاً انتدبه البطريرك يعقوب عوّاد لفضّ دعوى كنيسة الموارنة في الشام ، فارجعها اليهم بسعيه وحذقه . ودعا رئيس عام الرهبان اللبنانيين القس جبرائيل فرحات الى دمشق[2] ، فاقام فيها يخدم موارنتها الخدمة الروحية . وكان يعظ في ايام الاحاد والاعياد وفي كل يوم جمعة من الصيام الكبير فيزدحم الناس من جميع الطوائف في كنيسة الموارنة لسماع كلام الخطيب الذي طالما افتخرت به اعوادُ المنابر[3] ولا يخرجون الا وهم سكارى بخمرة بيانه التي أدارها عليهم بخطبه الجامعة الى قوّة المعاني الروحية بلاغة الفصاحة العربية . وهو اول من وعظ عن آلام المسيح في كل يوم جمعة من الصوم عند المساء ، واول من انشأ في مدينة دمشق شركة الوردية وثوب السيدة ، بحسب الاذن المعطى له من رومة[4] . واذاع هذه العبادة للسيدة

---

١) التاريخ المذكور ص ١٤٠ ، وترجمة قراعلي للاب البودي (المشرق ١٩٠٧)

٢) دخل دمشق في ٣ شباط ١٧١٩

٣) للاب فرحات كتاب في صناعة الوعظ يسمى « فصل الخطاب » ، الطبعة الاخيرة لسعيد الشرتوني سنة ١٨٩٦

٤) انعم عليه الكرسي الروماني بلقب « مرسل رسولي »

العذراء في كل الطوائف الكاثوليكية . وكأنَّ ابليس غاظه ما ينجم من الفوائد الروحية للمسيحيين بواسطة هذا الاب فحرَّك بعض الحسّاد والمتعنتين فوشوا به وشنّعوا عنه كذباً وافتراء انه يقبل بدلًا من المؤمنين الآخذين بهذه العبادات . ولكنه لم يحفل بهم بل ظلَّ ماضياً في خطته بالوعظ والتعليم الروحي وسماع الاعتراف ، وقد عنائهم بكلام الشاعر القائل :

اني لأرحمُ حاسديَّ لحرّ ما ضمَّت صدورهمُ من الاوغار
نظروا صنيع الله بي فعيونهم في جنَّةٍ وقلوبهم في نار

انتشر صيته في دمشق بالفضل والعلم واستقرَّ في الاذهان ذكره واحلّه اهلها المنزلة العليا من قلوبهم فقابل اكرامهم بالثناء عليهم وبوصف محاسن مدينتهم بشعرٍ ضمَّنه الطف الشعور واظرف المعاني . وهذا مطلع قصيدته :

حيِّ الديار ديار جلّقَ واسترد فيها المنى من سفح ذاك الوادي[1]

وقدم اليه بعض الطلّاب فألقى عليهم دروساً في صرف لغة العرب ونحوها[2].

وكأنَّ مناظر جنّات دمشق ورياضها وغياضها الرائعة نالت من قلبه فاندفع يصفها ايضاً بأرق الشعر معرِّضاً ومقرّعاً بكلام آلم من السوط بعض الحسّاد والمبتدعين المستقلين سكنه فيها يعلّم ويعظ المسيحيين[3] . وبعد ان اتمَّ مهمته فيها برحها في اول آب ١٧١٩ عائدًا الى ديره ورهبانه . وممن خدموا موارنة دمشق من الرهبان الاب بيمين الاهدني ، والاب مكسيموس رايد من حلب ، فغار على خدمة المطعونين غيرةً عظمى فاحبه اهلها واجلّوه وبقي ذكره حيًّا عندهم طويلًا لاجلها .

ومن اراد الوقوف على المحلّات التي مارست فيها الرهبانية الرسالة وما نجم عنها من الخير والصلاح عليه بالمجلّد الاول من تاريخها لحضرة جامعه الاب لويس بليبل .

---

١) اطلب الديوان ص ١٥٩

٢) راجع تاريخ حادثة استرجاع كنيسة دمشق المارونية للاب فرحات وما كان من امره هناك (المجلة السورية لصاحبها الخوري بولس قرألي ، السنة الاولى والثانية منها صفحة ١٦–٢١ و ٩٩–١٠٣)

٣) الديوان ص ١٧٨ و١٦٦

والى القارئ كلمة عن رهبانيتنا البلدية اللبنانية في هذا الموضوع فنقول : ان اخواننا الرهبان تعاطوا عمل الرسالة الشريف بنفس الغيرة والتضحية التي كانت لآبائهم الاقدمين فانبثوا في كل ناحية من لبنان ، حتى وفي خارجه ، يبشرون بكلمة الله عاملين على بثّ روح المسيح الطيّب ، داعين المؤمنين الى التوبة وافعال الرحمة ونبذ الشقاق والخصام فبرهنوا على مقدرة وكفاءة بالعلم والفضل كالآباء اغناطيوس التنوري ، ومبارك ابي سليمان ، وانطونيوس حرفوش ، وبطرس ساره ، ولويس البتروني الذي صرف نحوًا من ثلث قرن في الرسالة الروحية ، فاذاب حياته سكيباً طيباً على مذبح محبة النفوس ويكاد ان يكون شهيدًا في هذا السبيل المقدَّس ، وبطرس زهره ، وبطرس الحائك البجدرفلي ، ويوحنا العنداري ، واغناطيوس خليفه الحدتوني ، وبطرس بصبوص ، وبطرس الخوري ، ويوسف ملكون السرعلي ، ويواصاف كرم ، وبولس البزعوني ، وعبد الاحد مطر التنّوري ، وجبرائيل مجلّي السرعلي ، وطوبيا الرعشيني، وبولس كفرنيس ، ولويس بليبل ، ويوحنا ابي غانم ، ومارون ابي كرم ، ومبارك ثابت الخ ... ولم تُحرم من عظاتهم كنائس المدن والقرى الكبرى كبيروت وجبيل والبترون وطرابلس وزحلة وبكفيا وبسكنتا وغوسطا وريفون وعجلتون ودير القمر وزغرتا وبشرّي واللاذقية ودمشق وبعلبك وغيرها .

واما الذين يخدمون النفوس الخدمة الروحية من ابناء الرهبانية فكثيرون وكلهم غيرة في خدمتهم الجليلة هذه [1] ، ولذلك لم يتمالك الشعب والسادة الاساقفة عن ابداء سرورهم بهم وبالرهبان المرسلين مثنين على الرهبانية بقلمهم ولسانهم اطيب ثناء شاكرين لرئيسها العام . ولدينا منهم رسائل عديدة بهذا المعنى نذكرُ منها رسالةً مؤرخة في ٤ شباط ١٩٢٤ ارسلها موارنة زحلة والمعلّقة والبقاع الكرام الى قدس الاب العام اغناطيوس التنّوري ، قالوا فيها :

« اقرارًا بالجميل نبدي عاطفة الامتنان من تلطّف قدسكم وحضرات الاباء المدبّرين اذ تتنازلون في اول كل تشكيل يحصل وترسلون الينا من ابناء رهبانيتكم العزيزة كهنةً من

١) من ابناء رهبانيتنا الذين خدموا الموارنة في القطر المصري القس توما الصيداوي سنة ١٧٩٦ (المجلّة البطريركية : السنة السادسة ص ٢٥٧ و٢٦١) .

ذوي الفضل والفضيلة يعتنون بشؤوننا الروحية ويقومون بخدمة نفوسنا حقّ القيام . فلايسمنا والحالة هذه الا ان نقدر هذه النعمة قدرها ونثني الثناء العاطر على نشاط ابنائكم الكهنة الغيورين . فاظهاراً لمرفة الجميل ننشر ألوية الحمد والشكر مذيعين فضل ابناء رهبانيتكم المقدسة الذين هم رائحة المسيح الطيبة وغارُ بالدعاء الحميم الى الله ليطيل حياة قدسكم لتزداد هذه الرهبانية الشريفة في ايامكم خيرًا وصلاحاً وتقدمًا ونجاحاً اذ برهبانها الافاضل وقديسيها العظام يزهو مجد الطائفة ويعلو شأنها ويتميّز نفوذها . . . »

امّا المحلات التي يخدم فيها رهباننا النفوس باذن البطاركة والاساقفة فهي :

في عكّار والجبة

عودين . جنين . سيدة القلعة . منجز . كفرنون . الدبّابية . البياضيّة (العلويين) . عشاش . كفرحبو . كفرياشيت . كفرشخنا . النخلة . بصرما . كسبا . كفرحارون . بشنين . حوقا . بان . الفرديس . النهر . العربة . سرعل . رشعين . الخالديّة . تنّورين .

في جبيل والبترون

تنّورين التحتا . وطاحوب . الزكزوك . المجدل . دوما . تندولا . ميفوق . رام . داريا . كفربعال . مار مقيم . العوينة . طرزّيا . رعيّة السيّدة في قرطبا . جنّة . مزرعة عبود . مدينة جبيل . حبوب . مهرين . معاد . عين كفاع . كفركدّة . جدّايل . المجرّ . خنوش . شموت .

في كسروان

قسماً من اهل غوسطا . بطحا . غباله . اغبه . عجلتون . السدّ . المعاملتين . النهر . زوق الخراب . ديك المحدي . ميروبا .

في الشوف وجزين وما اليهما من الجنوب

رشميّا . عين تراز . كنيسة القديسة تقلا . الكحالة . الرويسة . مغوايا . بجنين . عاريه . روم . مشموشة . لبعا . وادي جزين . عين درافيل . النبطية . الحمرا . المنصوره . بيت لهيا . حوش القتابه . البرامية . بقسطا . الجبابية . علمان . البرغوتيه . الجميليه . المغيريه . بسري . الخربة . مزرعة بسري . تعيد . صُباح . الحصيّة . الحرف . بتدّين اللقش . بتدّين المير . الناعمة . باروتة . كفرمتى . كنيسة القديسة تقلا في جلّ البحر . شرتون . الدوير . بدادون .

عين زبدة . عـين سعاده . عاليه . حاصبيا وادي التيم . قوزح . رميش . صفد . كفربرعم . القليعة . الخيام . جردا . ابل السقي . وادي شحرور . بيت شول .

في البقاع

زحلة . المعلقه . نيحا . مدينة بعلبك . الكرك . ابلح . تربل . مجدلون . سرعين . دورس . قيعات . بتـدعي . حوش الامراء . وادي العرايش . نهر الذهب — ثم موارنة يافا وقبرص . كنيسة دير طاميش في الكرنتينا ومدرستنا ببيروت ، ويساعد رهباننا خوارنة كنائسها بالواجب الروحي .

في المتن

الحلّة . بنابيل . المروج . عين الصفصاف . العيرون . مـدرسة نعيم بك صوايا بعبدات . رعية بيت الاشقر بيت شباب . العطشانة . رعية مدرستنا في المتين . قنّبع . الكحلونية . صوفر . جوار الحوز . الشبانيـة . بمريم . حمّانا . العبادية . قتاله . حارة حمزة . القريّة . محطة بحمدون . بحرصاف . حارة صادر . عمارة شلهوب . مار يوسف ومار ساسين بسكنتا ... الخ

وهناك من الرهبان من ذهبوا ضحية الامراض السارية كالجدري وغيره كالاب اغوسطين حليحل الحاج البسكنتاوي ، الذي مات في زحلة بعدوى الجدري متفانياً بخدمة المرضى فيه روحاً وجسداً .

واشتهر كثيرٌ من ابناء رهبانيتنا بفنّ الخطابة كالمرحوم الاب العالم اسطفان متى البتاعلي احد تلامذة كلية القديس يوسف . فانه قـد تعاطى الرسالة من حين سيامته كاهناً ، ولا يزال الناس الى يومنا يذكرون مواقفه الخطابيـة المشهودة على منابر كنائس لبنان الكبرى بعاطفة الفخر والاعجاب ، مترحمين على ذاك الخطيب المفوّه الذي كان يتدفق الكلام الفصيح من فمـه تدفّق السيـل المنهمر فيرسله الى الآذان بصوته الجهوري درراً تطرب لها النفوس . وقد رافق في الرسالة الخوري فرنسيس الشمالي (المطران جرمانوس) الخطيب المشهور فأعجب بقوّة عارضته وفصاحة عبارته وابتكار معـانيه ونبرات صوته . اضف الى كل ذلك الوقار والرصانة والمهابة التي تزينه والابداع في الحركات والاشارات المرافقة المعاني والعبارات التي اجادها هذا الاب الخطيب .

وعندما سُقِّف الشمالي مطراناً على حلب حضر لتهنئته ووداعه الاب اسطفان فقال له : « انك ستخلفني في عمل الرسالات في لبنان » وكتب اليه من حلب يذكّرهُ بصفاء ايام قضياها معاً في الرسالة ناعمين مسرورين . تجولُ حلاوة هذه الذكرى في خاطر الحبر الشمالي فتدمعُ عينه حنيناً واشتياقاً الى لبنان فيذكر له فيه عهوداً بالحمى عبرت [1] . وقد قال يوم وداعه لبنان الى حلب بحضرة رفيقه الاب اسطفان :

تنازع مهجتي سفَرٌ ومكثٌ وجمعهما يُعدُّ من المحالِ
واذ أزف الترحُّلُ فاض دمعي وقال مودّعي عند ارتحالي
ألا تبقي لمن ودّعت ذكرًا أرختُ بلى خذوا قلب الشمالي [2]

ولم يغفل رهباننا عن تأسيس الاخويات حثّاً على العبادة لمريم العذراء التي اشتهر بها ابناء طائفتنا . فان الاب اثاناسيوس الشموتي انشأ اخوية الحبل بلا دنس في مدينة جبيل والاب يوسف البشراوي في رشميا . ومن زمن ليس ببعيد احتفل اهل هاتين البلدتين بالتذكار المئوي لتينك الاخويتين.

وقد فتحت الرهبانية اديارها في بلاد جبيل والبترون والجبة وغيرها للكهنة العالميين لعمل رياضتهم السنويَّة يلقيها عليهم اباؤنا الافاضل ، فيخرجون منها وكلُّهم السنة شكر للرهبانية.

ومن آباء رهبانيتنا الذين زاولوا الرسالة سنين عديدة قدس الاباتي المفضال اغناطيوس داغر التنوري المشهور بفضيلته . فكان المثلَّث الرحمة البطريرك المغبوط الياس الحويك يُسند اليه هذه المهمة فينهض بعبئها افضل نهوض ، وكانت قداسة سيرته افصح خطيب يحمل الناس على العبادة . وكم من قوى ساد فيها الخصام وتأصلت جرثومته فاستأصلـه ، ومن مشاكل تعقَّدت فحلّها بحكمته وفطنته ، وله في كلّ محلّ بذر فيه كلمة الله آثارٌ تُذكر.

هذا برضٌ من عدّ ممّا تأتيه رهبانيتنا من الفوائد الجمَّة للطائفة في مباشرتها الرسالة ، « فما اجمل اقدام المبشرين بالسلام .» (رومية ١٠ : ١٥)

---

١) « الدرر النوالي » من حياة المطران جرمانوس الشمالي ، للخوري بشارة الشمالي (المطران بشارة) المطبعة الشرقية ١٩٠٢ ص١١٦ و١٣٠

٢) ديوان « نظم اللآلي » للحبر الشمالي ، المطبعة المارونية حلب ١٨٩٥ ، ص ١٦٥

الحياة في بيروت قبل الاسلام

بقلم الاب لامنس اليسوعي

٢

(تتمة)

لقد تقدّم لي ان ذكرت ننوز ، صاحب الملحمة الضخمة في ديونيسوس ؛ وهو ، والحقّ يُقال ، اقدر من تغنى بجمال بيروت الساحر واقربهم الى حرارة الاخلاص وبلاغة الالفاظ والتلاعب بتنسيق الجناسات والمحسّنات البيانية . فلم يبقَ لي الا ان اقدّمه اليكم ، وهو واجب صعب اذ لا نعرف عن هذا الشاعر الكبير الّا اسمه ووطنه . فقد وُلد ، على الارجح ، في القرن الرابع للمسيح ، في مدينة بانوبوليس المعروفة اليوم بأخميم من صعيد مصر . وكان في اول امره وثنيًا ، الا انه اهتدى الى النصرانية . اما ملحمته الكبيرة فقد خصّها بالاله ديونيسوس او باخوس فذكر فيها جميع مآتيه البطلية وولّد من ذلك مجموعة ضخمة من الابيات لا يتناولها المطالع الا ويشعر بان الشاعر اراد ، دون شك ، ان يعارض هوميروس . ليس في الاوديسية الّا ٢٤ نشيدًا ، اما قريحة ننوز فلا تقف الّا بعد الثامن والاربعين ، وقد ولّدت نحو ثلاثين الف بيت من الشعر اليوناني . فيا للنفس القوي الفيّاض ! ويا للاطّلاع الميثولوجي العجيب ! على ان ما يهمّنا خاصّة هو قيمة هذا الشعر من حيث المعلومات والاسانيد . وهي وافرة حتى يمكن القول ان ملحمة ننوز من المصادر الواجب استعمالها لتاريخ فنيقية في القرن الرابع . فهو يذكر عبادة ادونيس على شاطئ النهر المعروف باسمه

كما يذكر «الصخرة اللبنانية التي اقامت عليها ڤينوس منزلها»[1] وواضح ان المراد معبد افقا. الى غير ذلك من الاشارات المفيدة تاريخ البلاد عامة، وتاريخ بيروت خاصة. ولا يخفى ان مصادر تاريخ ذاك العصر ليس بالوافرة، فلا نهمل منها شيئاً.

ولا شكّ ان من عناصر الجمال في بيروت غابة الصنوبر. وهي قديمة جداً، كما يلاحظ رينان، حتى ان ليس من المستغرب ان تكون بيروت مدينة لها باسمها. ومع كل هذا فكم سمعنا ونسمع من السخافات والاقاويل في اصل هذه الغابة وماضيها! أوَلم ينسبها بعضهم الى الفرنسويين الذين اتوا لبنان على اثر مذابح سنة ١٨٦٠؟ وهذا لعمري اسخف المزاعم عن اصل تلك الغابة: على ان غيرهم من «المؤرخين» ينسبون شرف غرسها عادةً الى الامير فخر الدين. ولا بأس في ان نلاحظ هنا ان فخر الدين، والقديسة هيلانة، وزبيدة امرأة هارون الرشيد، من الاسماء المتداولة في سورية ولبنان يستعملها العامة، وبعض الخاصة، لاخفاء جهلهم فينسبون الى اصحابها ما يرونه من المباني والآثار القديمة ولا يعرفون اصحابه الحقيقيين. وعلى هذه الطريقة نُسبت القناة الرومانية في نهر بيروت الى زبيدة فقيل «قناطر زبيدة». اما غابة بيروت فقد ورد ذكرها في زمن الصليبيين، وقدّر الادريسي، احد جغرافيي العرب، مساحتها باثني عشر ميلاً مربعاً. على انه يمكننا، بفضل ننّوز، ان نرقى الى ابعد من ذلك في ذكر الغابة. فان الشاعر يشير الى «نَفَس لبنان المحيي الواصل الى سكان بيريت السعداء ممتزجاً بحفيف السرو المتمايل واريجه العطر.»[2] وان موضوع النشيد الثاني والاربعين يجري في «غابة الصنوبر الجميلة». ولقد كانت غابة حقيقية اذ انها كانت تتصل حتى مرتفعات لبنان. وفيها اخذ باخوس ونبتون يتنازعان بيرُوه اللطيفة، بنت الماء الحاملة اسم بيريت. وبعد عراك شديد ظفر نبتون اله البحر، «فاتحد ببيرُوه في عرس

١) النشيد ٣٥: الابيات ١٤٣ وما بعده.
٢) النشيد ٤١: الابيات ٢١ وما يليه.

بجرني . واخذ من ثمَّ يُحبّ وطن زوجته ، وينيل سكّانه ، ذكرًا لهذا الزواج ، المجدَ الاثيل بان ينتصروا دائمًا في المعارك البحرية . »[1]

ولتطمئن امهات البيروتيين ! فلا خوف من هذه المعارك ، ولا سلاح فيها ولا دم مهراق . ان هي الّا معارك اقتصادية كان البيروتيون ولا يزالون — وهم حفدة الفنيقيين — ينتصرون فيها بسهولة . ولكن الا تجدون من الغريب ان نكون مدينين لاقوال هذا الشاعر المصري باقدم المعلومات عن غابتنا ؟

ولعلّ من المفيد بعد هذا ان نذكر ما قاله لامرتين في غابتنا نفسها :

« لقد اصبحت الغابة غابة في الجمال . وجذوع الشجر فيها تبلغ الستين والثمانين قدماً مرتفعةً دفعةً واحدة ، مظلّلةً بفيئها مساحة فسيحة . اما الارض فيغطيها مخمل رقيق من الكلأ نُثرت فيه زهور من الاحمر القاني . وهناك بصلات السوسن البرّي ، وهي كبيرة ضخمة حتى ان نعال الخيل لا تسحقها . ومن خلال اعمدة تلك الجذوع الصنوبرية ، يرى الناظر سهل بغداد (كذا والصواب : بعبدا ، لا بغداد) ومجرى النهر ، وزاوية من الخليج تشبه بحيرة صغيرة . . . وان النور لصافٍ ، والهواء لنقيّ حتى انه يمكن الانسان ان يميّز ، على عدة اميال علوًّا ، اشكال شجرات الارز او الخرنوب في الجبال ، او كبار العقبان السابحة ، دون ان تحرّك اجنحتها ، في اوقيانوس الاثير . وان هذا الحرج من الصنوبر لهو ، دون شك ، اروع مشهد شاهدته في حياتي . »

هذا ولو عاد خيال لامرتين الى هذه الاماكن ، أوَ هل يعرف الغابة التي اوحت اليه هذه الاسطر الملوّنة بالاعجاب ؟

ولو وُلد نتوز في لبنان لما كان تغنى بمحاسن بيروت باوفر حماسة وهوس . حتى انه يضيف اليها محاسن قد تكون لم تعرفها ، فيسمّيها المدينة «ذات الجزُر الانيقة» . ولكن لنتركه يتكلم :

« بيرُوه فتنة الحياة ، وابنة البحر ، وميناء النعيم ، والمدينة ذات الجزر الانيقة والخضرة الغنية . ليس لها ردف برزخ ضيّق يدقّ رأسه حتى تضربه

---

١) النشيد ٤٣ : الايات ٣٦٤ وما يلي .

امواج البحرين . بل انها تمتد من ناحية الجنوب الحارّة حتى سفوح لبنان الوارفة الظلال . . . فهيَ مدينة اوّلية ، بل هي اولى المدن التي عرفها الزمان المخلوق معها ، فشاهدها تظهر مع الارض معاصرتهـا . . . وفي بيرُوه خرجت ڤينوس لاول مرة من الامواج . اما اهل قبرس فليس لهم من مستند الّا الكذب اذ يدلّون الناس على المكان الذي وضعت فيه الالاهـة رجليها في خروجهـا من البحر . »

هذا ما خصّ المدينة . اما السكان « معاصرو الشفق ، فانهم صورة عنصر الهي ؛ وسنبلة ذهبية ، بين البشر الاولين ، نمت على اصلها الخالص . »[1]

فما رأيكم ، ايها البيروتيون ، في هذا المديح ؟

بعد ان تجتهدوا في تبديد بخوره القويّ المتكاثف، فكروا قليلاً في الشاعر الاجنبي الذي خصّص ثلاثة اناشيد من ملحمته،اي ما يقرب من١٥٠٠بيت شعر، ليبرهن ان مدينتكم اقدم مدن العالم، بل اجملهـا ، والطفها ، وانكم اكمل المخلوقات في هذا الكون . . . فكروا بهذه الغيرة وتأملوا موقفكم تجاه هذا الشاعر الذي تجهلون حتى اسمه . فلا تمثال ، ولا دمية ، ولا صفيحة تذكارية ، بل لا شارع صغير يمنع الناس من نسيانه النسيان التام ! . . .

ولا نجازف اذا قلنا ان ننّوز زار مدينتنا . بل اننا نذهب الى ابعد من هذا فنقول لعلّه كان يتردّد الى جامعتنا القديمة ، فيحضر درس اساتذتها . يظهر ذلك من اعتقاده الشديد بفضيلة علم الحقوق وبصلاح الشرائع الرومانيـة التي كان اساتذة بيريت يشرحونها ويعلّقون عليها جاعلين من مـادّة تدريسهم علماً وفنّاً معاً . عرف كل ذلك ، دون شكّ ، فتأثّر به ، وبدا تأثره بارزاً من خلال ابياته تأثّرَ شابٍّ متحمّس لبيريت وما فيها . « بيرُوه جذر الحياة ، ومرضعـة المدن ، وكوكب لبنان ، ومقرّ البهجات . . . » الى غير ذلك من النعوت التي تفيض بها قريحة ننّوز كلّما خطرت على باله محاسن بيريت . على انه يعجب خصوصاً ببيريت «مقرّ العدل،وسور الفقهاء . . .» فيقول: «ان الاهوية الاربعة التي

---

١) النشيد ٤١ : الابيات ١٥ و٤٠ و٨٨ و١١٥ . . . .

تهبّ على البلدان جميعاً تتمايل بالمدينة لتنقل الى العالم احكام بيريت . وان الاوقيانوس ، اول رسول للشرائع ، يحمل امواجها النافعة حتى اقاصي العالم .»
ولو كان بامكان نتوز أوضع مركز جمعية الامم لا في لاهاي ، ولا في جنيف ، بل في مدينتنا . كيف لا «والشقاق ، الذي يكتسح الدول ، يكف عن التعرض للسلام اذا ما قامت بيريت ، الساهرة على راحة الوجود ، فحاكمت الارض والبحار ، وحصّنت المدن بجادّة الشرائع التي لا تُهدم ، واخذت على نفسها تنظيم بلاد العالم . » وهو يلخص معتقده بهذا الحكم : « لرومة سلطة السلاح ، ولبيريت سلطة الحق . » !

***

رأيتم في ما تقدّم المشهد السحري العجيب الذي تتابعت فيه حياة البيروتيين السعداء على مدة ستة قرون متتالية . ولم يكن في هذا المنظر الطافح بشراً وسروراً الّا ظلّ واحد مزعج هو تتابع الهزّات الارضية . وليس من شأن الشاعر نتوز ان يعدّدها ، فضلاً عن انـه توفي قبل حدوث تلك السلسلة الهائلة من الزلازل المتتابعة بين السنتين ٥٥١ و٥٥٤ . فقلبت رأساً على عقب هيئة الساحل الفنيقي . ولعلّ نبتون « زوج بيرُوه اللطيفة » غضب في هذا الوقت ، فاغرق « الجزُر الجميلة » التي كانت تحتّ زوجته . وقد خربت الجامعة اذ ذاك ، وهلك معها ثلاثون الفاً من السكان . وهكذا كانت نهاية « بيريتوس الرومانيين السعيدة » ، ومركز « معلّمي المسكونة » ، ومدينة يوستنيانوس « الفائقة الجمال » . وقد بكى الشعراء هذا الخطب ، حتى في اقاصي اسبانية ، متأوهين على افول « نجمة لبنان » .

اني لا اعتذر لديكم عن طول هذا الحديث ولا عن تفاهته . أوَ لسنا جميعاً عشاق بيروت ؟ أوَ يضجر العشاق من حديث احبابهم او من الحديث عنهم ؟

اما ما بقي من مدينتنا فهو ما ستسمعون وصفه الموجز بقلم الاخوين تارو ، قالا : «ان الساحل الفنيقي عاد فدخل في النسيان تعباً من ماضيه المُثقل . وهو لا يزال ذا بهجة وجاذبية ككل الاماكن التي جعل فيها التركي حياته

المائتة ، وخطرات باله ، وقهوته ، وجامعه ... ولكن ما اشبه هذا المظهر بصوت الجلجل الى جنب الجلبة العظيمة التي تصعد شبيهةً بصخب الامواج من الماضي البعيد ! »

***

حان لي الآن ان اختم هذا الحديث ، طالباً ان نجتهد بتخليص ما يمكن الاحتفاظ به من محاسن بيروت . لقد كثرت الاقتراحات في هذه الايام لتعزيز وسائل السياسة ، وهي مادّة واسعة لارباب الصحف . فان الاجانب كثيرو الفضول. ولكن كيف يمكننا ان نستدعيهم وان نستوقفهم ؟ وماذا نعرض امام عيونهم ؟ ايّ آثار وايّة تذكارات ؟ وقد عملنا طول السنين الغابرة على قلب هيئة مدينتنا فخربنا كل شيء حتى الخرائب نفسها. بل ان المناظر الطبيعية ذاتها ، تلك المناظر التي اهملها الاتراك ازدراء او جهلاً باستخدامها ، فاننا عملنا على تشويه جمالها الفطري . وهل يمكن لامرتين ان يستميد ذكرى عدن في هذه المدينة الخالية من مزية خاصّة ؟ وماذا يبقى اليوم من غابتها الصنوبرية من غابة الصليبيين وغابة نتوز ؟ ما لا يستحق الذكر ...

لا ازال اذكر اني عرفت في ڤينا جمعية يدعونها « جمعية التجميل » (*Verschönerungsverein*) غاية اعضائها الاساسية ان يسهروا على المناظر والمشاهد الجميلة في عاصمتهم وحولها ، عاملين على حفظها من الخراب ، وعلى تجميلها وتقريبها من انظار الزوّار والسيّاح . واني لارى في عمل هذه الجمعية فكرةً يجب ان تُدرس ، ومثلاً يجب ان يُتّبع . هذا ما اتركه ، مسك الختام ، لاهل بيروت واصدقائها .

طبيعتا يسوع المسيح

للاب ارمند اودين

احد كهنة رهبنة قلب يسوع الاقدس (الناصرة)*

« يجبّني الآب ، لاني ابذل نفسي لآخذها ايضاً ، ليس احد يأخذها مني ، ولكني ابذلها باختياري ، ولي سلطان ان ابذلها ولي سلطان ان آخذها ايضاً » (يو ١٠: ١٧-١٨)

من ذا الذي جاز له ان يفوه بهذا الكلام المستغرب ؟ واستطاع ان يبذل نفسه فيذوق الموت كسائر البشر ؟ غير ان يد المنون ، لو لم يقدم ذاته لها طوعاً ، لما استطاعت ان تصل اليه . اذاً مات بارادته . . . الا انه كان حائزاً على السلطان ليحيي نفسه ثانية . يدلنا كلام المسيح هذا ، على سرّ يفوق ادراك عقلنا الضعيف . ولهذا السرّ يسجد كل مسيحي ، معترفاً بان فادي العالم يسوع المسيح ، جمع حقًّا في شخصه ، هاتين الحالتين ، اي انه من جهة تألم ومات كفارةً عن ذنوب البشر ، ومن جهة اخرى تصرف في الحياة والموت كربٍّ ، ولم يمت الا باختياره . وبعد ان مات قام بقدرة ذاته . فهكذا نراه مشابهنا بالشكل الذي ظهر فيه لاعين الناس ، ومرتفعاً فوقنا بتلك القوة العجيبة التي لم يفقده اياها الموت عينه ، بل بها ردّ الحياة لجسده المضجع في القبر.

فكيف يلزمنا ان نفهم هذا السرّ الغامض دون ان ننكر شيئاً مما يعلّمناه الكتاب المقدس عن يسوع المسيح مخلصنا ، والوسيط بين الله والبشر ؟ هذا هو السؤال الذي لا يتفق جميع النصارى في الجواب عليه . فان اغلبهم يعتقدون ان قد اتحدت الطبيعتان في يسوع المسيح : اي الالهية والبشرية ، وان هذا الاتحاد هو الذي نعنيه بقولنا :« ان الكلمة صار جسداً » ، وان كل واحدة من الطبيعتين ثبتت في حقيقتها ، وحافظت على صفاتها الخاصة ، ولم تخسر

*) عني بتصحيح عبارته ونشره القس اسطفان فرحات اللبناني.

شيئاً من كمالها . غير ان بعض النصارى الشرقيين رفضوا ذلك التعليم وذهبوا مذهب الطبيعة الواحدة ، زاعمين ان سرّ التجسد تمّ ، لا باقتران الطبيعتين في اقنوم واحد ، بل باختلاطها ، او بتحوّلها الى طبيعة ثالثة ليست الهية ولا بشرية ، او بفناء الطبيعة الانسانية ، كأن اللاهوت ابتلعها او حوّلها اليه .

ولذلك كان مقصدنا بهذا المقال — ايها القارئ الكريم — تنوير عقلك في هذه المسألة المهمة ، وان نبيّن لك ان الوحي الالهي والعقل السليم يتوافقان على رذل مذهب الطبيعة الواحدة ، فنورد لك اذاً ، اولاً ، من نصوص الآباء القديسين ، ما يتمثّل فيه التقليد الشريف الذي اخذته الكنيسة من الرسل معلّميها الاولين ، ثم نوضح لك ان الكتاب المقدس يعلمنا ايضاً تمايز الطبيعتين في يسوع المسيح . وبعد ذلك ننقد ما استند اليه من الحجج بعض المدافعين عن مذهب الطبيعة الواحدة ، ونبين لك اخيراً ان هذا المذهب يلاشي حقيقة التجسد ، وان العقل المستقيم يردّه لا محالة .

١ — شهادات آباء الكنيسة

قال القديس اغناطيوس اسقف انطاكية : « ان طبيبنا هو واحد ، وهو جسديّ وروحيّ ، مخلوق وغير مخلوق ، اله في انسان ، من مريم ومن الله . »

وكتب القديس غريغوريوس التريتزي في احدى قصائده : « أتى مَن هو اله وانسان جامعاً طبيعتين متحدتين ، احداهما محتجبة ، والاخرى ظاهرة للناس . »

وعبّر القديس غريغوريوس النيصي عن معتقده هكذا : « تعلمنا ونعتقد ان الطبيعة الانسانية المتحدة بالكلمة هي محفوظة . »

وجميل ما قاله القديس يوحنا فم الذهب في تفسير آية يوحنا هذه : « فالكلمة صار جسداً » قال : « انه صار ابن البشر ، مع انه كان ابن الله الحق ، ولم ينقص طبيعته بانحداره هذا . لانه ليس الجوهر انحط الى الجسد — وان هذا الزعم لنفاق — ولكن مع استمراره ، كما كان ، اخذ شكل العبد . فراد الانجيلي بقوله « صار » لا يعني تغير جوهر ، حاشا ان نقول ذلك ، بل ان يصرّح بحقيقة الجسد المأخوذ ، فان الكلمة الالهي والجسد هما واحد بلا اختلاط ، ومن

غير زوال الجوهرين ، بل باتحاد يفوق الوصف »

وقال القديس افرام : « ان للمسيح طبيعتين كاملتين ، لئلا تفنى الطبيعتان، فان الله لم يظهر على الارض في احدى الطبيعتين فقط ، ولا في الاخرى وحدها صعد الانسان الى السماوات ، بل كان كاملاً من كامل ، وانساناً من انسان ، والهاً من اله ، وهو المسيح ابن العذراء . »

هذه البيِّنات كانت لما كان تقليد الكنائس الشرقية ، قبل ان يقوم الجدال في مسألة الطبيعتين ، وكذلك كان في الزمان عينه تعليم الآباء الغربيين ، فحسبك ان تسمع منهم كلام القديس اوغسطين اذ قال : « اخذت صورة الله صورة العبد ولكن لم تتحوَّل بذلك احدى الصورتين الى الاخرى ، فان اللاهوت لم يصر خليقة بحيث لم يعد لاهوتاً ، ولم تُضحِ الخليقة لاهوتاً بحيث لم تعد خليقة . »

لكن عندما ابتدأ الخلاف بين اتباع اوطيخا وخصومهم ، كتب القديس لاون البابا رسالته المشهورة التي وجّهها الى فلابيانوس اسقف القسطنطينية ، واعلن فيها معتقد الكنيسة عن طبيعتي المسيح ، ودونك كلماته : « ان الذي هو اله حق انما هو ايضاً انسان حق ، وما من كذب البتة في هذه الوحدة التي اقترن بها وضاعة البشر وسمو اللاهوت ، لانه كما لا يتغيّر الله بتحننه ، كذلك لم يفنَ الانسان بارتفاعه ، ولكل واحدة من الصورتين ما يلائمها من الافعال مع اقترانها بالصورة الاخرى ، فان الكلمة يعمل ما يختصّ بالكلمة ، ويجري الجسد ما يناسب الجسد ، ولمع احدهما بالاعاجيب ، ويطأ الآخر ثقل الاهانات ، وكما لم ينحطّ الكلمة عن مساواة مجد الاب ، كذلك لم يتجرّد الجسد عن طبع جنسنا . »

ويفيد ان نختم سلسلة تلك الشهادات بايراد الكلمات التي حكم بها آباء المجمع الخلقيدوني في مسألة الطبيعتين ، قالوا : « اننا طبقاً لاقوال الآباء القديسين نعلّم اجمعين ، وبتمام الاتفاق ، ان ابن الله وسيدنا يسوع المسيح هو واحد بذاته ، وكامل في اللاهوت وفي الناسوت ، وانه اله حق وانسان حقّ ، مركب من نفس ناطقة وجسد ، وانه باللاهوت واحد الجوهر مع الاب ، وبالناسوت واحد

الجوهر معنا، ومشابهنا في كل شيء ما عدا الخطيئة، وباللاهوت والده الاب منذ الازل، واما بالناسوت فولدته مريم البتول والدة الله في آخر الايام لاجلنا ولخلاصنا. فنعلم وجوب الاعتراف بالمسيح الرب والابن الوحيد، الواحد بذاته في طبيعتين بغير اختلاط، ولا تغير، وبدون انقسام ولا انفصال، ودون ان ينفي الاتحاد اختلاف الطبيعتين من اي وجه كان، بل مع المحافظة على حقيقة كل واحدة منهما.»

٢ شهادة الكتاب المقدس

قد ظهر لك، ايها القارئ الكريم، مما مرَّ بك ان مذهب الطبيعة الواحدة في يسوع المسيح يخالف تعليم الآباء القديسين، وكأنهم دحضوه سابقاً، وان الكنيسة رذلته وشجبته بصوت رئيسها القديس لاون، وباصوات الاساقفة الملتئمين في خلقيدونية. افلا تكفيك هاتان الحجّتان، لتحسب هذا المذهب بدعةً من البدع التي يجب رفضها على كل مؤمن؟ فماذا تقول اذا بيَّنّا لك ان المذهب عينه يناقض تعليم الاسفار الالهية؟ ولا يصعب هذا التبيان، لان كتب العهد الجديد تعلّمنا صريحاً: ان مخلص البشر هو اله وانسان معاً، ولا حاجة هنا الى ايراد النصوص العديدة التي تتضمّن تأكيد كلتا هاتين الحقيقتين، ولا الى ذكر الشيع القديمة التي قامت عليها، فبادرت الكنيسة الى رميها بالحرم. ولكن كيف يصح القول: ان يسوع المسيح هو اله وانسان، ان لم تكن فيه كلتا الطبيعتين الالهية والبشرية؟ على انك لا تطلق اسماً على شيء، ما لم ترَ في هذا، الطبيعة التي يعنيها الاسم، هكذا لا تسمي حجراً سوى ما ظهر فيه لك طبع الحجر، ولا تدعو فرساً سوى ما تحكم بان فيه طبيعة الفرس، ولا تقول ان فلاناً هو انسان الا دلالةً على ان فيه ما تقوم به ماهية الانسان.

فواضح اذن ان يسوع المسيح، لو لم تكن فيه الطبيعة البشرية، لكذب الكتاب كلما دعاه انساناً. وكذلك لو لم تكن له الطبيعة الالهية، لما جاز ان يسمّى الهاً. ولهذا نقول ان الكتاب المقدس يعلمنا وجود الطبيعتين في ابن الله المتجسد.

٣ رد الاعتراضات

ماذا قال الذين حاولوا الدفاع عن مذهب الطبيعة الواحدة ؟ ، انه مما اعترضوا به ان اتحاد الكلمة بالناسوت في يسوع المسيح يشابه اتحاد النفس والجسد في الانسان.

والحال ان الانسان ، المركب من نفس وجسد، له طبيعة واحدة فقط ، فكذلك تكون لابن الله المتأنس طبيعة واحدة لا غير.

وزادوا على ذلك انه من العبارات التي استعملها الآباء القديسون ان اللاهوت والناسوت امتزجا فصارا لا يتمايزان الا بنظر عقلنا.

فاذاً ليس للمسيح طبيعتان تتمايزان حقيقة.

وايضاً تكلم القديس كيرلس مراراً عديدة عن طبيعة ابن الله الواحدة المتأنسة ، فاعتقد اذن هذا العلامة الشهير ان المسيح ليست له طبيعتان.

فترى من ذلك ان ما اتخذه خصومنا سنداً لمذهبهم يقوم كله ببعض ما ورد في كتب الآباء القديسين من الالفاظ التي ظنوا انها تدل على انكار الطبيعتين او خلطهما . وعليه فاذا فسرنا تلك الالفاظ كلها تفسيراً مقبولاً ومتفقاً مع العقيدة الكاثوليكية سلبنا بالفعل عينه خصومنا كل سلاح يستخدمونه للهجوم على قضية الطبيعتين.

فلنعتبر اولاً : بأي معنى قيل ان اتحاد اللاهوت والناسوت في يسوع المسيح يشبه اقتران النفس والجسد في الانسان . ولاحظ — يا هداك الله — ان النفس والجسد فينا لا يختلطان ، ولا يفنى احدهما ، بل يثبت كل واحد منهما محافظاً على خواصه . فمن هذه الجهة لا نجد في هذا التشبيه شيئاً يتفق مع رأي اوطيخا ، غير ان طبيعة الانسان هي واحدة مع تمايز النفس والجسد ، لان الجزئين ليسا بجوهرين كاملين ، بل كل منهما هو متوجه بطبعه الى الاقتران بالآخر ، فلا غرو اذن ان الجوهر المركب منهما هو واحد الطبيعة ، كما ان اعضاء الجسد مع كثرتها وتنوعها لا يقوم بها الا جسد واحد ، لكون كل منها شيئاً ناقصاً يقتضي الانضمام الى غيره ، لتكون له افعال الحياة.

اما اللاهوت والناسوت اللذان نعترف بوجودهما في اقنوم المسيح ، فيستحيل ان نتصورهما كشيئين ناقصين . وهذا واضح جدًا من جهة اللاهوت ، الذي هو الكمال غير المتناهي . والامر اكيد ايضاً من جهة الناسوت لان قولنا : ان يسوع المسيح هو انسان حق يستلزم حصوله على الطبيعة البشرية الكاملة . فاذًا ما من سبيل الى تصوّر طبيعة واحدة تحصل من اتحاد اللاهوت والناسوت ، وليس هذا ما اراده الذين استعملوا تشبيه اتحاد النفس والجسد . لكنهم اعتبروا ان الانسان هو شخص واحد مع تألفه من جزئين يفوق احدهما الآخر بما لا قياس له ، كذلك يسوع المسيح هو اقنوم واحد ، مع تمايز طبيعتيه واحداهما هي اشرف من الاخرى بما لا حدّ له ، وكما يظهر جسد الانسان وتحتجب نفسه ، كذلك تراءى ناسوت المسيح لانظار الناس بينما كان لاهوته مستترًا عنهم .

فلننتقل الآن الى الاعتراض الثاني المأخوذ من قول بعض الآباء : ان اللاهوت والناسوت في المسيح امتزجا واصبحا لا يتميزان الا باعتبار عقلنا . فهل يسوغ لنا فهم هذه الكلمات وما شابهها بمعنى ينافي ما قاله صريحًا الاباء انفسهم من ان طبيعتي المسيح بقيتا غير متغيرتين ، ولم يبد شيء من خواصهما ؟ كلّا ، فان الصواب يقضي بان نؤوّل مبهم كلامهم وفقًا لجليّه . فنقول اذن : انهم ارادوا بالامتزاج الاتحاد الوثيق الذي يقوم به شيء لا يقبل الانقسام ، مع ثبات كل واحد من الممتزجين . كما اذا مزجت ماء وخمرًا ، مها ظهر للعين ان السائلين اضحيا واحدًا فلا ريب ان كل واحد منها بقي محافظًا على طبعه وصفاته . كذلك حينما يمزج الصائغ ذهبًا ونحاسًا ، نعم ان المعدنين يذوبان معًا ويصيران قطعة واحدة ، فلا تعود تقدر على تمييز الاجزاء المختصة بكل منهما ، غير ان صاحب علم الطبيعيات يوقن ان هذه الاجزاء لم تزل على ما كانت عليه قبل المزج ، ولم تفقد شيئًا من طبع الذهب والنحاس . فلتعنك هذه التشابيه ، مها كانت ناقصة ، لتدرك ان الاباء الذين تكلّموا عن امتزاج الطبيعتين في شخص المسيح ، لم يريدوا قط انكار حقيقتهما وتمايزهما . بل عبروا بهذه اللفظة عن الاتحاد الشديد والدائم الذي يقوم به اقنوم واحد . اما اللاهوتيون الذين عاشوا من زمان المجمع

الخلقيدوني الى يومنا هذا ، فلما اعتبروا ما في لفظة امتزاج من خطر سوء الفهم ، اعتادوا الامتناع عن استعمالها . وآثروا الاكتفاء بالقول ان الطبيعتين اتحدتا واقترنتا .

وقل مثل ذلك عن عبارة القديس كيرلس اي « طبيعة الكلمة الواحدة المتأنسة » فان الذين استدلوا منها على ان القديس كيرلس انكر تمايز الطبيعتين في المسيح غلطوا جداً ، وفاتهم ما كتبه العلامة نفسه تصريحاً بمعتقده : « لا يجوز تقسيم يسوع المسيح الرب الواحد الى انسان على حدة ، واله على حدة ، بل نقول : ان يسوع المسيح هو واحد بعينه ، ولا نجهل ما من الفرق بين الطبيعتين . بل نحافظ عليهما بغير اختلاط .» وقال ايضاً في احدى رسائله : « لم تتحول طبيعة الكلمة الى طبيعة الجسد ، ولا طبيعة الجسد الى طبيعة الكلمة ، بل ثبتت كل واحدة منهما في حقيقتها . »

فبيّن من اقوال كيرلس هذه ، ومن غيرها ، ان مراده بالطبيعة الواحدة المتأنسة ، هو لاهوت الكلمة ، الذي تأنس اي اتحد بالناسوت في اقنوم واحد . ولم ينفِ التمييز بين الطبيعتين ، بل انكر ان في المسيح اقنومين او طبيعتين تقوم كل واحدة منهما بذاتها ، كما زعم اتباع نسطور ، وبهذا المعنى ليس من خلاف بين كلمات كيرلس هذه ، وسائر تعاليمه ، وتعليم جميع الآباء والاساقفة الكاثوليك . ولذلك رمى المجمع الخامس بالحرم « من يقول ان طبيعة الكلمة الاله المتجسد هي واحدة ، ولا يفهم هذه اللفظات طبقاً لتعليم الآباء القديسين ، بمعنى ان الطبيعتين الالهية والانسانية اتحدتا بالاقنوم اتحاداً حصل به مسيح واحد ، بل بهذه الكلمات يحاول ابداع طبع او جوهر واحد ، حاصل من لاهوت المسيح وجسده . »

٤ حكم العقل المستقيم

ويفيد ايضاً ان نمعن النظر في ما يتضمنه مذهب الطبيعة الواحدة من المنافاة لحقيقة سر التجسد ، ولمطاليب العقل السليم ، فان كل قائل ان في المسيح طبيعة واحدة فقط يجوز ان نستفهم منه هكذا : هل تركبت هذه الطبيعة من

اللاهوت والناسوت تركبها من جزئين ؟ ام حصلت بتحولهما الى طبع واحد ؟ فاذا اجاب باول الامرين ، ساغ لنا ان نقول له: اذاً نتصور اللاهوت والناسوت كشيئين ناقصين ، بحيث يمكن ان يقترنا تأليف شيء ثالث يكون منهما بمثابة الكل من اجزائه ، ولا يخفى ان الكل هو دائماً اكمل واكبر من جزئه . فيكون على رأيك شيء اكمل واشرف من اللاهوت ، وهو الطبع الثالث المركب من اللاهوت والناسوت . وهذا ضلال مبين بل تجديف فظيع ، فانه تعالى كامل في الغاية ، ومحال ان يقدر شيء يفوقه كمالاً .

امَّا اذا جاوب بالامر الثاني ، فنقول له : كيف تزعم ان الطبيعة الالهية تحوَّلت الى غيرها ؟ هل تتصوَّرها قابلة التغيير ؟؟ وهل يخفى عليك ان ما يتحوَّل طبعه الى غيره ، فانه بالفعل عينه يفنى ويزول ؟؟ كما تفنى الخمر حين تحوُّلها الى خلّ ، ويزول الحطب اذا تحوَّل الى رماد . فما بالك تعزو اليه تعالى ما يجعله متغيّراً وفانياً ، واي اثر للصواب وللتقوى في مثل هذه الاوهام ؟

اما القائل ان طبيعة المسيح الواحدة حصلت بفناء الناسوت ، كما يفنى الشيء الصغير في الكبير ، وقطرة الماء في اليمّ المظيم ، فنجيبه بان رأيه هذا يلاشي جلياً كل حقيقة التجسد . لان هذه تستلزم صحة قولنا ان الكلمة اخذ الطبيعة البشرية فصار انساناً حقاً . وكيف اخذ الطبيعة التي قد فنيت ، اي صارت غير موجودة ؟ او قل بالحري انها لم توجد قط ، لان ناسوت المسيح لم يكن له وجود قبل آن التجسد ، فيعود اذن هذا الرأي الى مذهب الذين انكروا كل حقيقة التجسد . وزعموا ان جسد المسيح كان خيالياً ، ولا يخفى ان ضلالهم هذا يقوّض أسس الدين المسيحي نفسها.

ولا يسلم من هذه النتيجة الوخيمة مذهب الطبيعة الواحدة ، بأي طريقة حُوِّل تفسيره والدفاع عنه . لان سرّ الفداء عقيدة اساسية في ديننا المقدس ، ومن نفى عن يسوع المسيح تمايز الطبيعتين نقض بالفعل عينه حقيقة الفداء . فان هذه تحتوي على امرين : اي تضحية المخلص بذاته ، وكفاية هذه التضحية للتكفير عن خطايا العالم باسره . وقام اول هذين الامرين بشيئين.

اولهما : رضى يسوع بتسليم ذاته لاسباب العذاب والموت ، اطاعةً

لارادة الله ·

وثانيهما : احتماله تأثير تلك الاسباب في جسده ونفسه ·

وهل كان ممكناً شيء من ذلك ، لو لم يكن للمسيح ارادة بشرية خاضعة لمشيئة الله ؟ وجسد ونفس قابلان التألم والموت ؟ اي لو لم يكن له طبيعة بشرية حقيقية ·

اما كفاية ذبيحته للكفارة عن جميع مآثم العالم ، فقد اقتضت كون اقنومه الهياً ، اي حصوله على الطبيعة الالهية · فترى اذن ان من انكر وجود الطبيعتين في يسوع المسيح نقض بذلك سر الفداء ·

فحسبك هذه البينات — ايها القارئ الكريم — لتدرك ما يختفي من السم القتال ، والكفر الشنيع في مذهب الطبيعة الواحدة ·

فلنعترفنَّ اذن ، من دون خلجة شك ، بحقيقة الطبيعتين اللتين اتحدتا في اقنوم مخلصنا يسوع المسيح · ولنشكره على انه تنازل واخذ طبيعتنا ، لكي ينهض آدم وذريته ، وينصرهم على الشيطان الذي كان قد صرعهم ، ولنوطد رجاءنا باعتقادنا ان ابن الله ليس طبيعتنا ينجيها من كل ما اصابها من انواع الشقاء ، ويشركها في مجده الابدي ·

فليشجعنا هذا الامل على اقتفاء آثار المسيح ، لمعرفتنا انه عاش في منفانا هذا عيشة بشرية ، بجسد كجسدنا ، مباشراً من الاعمال ما يجب علينا مباشرته · ومشابهنا في كل شيء ما عدا الخطيئة · حتى اذا اجتنينا هذه الثمار النفيسة من ايماننا بطبيعتي مخلصنا الالهي نستحق معاينته في بهاء ملكوته الابدي ·

الحجر الكريم

في

اصول الطب القديم

ارجوزة طبية مشروحة للشيخ ناصيف اليازجي

نشرها المرة الاولى عن مخطوطة بخط المؤلف

فؤاد افرام البستاني، استاذ الآداب العربية في كلية القديس يوسف

١

توطئة

في كفرشيما، مسقط راس الشيخ ناصيف اليازجي، مدرسة صغيرة ابتدائية يديرها احد رهبان الموارنة اللبنانيين فيعلّم احداث القرية مبادئ القراءة والحساب. ولم يكن احداث كفرشيما ليختلفوا عن سائر الاحداث في سلوكهم المدرسي. فنهم المجتهدون المتنبهون لاقوال المعلّم، المتتبعون لشروحه، ومنهم اللاهون اللاعبون كل آن لا فرق عندهم بين زمن الراحة ووقت الدرس والاصغاء. فكان على المعلّم ان يشدّد في الانتباه ويبالغ في المراقبة، وان يوبّخ ويقاصّ، وان يغضب احيانًا مستعملًا الكفّ مرة و «الطبشة» مرات. وان يكن من الغضب ما يُدعى مباركًا فقد كانت احدى غضباته وافرة البركة...

كان ذلك في اوائل هذه السنة. وكان المعلّم يشرح عملًا حسابيًا صعبًا، وقد فرض على التلاميذ الانتباه الكلي، والنظر الدائم الى اللوح الاسود. وما هو ان حانت منه التفاتة الى الصفوف الاخيرة حتى رأى احد «عفاريت» المدرسة منصرفًا كل الانصراف عمّا يجري على اللوح. فهو حاني الرأس، ظاهر الاهتمام، يخطّ بقلمه يمينًا ويسارًا، ثم يتوقف فيتأمل ما خطّه، ثم يعاود

الكرة ويختلس النظرات الى المعلم . فكأنه يرسم صورةً او ينقل مشهداً .
عند ذاك غضب الراهب وانتهره بعنف فـانتبه . الّا انه سرعـان ما عاد الى
« شغله » فعاد الراهب الى الانتهار ، حتى انتهى الى قمة الغضب المبارك ، فتخطى
الصفوف وادّب الغلام وانتزع منه الكرّاس الذي كان يرسم عليه ، فرماه بحنق
على منبره .

وكان ان زار المدرسة ، في المساء ، حضرة الاب انطونيوس شبلي اللبناني ،
متفقداً شؤونها . فاخذ الراهب المعلّم يلقي اليه بمعلوماته مطلعاً اياه على تقدم
التلامذة ، شارحاً ما يلقاه من الصعوبات ، متشكياً من عقبات لا تخلو منها مدرسة . . .
وانتهى بان روى له حادثة صفّ الحساب ، وكانت لا تزال على طراوتهـا في
ذاكرته ، واطلعه على ذاك الكرّاس المشؤوم . وما هو ان القى عليه الاب شبلي
نظره حتى عرف به المخطوطة التي يهمّنا امرها اليوم . فاهداها الينا عند رجوعه .

المخطوطة

كرّاس صغير من الورق العادي « أثر جديد » . يبلغ طوله نحو ١٩ سنتيمتراً ،
وعرضه نحو ١٢ سنتيمتراً ، ولا غلاف له . تضمّن ١٧ ورقة استُعملت كلهـا
للكتابة على الوجهين ، واشتملت الصفحة منهـا على ١٧–١٩ سطراً ، شاغلة
١٤–١٥ سنتيمتراً طولاً ، و٧–٧٨ سنتيمترات عرضاً . والكرّاس بحالة حسنة ،
وان كان مصفرّ الورق . الّا ان في طرف الورقة الاولى خرقاً ذهب بثلاث كلمات
في اوائل الاسطر ٥ و٦ و٧ من صفحتها الثانية ، كما يظهر في الرسم ١ . وقد
اجتهدنا في اعادتها ، واضعينها بين معقّفين [ ] . ولم تتأثر الصفحة الاولى بشيء من
هذا الخرق ، لانها خصّت بالعنوان فقط وهو بعيد عنه . وكذلك تأثرت الصفحة
الثانية من الورقـة الاخيرة بحبر سقط عليهـا فطمس ستّ كلمات تمكنّا من
اعادتها بالقرينة ، وقد وضعناها ايضاً بين معقّفين .

اما الخطّ فهو فارسي واضح على قسط من الاتقان . وقد استُعمل فيـه
الحبر الاسود العادي ، الّا في الابيات الشعرية فالحبر الاحمر . ولا شكّ في انه

خطّ المؤلف ، الشيخ ناصيف اليازجي الوارد اسمه في اول المخطوطة ، كما يبدو حالًا لمن ألف هذا الخطّ ، او كان مطّلعاً على شيءٍ من آثار الشيخ بخطّه . ولم نعرض الرسالة على احد من مؤرخي الادب وعلماء المخطوطات في مدينتنا ألّا حكم بانها من خطّ الشيخ ناصيف.

وقد صوّرنا الصفحة الاولى منها ، وصوّرنا معها بيتين من الشعر يحملان امضاء الشيخ لتسهل المقابلة على من اراد ذلك ، فيتحقق الشبه التام من الكلمات المشتركة في النصّين، على كون خطّ البيتين اكبر قليلًا من خطّ الارجوزة.

واذًا فانّ للرسالة قيمةً جليلةً بالنظر لكونها الوحيدة الراقية الى عصر المؤلف صادرةً عن يده ، حاملةً اثر اعتنائه العقلي والمادي . ولهذا كانت رغبتنا شديدةً في نشرها تامة . لان ما نُشر سنة ١٩٠٢ ، في مجلة « الطبيب »[1] في باب « المتفرّقات » ، تناول الابيات دون الشرح ، ولم يخلُ من التصحيف كما سترى . ولعلّ الناشر لم يعرف الشرح الذي نثبّته اليوم بالطبع مع المتن لاول مرة ، حراصاً على ابرازه كما خرج من يد المؤلف ، متقيّدين حتى بالنقط التي فصّل بها الشيخ ناصيف فقراته ، وبالحركات التي زيّن بها كلماته ، مستغنين عن الحواشي المشيرة الى اختلاف الروايات — الّا ما كان منها اشارة الى منشور «الطبيب» — لكون نسختنا هي الوحيدة بخطّ المؤلف.

المؤلف

اما عن المؤلف (١٨٠٠–١٨٧١) فلا نطيل الكلام ، بعد ان افضنا في «المشرق»[2] عن حياته ، وآثاره ، وقيمته عالمًا وشاعرًا. فليرجع الى ذلك من شاء.

---

١) الطبيب : مجلة طبية علمية صناعية . صاحب امتيازها الدكتور جورج بوست ؛ مديرها ومحررها الدكتور اسكندر البارودي . السنة الرابعة عشرة : الجزء الرابع : اول ايلول ١٩٠٢ ، ص ١٢٥ و١٢٦ ؛ والجزء الخامس : اول تشرين الاول ١٩٠٢ ، ص ١٥١ و١٥٢ .

٢) المشرق (٣٦ [١٩٣٨] : ٨٣٤-٨٤٣ و٩٢٢-٩٣٦) ؛ واطلب ايضاً الجزء الحادي والعشرين من « الروائع » المخصوص بالشيخ ناصيف اليازجي.

على اننا نشير الآن الى ان الشيخ تلقى، في ما تلقاه عن ابيه ، فنّ الطب القديم ، وكان ابوه يطبّب على مذهب ابن سينا ، فحفظ المبادئ ولم يحترف المهنة ، على ما يظهر . حتى اذا شاهد ميل اهل البلاد الى الاخذ بمرافق المدنية العصرية بما فيها من علوم واساليب ، وتحقق « اشتغال الناس بالطبّ الجديد لانهم يعتقدون انه هو الطبّ المفيد» ، اشفق على الطبّ القديم « الذي خبت في هذا العصر ناره ، ونبت داره . فصار اذلّ من وتد ، بعد ما كان اعزّ من جبهة الاسد » ، فنظم الارجوزة وشرحها ، وسمّاها « الحجر الكريم في اصول الطبّ القديم » [1] ، جاعلًا اياها « كالخلاصة من الاصول التي تتشعب منها الفروع» ، سائرًا على « مذهب اطباء العرب الذين نقلوا عن اطباء اليونانيين» [2]. وكان ذلك سنة ١٨٥٦ ، وعمر المؤلف ست وخمسون سنة .

فواضحٌ اذًا ان عمل الشيخ لا يرمي الى تأليفٍ علمي محض ، ولا الى بسط مذهب تعليمي . انما هو من نوع التمرين العقلي شغل فيه قريحته النظمية بالمعروفات الطبية ، كما قد يكون شغلها بالاصول النحوية ، او بالقياسات المنطقية .

وعلى هذا فاننا نزف الارجوزة الى اطبائنا الكرام ، والى من يهتم تاريخ الطب القديم من ادبائنا الافاضل .

---

١) الطب توطئة الارجوزة في الورقة [١ ق]

٢) الطب خاتمة الارجوزة في الورقة [١٧ ق]

[١ و]

الحجر الكريم

في اصول الطب

القديم

[١ ق] بسم الله الشافي

الحمد لله الذى خلق الدآء والدوآء . وامات واحيى من يشآء . امّا بعدُ فيقول العبد الفقير ناصيف بن عبد الله اليازجى اللبنانيُّ اننى قد وضعت هذه الارجوزة على منهج الطب القديم الذى خَبَت فى هذا العصر نارهُ . ونَبَت دارهُ . فصار اذلَّ من وتد . بعد ما [كان] اعزَّ من جبهة الاسد . وذلك لاشتغال الناس بالطبّ الجديد . [لانهم] يعتقدون انهُ هو الطبُّ المفيد . وقد علّقت على هذا المتن [شرحاً] تنكشف به مقاصدهُ . واضفت اليهِ زيادات تتمّ بها فوائدهُ . وسمّيتهُ الحجر الكريم . فى اصول الطبّ القديم . وانا التمس من ذوى الانصاف ان يتلقّوهُ بالقبول . ولا يحسبوهُ من الفضول . وبنآء على ذلك اتقدّم فاقول

الطبُّ علمٌ يستردُّ الزائله من صحّة الجسمِ ويُبقى الحاصله

ذكرنا في هذا البيت تعريف الطبّ بعلّتهِ الغائية . وهى استرجاع الصحّة الزائلة وهو الاكثر . وحفظ الصحّة الحاصلة وهو الاقلُّ . لان الطبيب يُدعَى غالباً لازالة المرض عن المريض . لا لحفظ الصحّة على الصحيح كما لا يخفى

[٢و] ٢ وَهوَ على العلمِ انطوى والعملِ فالعلم منه[١] نظرٌ في العِلَلِ

٣ والعمل القانون فى العلاجِ ليستقيم أَوَدُ المزاجِ

١) منه : وفي « الطبيب » : فيه

اى ان الطبَّ ينقسم الى العلم والعمل . فالعلم هو النظر في حقيقة الامراض واسبابها وعلاماتها . والعمل هو معرفة قوانين العلاج . إمَّا بالـدواء كالانضاج والاسهال والحبس ونحو ذلك . او باليد كالفصد والحجامة والشرط وما اشبه

٤ وذلـك المزاج بالاخـلاطِ يقومُ بالعـدلِ أوِ الإفراطِ

٥ والخلط فى ابداننا هو[1] الدمُ والمِرّتانِ[2] وكـذاك[3] البلغمُ

اى ان المزاج يقوم بالاخلاط التى فى ابداننا . وهى الدم وهو حارٌّ رطب . والصفراء وهى حارَّةٌ يابسة . والسوداء وهى باردة يابسة . والبلغم وهو باردٌ رطب . فيعادل كلُّ نقيض منها نقيضهُ . وبذلك يحصل من مجموعهـا المزاج الذى يقوم به البدن . وباعتبار هذه الكيفيَّات المذكورة يعبّرون عن الدم بالهواء . وعن الصفراء بالنار . وعن السوداء بالتراب . وعن البلغم بالماء . فيقولون ان البدن مركَّبٌ من هذه الاربعة ويسمّونها الاركان . وباعتبار هـذا التركيب يطلقون عليها العناصر ايضاً لا باعتبار كونها بسيطـةً كما يتوهَّم من يعترض عليهم . ويفرضون لهذه الاخلاط مقادير فى البدن بحسب الوضع . فيقولون ان [٢ ق] البلغم سدس الدم . والصفراء سدس البلغم . والسوداء ثلثة ارباع الصفراء . وهاتان همـا المراد بالمرَّتين فى النظم . والمزاج يكون على حسب هذه الاخلاط فان اعتدلت على حسب وضعها الطبيعى كان معتدلاً . والّا فلا. واعلم ان من هذه الاخلاط ما هو طبيعىٌّ . ولهُ من الكيفيَّة والمقدار مـا ذكرناهُ . ومنها ما ليس كذلك . اما الصفراء فمنها حمراء ناصعة وهى الطبيعيَّة . ومنها مِحِّيَّةٌ[4] اى شبيهةٌ بمحّ البيض اى صفرتهِ . ومنهـا كرّاثيَّة اى زرقاء كاون الكرّاث . ومنها زنجاريَّةٌ اى خضراء كاون الزنجار . والحمراء الناصعة هى رغوة الدم وتتولّد فى الكبد . والمِحِّيَّة[4] تتولّد من مخالطتها المائيَّة ولذلك

١) هو : وفي « الطبيب » : وهو

٢) والمرّتان : وفي « الطبيب » : والمدّتان ، وهو تصحيف ظاهر .

٣) وكذاك : وفي « الطبيب » : وكذلك ، وهو خطأ واضح

٤) مِحِّيَّة : كذا بخط الشيخ ناصيف ، بكسر الميم . وفي كتب اللغة : المُحّ ، بضم الميم : صفرة البيض

هي اقلّ حرارةً . والكرّاثيّة تتولّد في المعدة وهي اكثر حدّةً . والزنجاريّة تتولد من شدّة الاحتراق وهي اشدّ الجميع حرارةً واكثر رداءةً . وامّا السوداء فنها ما هو طبيعيٌّ وهو درديّ الدم وعكرهُ . وهذه خالصة البرودة واليبوسة . ومنها ما هو خارجٌ عن الطبيعة . وهو ما تولّد عن احتراق الاخلاط . وهذه شديدة السخونة والجفاف رديّة الكيفيّة . وامّا البلغم فنهُ ما هو تفهٌ اي لا طعم لهُ وهو الخلط الاصليّ . ومنه ما تغلب عليه الحرارة فيكون حلوًا . فان اشتدّت كان مالحًا . او يغلب عليهِ البرد فيكون حامضًا . فان اشتدّ كان [٣ و] زجاجيًا اي كقطع الزجاج . والتفه منهُ خالص البرودة والرطوبة . والحلو يميل الى الحرارة والرطوبة . والمالح اشدّ حرارةً واقلّ رطوبةً . والحامض يميل الى البرد واليبس . والزجاجيّ اغلظ قوامًا واشدّ برودةً . وكل ما سوى الطبيعيّ من هذه الاصناف متفرّعٌ منه لاعراضٍ اخرجتهُ عن وضعه . أمّا الدم فهو صنفٌ واحدٌ غير ان حرارتهُ تزيد او تنقص بحسب غلبة ما سواهُ من الاخلاط . وهو الخلط الاصليّ والغذاء الحقيقيّ وبهِ قوام الحيوة . والثلثة الأُخر فضلةٌ وتوابع لهُ . وهو يتولّد ممّا نضج من الكيلوس اي خلاصة الطعام . ومحلّهُ العروق والشرايين . والبلغم يتولّد من الكيلوس القاصر النضج . ومحلّهُ فم المعدة . والصفراء تتولّد من الكيلوس المتجاوز النضج . ومحلّها المرارة . والسوداء تتولّد من الكيلوس المترمّد . ومحلّها الطحال . ولذلك يقولون ان الدم كنضيجٍ . والبلغم كنيٍّ . والصفراء كمحترقٍ . والسوداء كمتجاوز الاحتراق . ولا يخلو الدم من ممازجة شيءٍ له من بقيّة الاخلاط لتلطيفهِ بالصفراء . وتسليسهِ بالبلغم . وتماسكهِ بالسوداء . ولذلك ترى الدم المُستفرَغ في الاناء يطفو على وجههِ رغوةٌ وهي الصفراء . ويرسب في اسفلهِ عكرٌ اسود وهو السوداء . ويتعلّق بينهما خطوطٌ بيض مشتبكة وهي البلغم

٦ يعتدل الجسمُ لدى اعتدالها   فيهِ ويختلُّ لدي اختلالها

٧ والكلُّ باستفراغهِ يُداوَى   ان زاد او اصلاحهِ ان ساوى

[٣ق] ٨ فان لقي الزيادةَ التعفُّنُ فيهما علاجهُ يُبيَّنُ

اى ان الجسم يعتدل فى صحّته عند اعتدال هذه الاخلاط جارية على حسب وضعها . وينحرف عن الصحّة عند انحرافها عن المجرى الطبيعي . وكلّ واحدٍ منها اذا زاد عن مقداره يُداوى بالاستفراغ حتى يرجع الى القدر الموضوع لهُ . واذا فسد بدون زيادة يُداوى باصلاحه حتى يرجع الى الصلاح الذى كان عليهِ . فان اجتمع مع الزيادة التعفّن كما يكون فى الحُميّات عُولج بالاستفراغ لتنقيص الزائد . والاصلاح لتعديل المتعفّن بانتزاع الفساد منهُ

٩ واكثر الامراض عنها يصدرُ[١] وما اتى عمّا سواها يندرُ

اى ان اكثر الامراض يحدث عن الاخلاط المتولّدة عن الطعام والشراب اذا خرجت عن مجراها الطبيعي . وعلى ذلك قول الشاعر

عدوُّك من صديقك مستفادٌ فلا تستكثرنَّ من الصحابِ

فان السقم اكثر ما تراهُ يكونُ من الطعام أو الشرابِ

وقد بنى ابن فائدٍ كتاباً فى الطبّ على آية من القرآن يقول فيها كلوا واشربوا ولا تسرفوا[٢] . ومنه الحديث فى كتاب الطبّ النبوى ان المعدة بيت الدآء والحمية راس كل دوآء . وما حدث من الامراض عن غير ذلك فهو نادرٌ او راجعٌ اليهِ

١٠ واكثر الصادر عنها الحُمّى عند اشتعال[٣] بعد عفنٍ يحمى

[٤ و] اى ان اكثر الامراض التى تحدث عن الاخلاط هو الحُمّى . وذلك يكون عند اشتعال الاخلاط التى قد تعفّنت فعملت فيها الحرارة كما يكون فى السرقين الرطب المجتمع ونحوهِ . ومن ذلك تحدث الحُمّى . فان كان الاشتعال شديداً تقدّمها البرد النافض كما يحدث لمن صُبّ عليه المآء الشديد السخونة . وان

١) يصدرُ : وفي « الطبيب » : تصدرُ

٢) « يا بني آدمَ خُذوا زينَتَكُم عندَ كلِّ مسجدٍ وكُلُوا واشرَبوا ولا تُسرِفوا إنّه لا يُحبُّ المُسرفين . » (القرآن ٧ [الاعراف] ٢٩)

٣) اشتعال : وفي « الطبيب » : اشتغال ، وهو تصحيف ظاهر .

كان خفيفاً تقدّمتهُ قشعريرةٌ او بردٌ في الاطراف . واعلم انهم عرّفوا الحُمّى بانها حرارةٌ غريبة تشتعل في القلب وتنبثُّ منهُ بتوسّط الروح والدم في العروق والشرايين في جميع البدن . وقسموها الى حُمّى مرض وحُمّى عرض . وقسموا حمّى المرض الى حُمّى العفونة وهي تتعلّق بالاخلاط . وحُمّى الدقّ وهي تتعلّق بالاعضاء . وقسموا حُمّى العَرَض الى خارجيَّة وهي ما كانت عن سببٍ خارجٍ كالغضب . وهي تتعلّق بالارواح . ويُقال لها حُمّى يوم لان نوبتها تكون في الغالب يوماً واحداً ولا تعود . وبدنيَّة وهي الحادثة عن الاورام ونحوها . ويُقال لها الحُمّى التابعة

١١ وذاك يجري غالباً في المِعْده تنوب معهُ مُدَّةً فمُدَّه

اي ان الاشتعال الصادر عن تعفُّن الاخلاط يكون غالباً في المعدة . وحينئذٍ يُقال لها المُتوقّد بصيغة اسم المكان . والحُمّى الحادثة عنه تاخذ مدّةً وتترك مدّةً . وذلك انها تاخذ عند اشتعال الاخلاط . وتنقضي عند فناء ما اشتعل منها [٤ ق] الى ان تجتمع طائفةٌ اخرى فيتجدَّد ذلك الاشتعال وتاخذ في نوبةٍ اخرى . كما تتوقّد النار عند اشتعال الحطب وتخمد عند ترمُّدهِ الى ان يُطرح لها حطبٌ آخر فتعود الى الاشتعال . والخلط الفاعل لهذه الحُمّى هو ما سوى الدم من الاخلاط لان مُتوقّده لا يكون في المعدة كما ستعلم

١٢ وما عن البلغم يوميّاً يَرِد وما عن الصفراء غبّاً يفتقد

١٣ وتترك السوداء يومين سِدَى[1] والكلُّ بالاسهال عالج ابدا

اي ان الحُمّى الحادثة عن البلغم تنوب كلَّ يومٍ . وذلك لكثرة البلغم ورطوبتهِ الداعية الى التعفُّن . والحادثة عن الصفراء تنوب يوماً بعد يومٍ لانها اقلُّ منهُ وابعد عن التعفن ليبوستها . ويُقال لها حُمّى الغِبّ . والحادثة عن السوداء تنوب يوماً وتترك يومين لانها اقلُّ الاخلاط وابعدها عن الاشتعال . ويُقال لها حُمّى الربع لانها تاخذ في الثلثة الايام ثاني عشرة ساعةً وهي ربع

١) سِدَى: كذا بخطّ الشيخ ناصيف ، بكسر السين . وفي كتب اللغة : سُدى ، بالضمّ .

الاثنتين والسبعين ساعةً التي تشتمل عليها الايام المذكورة . وكلّ هذه الحُمّيات الثلاث تُعالَج باستفراغ الخلط الفاعل وهو العمدة في علاجها

١٤ وفي العروق ذاك طورًا يجثمُ وهو يكون عن دمٍ فيلزمُ

١٥ وعن سواهُ في القليل يحصلُ والفصد في الكلِّ علاجٌ يشملُ

[ه و] اى ان مُستوقَد الحُمّى يكون احيانًا في العروق . وذلك يكون غالبًا من تعفُّن الدم وغليانهِ . فتكون الحُمّى الحادثة عنهُ لازمةً لا تفتر . ويُقال لها المُطبِقة . وقد يكون عن تعفُّن احد الاخلاط المصاحبة للدم في العروق فتكون الحُمّى الحادثة عنه لازمةً ايضًا . ويُقال للصفراويّة منها المُحرِقة . وللبلغميّة اللثِقة . وللسوداويّة الربع اللازمة . وكلُّ ذلك يُعالَج بالفصد لان المسهل لا سبيل لهُ الى استفراغ ذلك الخلط

١٦ وربّما نائبةٌ تُركّبُ مع مثلها او ضدّها تستصحب

١٧ فركِّبِ العلاج مع كلٍّ بما عُولج في الإفراد[1] كلٌّ منهما

اى ان الحُمّى النائبة قد تتركّب مع نائبة اخرى . وذلك عند تعفُّن خلطين معًا . فتاخذ كلٌّ واحدةٍ في طريق نوبتها كما تتركّب الحُمّى الصفراويّة مع البلغميّة فتنوب الحُمّى كلَّ يوم بحسب نوبة البلغميّة . وتشتدّ يومًا بعد يوم بحسب نوبة الصفراويّة . وعلى ذلك تكون النوبة يوم انفراد البلغميّة خفيفةً بالنسبة الى يوم اجتماع الصفراويّة معها فانها تكون اثقل . وهذه الحُمّى هي التي يُقال لها شطر الغِبّ وقد تتركّب الحُمّى النائبة مع اللازمة . وذلك عندما يكون التعفُّن في المعدة والعروق جميعًا . فتكون الحمّى دائمةً غير انها تشتدّ في يوم نوبة الخلط المتعفّن [ه ق] في المعدة بحسب نوبتهِ . وعلى ذلك يجب ان يُركَّب العلاج ممّا تعالَج به كلٌّ واحدةٍ منها لو كانت مفردةً

١٨ برِّد ورطِّب أنضِجِ افصُد[2] أسهلِ عرِّق وقطعُ الدور ان دام يَلي

١) في الإفراد : وفي « الطبيب » : بالافراد

٢) افصُد : كذا بخط الشيخ ، بضمّ الصاد . وفي كتب اللغة : فصد يفصِد ، بالكسر .

١٩ وَهْوَ عِلاجُ الْحُمَّياتِ مطلقا كلٌّ بما اقتضاهُ ممّا سَبَقا

اى ان علاج الحُمّيات مطلقاً يكون بالتبريد والترطيب والانضاج والفصد والاسهال والتعريق كلٌّ واحدةٍ بحسب ما تقتضيه من هذه المذكورات. فان لم تنقطع النوبة بعد ذلك يُعطَى ما يقطعها من الادوية . ولا يجوز اعطآؤهُ قبل استيفآء ما ينبغى من هذه المعالجات الا اذا سقطت قوّة المريض فلم يحتمل التمادى فى العلاج . ويدخل تحت هذا الاطلاق حُمّى الدقّ وحُمّى اليوم فان علاجها يكون من هذا القبيل على حسب مقتضى الحال. واعلم انّ من الاطبّآء من يختار اعطآء المسهل فى يوم نوبة الحُمّى لان الاخلاط حينئذٍ تكون ثائرةً فيستفرغ منها ما لا يستفرغهُ فى وقت الفترة . ومنهم من يختار اعطآءه فى يوم الفترة لئلا تنضغط الطبيعة باجتماع الحُمّى والاسهال عليها فتضعف بازآء المرض . فان كانت الحُمّى تنوب كلَّ يوم اجتهد ان يسبق مجيء النوبة ما امكن . وعلى هذا شاع الاستعمال عند الاطبّآء حرصاً على القوة

[٦ و] ٢٠ ولا تبالغ حينما تُبرِّدُ فتمنعَ النضجَ بما تُبلِّدُ

٢١ كذاك فى التعريق حرصاً واجعلِ لكلِّ خاطرٍ ما لهُ من مسهلِ

اى اذا اقتضى الحال التبريد لا يجوز الافراط فيه لانه يبلّد المادّةَ فيمنع النضج . لان الانضاج كالطبخ الذى يتمّ بحرارة النار ورطوبة المآء . وكذلك لا يجوز الافراط فى التعريق لان كثرة العرق تنهك قوّة المريض فيستظهر المرض عليها . وذلك يشمل تدبير الحُمّيات وغيرها من الامراض

٢٢ ودور حُمّى العفن ان تعدّى يوماً وليلا فعليك الفصدا

٢٣ وحيثما تفصدُ[١] فلا تستكثرِ نَزْفاً وان بعدُ اقتضى فكرّرِ

اى اذا تجاوز دور الحُمّى النائبة اربعاً وعشرين ساعةً وجب الفصد لان ذلك لا يخلو من مشاركة العروق . اذ ليس من ادوار هذه الحُمّى ما ينتهى

---

١) راجع الحاشية ٣ فى الصفحة السابقة

الى هذا المقدار . وحينئذ فصدت اى فى جميع الحُميات لا تستكثر من اخراج الدم حرصاً على حفظ القوَّة وحذرًا من تغلُّب بقيَّة الاخلاط . فان اقتضى الحال بعد ذلك تكرار الفصد لقصوره اولًا عن قضاء الحاجة كُرِّر ثانياً . فيكون ذلك اروح للطبيعة واخفَّ عليها

٢٤ ومـا يخصُّ احد الاعضاءِ   فى بـدنٍ من سائر الادواءِ

٢٥ فقد يكونُ من مزاجٍ سادجٍ   او غيرهِ من داخلٍ او خارجٍ

٢٦ فاستعرف الاسباب بالدلائلِ   واستفرغ امتلاءَهـا وقابلِ

[٦ ق] اى ان ما يختصُّ باحد الاعضاء من الامراض قد يكون من مزاجٍ سادجٍ كضعف الكبد الذى يكون عن سوء مزاجٍ بسيطٍ لا مادَّة معهُ . وقد يكون من مادَّةٍ كوجع المعدة الحادث من انصباب اخلاطٍ مراريَّة اليها . وكلاهما قد يكون عن سببٍ داخليّ كالصداع التابع للحُمّيات . او خارجيّ كالتشنُّج الحادث من ملاقاة الرياح الشديدة البرد . فيجب ان تُتعرَّف الاسباب المجهولة بالعلامات التى تدلُّ عليها . وحينئذٍ يُستفرَغ الامتلاء . ويُقابَل المزاج الحارّ [بالبارد] والبارد بالحارّ . واعلم ان الاسباب تنقسم عند الاطبَّاء الى السابقة وهى المتقدّمة التى يحدث عنها المرض بعد انقضائها كالامتلاء الذى تحدث عنه الهيضة . والواصلة وهى الحاضرة التى يُوجَد المرض بوجودها ولا يزول الا بزوالها كالعفونة التى تحدث عنها الحُمّى . والبادية وهى الخارجيَّة كالحرّ الشديد الذى يحدث عنه الصداع ونحو ذلك

٢٧ فما[1] يَكُنْ محتبساً فى الراسِ   فذاك يستفرَغُ بالعُطـاسِ

٢٨ واستعملوا غرغرةً للحلقِ   وهكذا الفصدُ لما فى العرقِ

٢٩ ونفثُ ما فى الصدر والقيُّ لما   فى معدةٍ مستوطنًا منها الفما

٣٠ وما انطوى فى جوفها بالمسهلِ   يُلقى وبالحقنة ما فى الاسفلِ

---

١) فما : وفي « الطبيب » : فمن

٣١ وما استقرَّ تحت جلدٍ بالعَلَق   وما تخلَّل الحبايا بالعرَق[1]

[٧ و] اى ان ما كان من الفضول محتبساً فى الراس يُستفرَغ بالعطاس. وما فى الحلق بالغرغرة . وما فى العروق بالفصد . وما فى الصدر بالنفث . وما فى المعدة بالقئ . وما فى فضآئها بالاسهال . وما فى الامعآء السُفلى بالحُقَن . ومـا استقرّ تحت الجلد بالعَلَق . وما تخلَّل مكامن الاعضآء بالعرق . وذلك يكون بان يُستعمل لكل استفراغٍ ما يستدعيه كثمّ الكُندُس للعطاس وغير ذلك من الوسائط فتدبّر

٣٢ وقابلِ البارِدَ بالحارِ كما   فى رطبٍ ويابسٍ واعكسهما
٣٣ والحارُ غيرُ تَفِهٍ وحامضٍ   وغير ذى عفوصةٍ وقابضٍ
٣٤ واليبس دون تَفِهٍ حلوٍ[2] دسِم   وذاك فى الاصل وبعضٌ ينخرم

اى ان البارد يُقابَل بالحار . والرطب يُقابَل باليابس . وكذلـك يُدبَّر بالعكس فيُقابَل الحار بالبارد . واليابس بالرطب . والحار من ذوات الطعوم التى يُتداوَى بها هو ما سوى التفِه والحامض والعَفِص والقابض فان هذه الاربعة كلّها باردة فيندرج فى الحار الحلو والمرّ والمالح والحريف والدسِم . واليابس ما سوى التفِه والحلو والدسِم فان هذه الثلثة رطبة والبواقى كلها يابسة. وذلك بحسب الاصل الذى يجرى عليه القياس فلا عبرة بما خرج عنهُ كالهندبآء فانها مع مرارتها باردة رطبة . [٧ ق] والبابونج فانه مع تفاهته حارٌ يابس . واعلم ان كلّ واحدٍ من المرّ والمالح والحريف والحامض والعفص والقابض لا يكون الا يابساً . وكل واحـد من التفه والحلو والـدسم يكون في الغالب رطباً . وما ليس كذلك فقد جرى على خلاف القياس

١) ورد هذا البيت في « الطيب » قبل البيت السابق
٢) حلوٍ : وفي « الطيب » : حلوٌ

لها صلة

من مظاهر الادب العصري

القصص والحكايات المصرية

عن المستشرق جيب[1]

عثان جلال ، احمد شوقي ، محمد ابراهيم المويلحي ، محمد حافظ ابراهيم ، محمد لطفي جمعة ، حسين هيكل ، عبد الله عنان ، محمد تيمور ، نقولا حداد ، محمد فريد ابو حديد ، المازني .

هؤلاء هم الكتبة القصصيون الذين ألم المستشرق الانكليزي جيب بدرس خاص نشره في مجلة معهد لندن الشرقي في المجلد السابع في قسمه الاول من هذا العام . وقد وددنا لو يتاح لنا رواية درس الاستاذ بكماله لما فيه من تحليل قيّم ، ونظرات ثاقبة ، وعبر يفيدنا الاطلاع عليها مع اخلاص في الروايات ، وصدق في الشهادات . لكننا اقتصرنا على عرض اهم الافكار التي بين فيها المؤلف تنقلاً من الآداب العربية وتاريخها يحمده عليه اختصاصيونا . ولا بد من ان يطلع قراؤنا عليها ، وقد اوردناها مع معرفة قصر الباع في تأدية الكثير مما يروق مطالعته والاضطرار الى الاختصار ، عسى ان يستفيض القراء بمطالعة المتن الاصلي عما انتقصناه . وهذا المقال يكون صلة لما سبق المشرق ونشره في هذا الباب ٢٧ [١٩٢٩] ٦٨٤ ؛ ٢٨ [١٩٣٠] ٢٢٦ و٨٦٢) .

ف . ت .

ما هي العلاقة بين نشأة الفنّ القصصي الحديث ونشأة الاداب العربية العصرية ؟

قد يكون ذلك الفن بدأ في مصر حرًّا ليس فقط من تأثير السوريين ، ولكن من تأثير الفن الاوروبي ايضاً . لان الكتبة المصريين عولوا في البدء خاصةً على القصص القديمة فاتخذوها مثالاً لهم ولم تظهر فيهم مظاهر التقليد الاوروبي الا في مؤلفاتهم الاخيرة . نشأ الفن القصصي عندهم وتطور لا بقوة حركة اجمالية متواصلة ولكن بقوة عمل الاشخاص والافراد .

عديدة هي العلل التي سببت تأخر هذا الفن في مصر ، فمنها الميل للمؤلفات

(1 H. A. R. Gibb, *Studies in Contemporary Arabic Literature* [Bulletin of The Oriental Studies, London Institution, Vol. VII, Part I.]

القديمة ، وقلة عدد القراء مريدي القصص المصرية ، وهم يقرأونهـا في اللغتين الانكليزية والافرنسية . على ان ذلك العدد صار يزيد مع الزمان ويزيد طلبه للقراءة العربية فصاروا يعرّبون له الروايات الانكليزية او الافرنسية ولم يهتموا بالابتكار . بيد ان اقبال القراء على معرّب الروايات مع ما فيها من جفاف ، ومع ابتعاد مواضيعها عن العوائد المصرية ، شجع الكتاب على الكتابة .

***

عرّب عثمان جلال رواية بولس وفرجيني تعريباً حافظ فيه على روح الرواية واساليبها . لكنه تصرّف فيها فعوّض عن الحكم الفلسفية ببعض الاشعار العربية ووافق في ذلك الذوق العربي ففاق نجاحاً المئات من الروايات المعرّبة . ورواية عثمان جلال مسجعة ، وفيها محاسن لم يحصل عليها المنفلوطي في تعريبه للروايـة ذاتها . وان درس تلك الروايات المعربة لا يؤدي تعليمات مهمة على الحياة المصرية الاجتماعية . ولكن لا اقل من الاشارة اليهـا عنـد التفتيش عن نشأة الفن القصصي المصري في مصر .

من مزايا الكتبـة المصريين العصريين القصصيين ان يطعّموا الاسلوب القصصي القديم بمثل موضوع حديث ، مع العناية بالانشاء والتصنع به ، والمثال في ذلك رواية « عذراء الهند » لاحمد شوقي . اخبارها خيالية غير معقولة ، لا في الحوادث ، ولكن في تسلط السحر والشعوذات عليها في كل صحيفة من صحائفها . ولكنها ورثت عن الفن القديم رشاقة الحركة واللطف ، وحيث لم يغال المؤلف في استعمال الخوارق والسحريات الجنية قراءة الرواية لذيذة لما فيها من حركة وحياة . على ان قيمة القصة القيّمة انما هي في الاسلوب الانشائي الخاص بشوقي وانتخـابه الالفاظ الطيبـة التي جعلت له مكانته في الادب المصري . وهناك السجع والقوافي في الكتابة يتخللها الشعر . ويا ليت تلـك الجهود بذلت على مادة تساويها قيمةً ! . . .

ان المقامات لاقرب من غيرها من الاصناف الادبية شبهاً بالفن القصصي وقد صاروا يعالجونها بطريقة عصرية جددت شبـابها . كان ناصيف اليازجي وعبد الله باشا فكري حتى اواخر القرن التاسع عشر قد حافظا فيها على الاسلوب

القديم . ولكن في العشر السنين التي سبقت سنة ١٩١٤ اخذ صنف المقامات يتطوّر ويظهر باسلوب عصري فاصطبغ بصبغة الادب الحديث ولفت انظارنا . اما المثال فيه فكتاب « حديث عيسى بن هشام » لمحمد ابراهيم المويلحي . واساس القصة : ان احد الباشاوات الذي عاش في عهد محمد علي بُعث الى الحياة في القاهرة زمان المؤلف . فاذا هو في محيط اوربي ! فاخذ يقابل بين احوال واحوال وينتقد تقليد الاوروبيين الاعمى . نجح المويلحي لا بسرد القصة ولكن بالاسلوب النقدي . واعيدت طبعة الكتاب وزيد عليها الرحلة الثانية . وهذه تجري حوادثها في باريس ، على ايام معرض ١٩٠٠ . ولعل المؤلف اتى فيها ببعض ما كان كتبه في القسم الاول . ان الكتاب نال شهرته خاصةً من انشائه اللتاع ومن قوة وصفه . فانه سبق المقامة بحذاقه العصري وملاحة ذوقه ومزج بين السجع الفصيح وبين اللغة العامية في التخاطب. واسدل على السجع حلةً عصرية ، فانستنا الصبغة القديمة . وقد يضاهي المويلحي المنفلوطي رونق انشاء ويفوقه احياناً.

محمد حافظ ابراهيم (١٨٧١–١٩٣٢) زميل شوقي في عالم الشعر . الف « ليالي سطيح » . وهذه تمتّ الى صنف المقامات . تجري حوادثها بين جماعة يتجاذبون اطراف الحديث على الاحوال العصرية . وما بينهم يسمع صوت يتصدى الى اقوال العقل ، وهو لسان حال الناقد . ولم يواصل المؤلف عنايته حتى نهاية الكتاب انشاء فترك السجع الذي كان في اوائله . وكأن القراء استحبوا سذاجة الحديث فاستقبلوا الكتاب بالترحاب.

محمد لطفي جمعه كتب « ليالي روح الحائر » وقد ناله نفوذ المدرسة الاميركية السورية ، فاستعمل الشعر المنثور . وجعل الكلام في كتابه على لسان روح لا جسم له ، ونقد الحياة المصرية الاجتماعية . وهو ايضاً على رونق انشائه لم يعطِ المادةَ قيمةَ الصورة.

في هذه المؤلفات مجهودات توافرت ، فتطوّر بها صنف جديد في الادب لبى طلب الجمهور وسدّ احتياجاته ، لما فيه من اتصال بمشاكل الساعة والغد ، وقد يستمدّ رونقه من مخيلة الكتاب . على انهم لم يعالجوا المشكل بالنجاح ،

وكانت لهجتهم بلغة فصحى ابعد من ان ينالها فهم العامة، وعوض ان يكشفوا على آفاق جديدة ويداووا اسقام الحياة ويسدوا احتياجاتها اكتفوا بان نبهوا الافكار الى تلك الاحتياجات واتبعوا نسق التعليم والارشاد فنظروا الى الادب نظرات القرون الوسطى فاكتفوه بالوعظ والارشاد، وسواء اتبعوا الاسلوب القصصي القديم او ترجوا كعثمان جلال او المنفلوطي. والكتبة القصاص السوريون ذواتهم لم يمتنعوا دون ذلك النقص، وقد تظهر تلك المهمة حتى في القصص الغرامية التي دخلت في عالم النسيان منذ عهد بعيد. ومما اثر في تباطؤ نمو هذا الصنف احتقار المتمسكين بالادب القديم له

***

وفي غضونها دخلت اول قصة، او رواية مصرية حقيقية في العالم الادبي غفلةً. ولم تلفت نظر العلماء المشغفين بالقدم. وهي قصة زينب. الفها حسين هيكل وهو شابٌ طموح الى النجاح. ولم يرد ان يستعرفها من قلمه فلم يوقع اسمه عليها لئلا تحول دون نجاحه في المحاماة. رواية زينب ظهرت فقطعت الصلة لغةً وانشاء وموضوعاً ونسقاً مع كل ما كان قد سبق من امثال ذلك في اللغة العربية. ليس بين هيكل وزيدان لو فرح انطون من صلة. وما كتابه الا قصة ابنة مصرية، وفي تفاصيل حياتها عدة حوادث مأخوذة من الحياة الاهلية في الدلتا: زينب زوَّجها اهلها بالرغم منها الى حسن. فاطاعت وظلّت امينة نحو زوجها. لكنها كانت قد مالت الى شاب قبل زواجها فحفظت لذلك الشاب ودادها وماتت كمدًا لما حشد في الجيش. في هذه الرواية نقائص شتى لكنها انموذج لادب جديد وحقيقة بنقد خصيص.

ان بناية هذه الرواية شائقة من واجهتين: الواجهة النفسية والواجهة الوصفية. اما الواجهة النفسية فالغاية منها البحث على رد فعل النفس المصرية تجاه الظروف المعاكسة.

لم ينجح المؤلف نجاحاً باهرًا في درسه، والشخصيات التي ادخلها على مسرح الرواية لا تبرز في اطوار مشتبكة تؤدي مادةً للبحث والتقليب، الا شخصية حامد وهو ممثل على ما يظهر المؤلف نفسه. وضعيف ايضاً عمل تحريك الادوار

في مختلف المشاهد ومن ثم لم يتمكن المؤلف من التبسط في تحليل الاحوال النفسية فاشار اليها عرضاً وتلميقاً ، وبضمير الجمع المتكلم فتم عن افكاره الشخصية ليس الا ، وكذلك في الوصف . كتب كتابه وهو حبيس غرفته، مريض في باريس ، فترك العنان الى مخيلته وذهب يصف مطولاً مصر ومشاهدها وطبيعتها واسهب حتى املّ القارئ . على ان المصريين احبوا ذلك الوصف على طوله ، وذوقهم في تقدير اوصاف بلادهم واخلاقها غير ذوقنا . وللمؤلف نظرات اجتماعية تزيد في كمال الرواية ، وعليها يلوح شبح هذه الفكرة : ان الشرور علتها كلها في بعض العوائد القديمة التي لم يريدوا ان يغيروها مع ان الدهر اكل عليها وشرب . وهذا التحليل لا يتعب القارئ كالوصف السابق ذكره ، وقد يأتي الكلام عفواً ويحمله على تحليل الاخلاق الاجتماعية والتربية النسائية وعلى اضرار النساء في الانعزال عن الحياة الاجتماعية . . وهناك ذم التربية التي تصير بمعزل عن احتياجات الحياة وهجو الاطباء وشيوخ الطرق الخ . . .

ويمتاز الانشاء بانتخاب الالفاظ والتراكيب النحوية . ويتأثره بالانشاء الافرنسي ، وقد اقر هيكل المتخرج من باريس بالصعوبة في كتابته بالعربية وتلك الصعوبة بيّنة . وقد يستعمل اللغة الدارجة اذا ما ادخل يشخصين من اهل العامة ويترك لذوي الخاصة من الذين تعلموا لهجتهم المعروفة .

اما مسرح المخيلة في هذه الرواية فاضيق مما هو معهود في امثالها في اللغات الاوروبية . وقد يطغي على ذلك المسرح تيار عواطف المؤلف المتقفي آثار الافرنسيين فكانه يعرب او يتصرف باصل افرنسي . ومع ذلك فالكتاب مصري حقاً ، فهو من مؤلف مصري ولقراء مصريين وعقدته الوسطى مأخوذة من موضوع مصري .

لما ظهر الكتاب سنة ١٩٠٠ لم يلتفت اليه الا قراء الخاصة . ولكنهم اعادوا طبعته سنة ١٩٢٩ عند طلب الجمهور ، فازدادت قيمته بتوقيع اسم المؤلف عليه زيادة العاطفة الوطنية ، وظهوره موضوعاً لرواية سينمائية .

وصار الكتاب في غضونها هدفاً للتقريظ والنقد . على ان مقالات هيكل وعبد الله عنان في السياسة الاسبوعية في اوائل السنة ١٩٣٠ كانت اهم من

رواية زينب فيما يخص بشكل نمو الرواية في مصر الذي عنينا بمعالجته .

ـ ان للمصريين غريزة فطرية للحكايات والقصص ، فلماذا نصيب القصص قليل من الحياة الادبية العصرية . هناك عدة اسباب : منها قلة مقدرة المخيلة الناشئة ، والفرق بين لغة التخاطب ولغة الرواية او الادب ، وقلة عدد الكتبة المصريين . ولكن في الحقيقة ليست تلك هي الاسباب المفسرة عدم نجاح الفن القصصي في مصر .

بل هي في نظر هيكل بلك كثرة عدد الاميين، وقلة ما يشجعون الكاتب الرواني ماديا وادبيا ، وقلة ما تؤديه له الطبقة النافذة الكلمة والغنية من المساعدة ؛ ولعل ذلك الفتور متأت من النساء لانهن لم يساعدن على الادب القصصي مساعدة النساء الافرنجيات في القرنين السابع عشر والثامن عشر في فرنسة . اضف الى تلك العلل علة مزاحمة قادة الفكر ومنافرتهم المتواصلة في مصر . واهتمام الناس بالامور الاقتصادية والسياسية فحسب ، واهتمام الكتبة بجرائدهم بالاخبار السياسية اولا ! كل ذلك يحول دون مساعدة الكتبة على التأليف والاختصاص ومن ثم لا صنف حقيقي للادب الرواني العصري في مصر .

اما عنان فلم يشاطر هيكل افكاره كلها بل وضع سبب تأخر الصنف الرواني في حالة المرأة المصرية وقال: سوف تبقى الحالة الى ان تتغير حالة المرأة:

استطعنا ان نقطع بان المجتمع الاخلاقي لا يمكن ، متى بقي تطوره وتقدمه محصورا في المبادئ الاسلامية الخالدة او في التقاليد التي كانت اثرا لهذه المبادئ ، ان يعد كتاب القصص العربي يوما بمادة واسعة او غزيرة كالتي يقدمها المجتمع الغربي الى كتاب الغرب او ان يندو الاثر الذي يفسحه للمرأة ذات يوم وحيا للفن او للخيال .

تنال هذا المقال جواب هيكل . ترك الاسباب الخارجية التي ذكرناها وذهب متعمقا في البحث على الاسباب التي تجعل القصص والحكايات في مصر دون ما هي في العالم الغربي . قال ان عاطفة الحب التي تنمو وتنشأ في محيط عائلي دافئ لطيف يساعد على ازدهارها فيفوح منها عطر المحبة الطبيعية بما فيها من الفضائل انما هي مشهد من مشاهد الجمال الادبي ! واجمل ما تكون انما

في ربيعها ومن غير ان تبلغ بتطورها الى غايتها المادية ، وان التربية في مصر لا تؤهب لتلك العواطف اللطيفة وذلك لان الحب المادي [او الحيواني] انما هو الذي يبلغ اليه الكاتب حالًا في وصفه . وقبل ان تتعاقب اجيال من الناس سوف لا تربى تلك العواطف في النفس المصرية .

ومن جملة من تناولوا الكلام ردًا على هيكل زكي مبارك في مقال على «حياتنا الادبية» قال : ان الصنف القصصي او الروائي انما هو دون سائر الاصناف الادبية منزلةً . وما هي يا ترى اهمية تلك القصص الغرامية ؟ فهي التي تفسد المصريين وقد يُستغنى عنها بالقصيدة او الرسالة . وعلى الادب الحديث ان ينظر الى الماضي ويقتبس منه روحه لا ان يغترّ بظاهر القصص العصرية الفاجرة الخاوية .

ومهما يكن من امر المناقشة فالواقع هو ان هناك بين متوسط الناس من يلتذون بقراءة الروايات ، وهم الذين شجعوا الكتبة على الخوض في ميدان الكتابة القصصية الروائية العصرية في مصر .

ولا حقيقة للقول ان الادب المصري اذا ما عوّل على التعريب افتقر وخسر من مزاياه . وهناك الادب التركي والهندي وما فيهما من اقتباسات عن الاداب الاجنبية ، ومع ذلك لم يفقدا من مزاياهما شيئاً بل استفادا واغتنيا . . .

وهناك عقبة كؤود لا بد من تذليلها اعني بها امر اللغة التي يستعملونها في القصص وقد عالجها محمد تيمور (١٨٩٢-١٩٢١) . وان المشكل ليس خاصاً باللغة العربية . ولكنه مشترك بين اللغات التي لم تنل من تدوينها بالكتابة القواعد المثبتة اوضاعها في الاستعمال ، ومنها كثير في البلاد الاوربية . استعمل تيمور في التخاطب اللغة العامية في كتابه «الشيخ جمعه» ثم في طبعة الكتاب الثانية غير اسلوب الكلام فجعله متوسطاً بين الدارج والفصيح ، ويسهل فيه على القارئ ان يستنطق كل شخص من اشخاص الرواية بلهجته لما في الانشاء من بساطة . ولكن مشكل اللغة العامية واستعمالها في التخاطب غير مشوهة باللحن سوف ينحل من ذاته مع نمو التعليم الابتدائي بين العامة واستعمال الكلام مضبوطاً بضوابطه المهمة .

وخلاصة ما سبق ظاهرة في درس روايات نقولا الحداد صاحب مجلة السيدات والرجال . نجح في كتابه القصص الشائقة في اجزائها التي تصلح للصحف

اليومية اذ يختم كل عدد بما يشوق الى غيره او الى كماله. لكنه رخو في عقد العقد القصصي المصري. وليس فيه ما يبشر اكيداً بتأثير على مصير الفن. واسوغ منه محمد فريد ابو حديد. الف ابنة المملوك، وهي رواية تاريخية افاق فيها اسلوب زيدان فلم يعلق القصة على الاخبار التاريخية ولكن وضعها في مسرح تاريخي. ولم يتغنَّ وينفخ ببوق البطولة بل اقتصر على ابراز الحوادث في جو الحياة الواقعية. لم يتجنب جفاف الاسلوب الرواني القديم. ومع ذلك فهو شائق بتصويره الشخصيات.

اما احدث الروايات واهمها منذ ظهور زينب فهو كتاب المازني المعنوَن «ابراهيم الكاتب». ترك المؤلف لغة التخاطب واستعمل الفصحى لانها بنظره امرن من العامية او البسيطة واخذ من حياة مصر الاجتماعية مادة لكتابته يعتبرها كافية، على ان تكون للكاتب المخيلة! وفي كتابه من العقد والطريق الى حلها ما يُعدّ خير ما ظهر من ذلك في اللغة العربية؛ هناك الحس الدقيق واللطف والقصص الحي. ولكن في الحقيقة ليست الرواية مصرية بالمعنى الذي ادعاه المازني. فان بطل الرواية انما هو غربي باخلاقه، وقليلون المصريون الذين يستعرفون انفسهم في شخصيته. ودرس الحب، وتحليله، والبيئة التي يظهر فيها كل ذلك لغربي هو. واللغة ذاتها وبعض التعابير يستَمّ منها رائحة الغرب. وفي الكتاب جزءان فالاول تبرز فيه المظاهر المصرية خاصةً. اما الثاني فكانه يصف عالماً غير العالم الاول. وفيه الوان قاتمة لا تلبث ان تتضاءل وتتلاشى مع تلاشي شخصية البطل. وكتاب المازني يمتّ الى الغرب ايضاً بكونه مقتبساً عن رواية روسية.

***

ومن ثم فالرواية المصرية، فيما تظهر عليه في تأليف افضل ممثليها، لا تزال بعيدة عن تحقيق المثال الاعلى المطلوب منها، وهمزة الوصل بين المقدرة الصناعية والوحي المصري لم تدخل بعد في الوجود. وما دامت هذه الهمزة مفقودة فسوف يقتات عامة القراء في مصر من الفتات التي تسقط من سفرة غيرهم، الى ان يوفق الكتبة المصريون الى الابتكار في خلق صنف جديد. اما هذا الجديد فلم تظهر طلائعه بعد.

شاعرية كعب بن زُهَير

بقلم فؤاد افرام البستاني ، استاذ الآداب العربية في كلية القديس يوسف

الديوان

ليس من شعر كعب ، في كتب الادب المتداولة ، ما يتناسب وشهرته الواسعة . فاذا استثنينا « بانت سعاد » لم نجد له الا المقطّعات القصيرة او الابيات المفردة . ولعلّ هذا ما أثر في المعاصرين من مؤرخي الادب فلم يهتم احدٌ منهم بشعر كعب ، في ما خلا « البردة »، وكأنهم لم يعلموا ان له ديواناً خاصاً . بيد ان ابن عبد البرّ النمري نقل ان كعباً « كثير الشعر »[1] . وذكر له حاجي خلفا[2] ديواناً اشار البغدادي[3] الى ان ابا العباس الاحول شرحه . اما هذا الديوان فلم يُنشر بعد ، على ما نعلم ، بل اننا لا نعرف له الا نسخة وحيدة في اوربة كان المستشرق كرنكو (Krenkow) قد اهتمّ بدرسها وباعدادها للطبع سنة ١٩١٠[4] . ثم حالت موانع دون تنفيذ مشروعه على ما يظهر . ولكننا لم نعدم معرفة ما في الديوان ، وان لم نتمكن من درسه . فان المستشرق رينه باسّيه اطلع عليه ، بفضل امين مكتبة الجمعية الشرقية الالمانية ، فدرسه واستعان به في تدوين حياة كعب ، ناشراً الشواهد بالفرنسوية ، لا بالعربية لئلا يسبق نشرة كرنكو التي كانت على وشك الطبع . فظهر من بحث باسّيه ان في الديوان ثلاثين قطعة لكعب ، بين قصيدة ومقطوعة ، تدور كلها حول المواضيع العربية التقليدية من فخر وتهديد ، ومدح وهجاء ، وغزل ورثاء ، واشارات الى الحوادث البدوية المتادة . وقد شرحها ثعلب ، بعد ان شرح

---

١) ابن عبد البرّ النمري : كتاب الاستيعاب في معرفة الاصحاب ، حيدر اباد ، ١٣١٨هـ ١ : ٢٢٦

٢) حاجي خلفا : كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون (طبعة Flügel) ليبسك ١٨٣٥ – لندن ١٨٤٣ ، المجلد ٣ : ٢٠٢-٢٠٤ ، الرقم ٥٦٢٢

٣) عبد القادر البغدادي : خزانة الادب ، بولاق ، ٤ : ١٤٨

٤) René Basset, *La Bânat Soʿâd*, Alger, 1910, p. 6

ديوان زهير في المخطوطة نفسها . وكان باسيه في استخدامه ابيات الديوان يترجمها الى الفرنسوية ، ويشير الى ورود بعض ابياتها في كتب الادب والتاريخ واللغة . فاستعنا بها في درس شاعريته ، مع الاستناد خاصة الى « بانت سُعاد » ، وهذه اشهر قصائده بل اساس شهرته ، كما لا يخفى .

بانت سعاد

تقسيمها

قصيدة لامية من البحر البسيط ذات ٥٨ بيتاً ، انشدها كعب في مدح النبي والاعتذار اليه . وقد سار فيها على الطريقة الجاهلية القديمة كما يظهر من التقسيم :

١ – بدأ بالغزل فذكر سُعاد ووصفها ، واشار الى اخلافها بالوعد (الايات ١ – ١٢)
٢ – تخلّص الى وصف الناقة (١٣ – ٢٤)
٣ – تخلّص الى ذكر النبي ووصف حالته هو من الاضطراب (٣٤ – ٣٨)
٤ – اعتذر الى النبي ومدحه (٣٨ – ٥١)
٥ – تخلّص الى مدح المهاجرين من قُريش (٥١ – ٥٨)

شهرتها : شروحها ومعارضاتها

لا نغالي اذا قلنا ان ليس من قصيدة عربية نالت ما نالته قصيدة كعب من اهتمام النحويين واللغويين والمستشرقين ايضاً . ولا غرابة في ذلك ، والمادح من ذوي التأثير في عصره ، والممدوح نبي الاسلام ، والقصيدة قيلت في زمن كان فيه النبي بحاجة ماسّة الى اهتداء شاعر معروف الى الاسلام وانخراطه في سلك الشعراء المدافعين عنه وكم كان يهتم بزيادة عددهم في تلك الحرب الهجائية . وما هو ان دوّنها مؤرخو النبي حتى اصبحت جزءاً من « سيرة » الرسول . ولم تلبث ان نالت حظاً من الكرامات والفضائل ايضاً ، على نحو ما روى ابو جعفر البيري الاندلسي عن بعض اساتذته عن سلسلة من رجال السند عن احد العلماء انه كان يبدأ محاضراته دائماً بانشاد « بانت سُعاد » . فقيل له في ذلك ، فقال : انه رأى النبي في ما يرى النائم فقال له : « اني أحب قصيدة كعب وأحب من يُحبها » فحلف

الشيخ ان لا يمرّ عليه يوم الا انشد القصيدة[١] . واذاً فليس بعجيب ان يتبارى الشرّاح في التعليق عليها ، ويتنافس الشعراء والنظّام في معارضتها ، وتشطيرها ، وتخميسها ، حتى جاوزت آثارهم الخمسين .

اما المعارضات فمن اشهرها قصيدة البوصيري صاحب « البردة » ، واسمها « ذخر المعاد في معارضة بانت سُعاد » ومطلعها :

الى متى انت باللذات مشغولُ وانت عن كل ما قدّمت مسؤولُ

واما التشطيرات والتخميسات فعديدة لا يسعنا المقام لذكرها[٢] .

واما الشروح فاقدمها شرح ثعلب (✝ ٩٠٥) مع شرح سائر الديوان ، كما قدمنا ، وهو الذي استند اليه بأسره ، استناده ايضاً الى شرح ابن يَلَّبخت (✝ ١٢١١) . يُذكر بعد ذلك شرح ابن دريد (✝ ٩٣٣) . ثم شرح التبريزي الشهير (✝ ١١٠٩) ، شارح المعلّقات وحماسة ابي تمام ، وقد نشره المستشرق كرنكو كما سيأتي . ومن الشروح المعروفة شرح جمال الدين ابي محمد عبدالله بن هشام (✝ ١٣٦٠) وهو مطبوع مرّات ، وشرح ابراهيم الباجوري (✝ ١٨٦٠) المطبوع مرّات ايضاً ، الى غير ذلك من الشروح التي يطول بنا تعدادها .

طبعاتها – ترجماتها

لبانت سُعاد نحو العشرين طبعة في الشرق والغرب ، منها على حدة ، ومنها في مجاميع ادبية . وقد يطول بنا الكلام اذا تعرّضنا لذكرها كلها ، فنكتفي باهمها . كان المستشرقون السابقين الى طبعها فنشرها اولاً ليتّه سنة ١٧٤٨ في مدينة ليدن ، مع ترجمة باللاتينية ، ومقدّمة ، وشرح[٣] . ومما يُذكر من الطبعات الاوربية طبعة فريتاگ في هال سنة ١٨٢٣ ، مع ترجمة لاتينية ومقدمة وشرح[٤] . ثم طبعة

---

١) المقّري : (الطبعة الفرنسوية ١ : ٩٢٢) ذكرها Basset, *op. cit.* p. 66

٢) ليراجع اشهرها من اراد في René Basset, *op. cit.*, p. 67-69

٣) Gerardus Joannes Lette, *Caabi ben Zobair Carmen panegyricum in laudem Muhammedis*. Lugduni Batavorum, 1748.
وقد طبع معها معلّقة امرئ القيس وبعض المنتخبات الحكمية .

٤) G. W. Freytag, *Caabi ben-Sobair Carmen in laudem Muhammedis dictum*. Halae, 1823. – ومعها قصيدة المتنبي في ابن العميد، وابيات لاشجع السلمي

گويدي مع شرح ابن هشام في ليبسيك سنة ١٨٧١[1]. وطبعة نولدكه في برلين سنة ١٨٩٠ مع بعض الحواشي[2]. ثم طبعة رو مع ترجمة فرنسوية ، ومنتخبات من شرح الباجوري في قُسَنطينة وباريس سنة ١٩٠٤[3]. وطبعة كرنكو مع شرح التبريزي وتعاليق بالالمانية في ليبسيك سنة ١٩١١[4]. ولعل اجمع هذه الطبعات طبعة رينه باسيه المتقدم ذكرها والتي نشرها في الجزائر سنة ١٩١٠ وجمع فيها بين شرح ثعلب وشرح ابن يَلَّبَخت ، ذاكرًا جميع الروايات المختلفة ، مقدمًا عليها بحثًا في حياة الشاعر ، وترجمة فرنسوية للقصيدة[5]. وآخر طبعة اوربية للقصيدة طبعة الدكتور سكوبا- پيكوسلاوسكي مع ترجمتها الى اللغة البولونية ، وبعض التعاليق في اختلاف الروايات ، في بيروت ، المطبعة الكاثوليكية ، ١٩٣١[6].

اما الطبعات الشرقية فاقدمها طبعة الشِرواني ، في كلكتا سنة ١٢٣١ هـ. (١٨١٦) . ومما يستحق ذكرًا من سائر الطبعات طبعة بولاق مع شرح ابن هشام سنة ١٢٩٠ هـ. (١٨٧٣) . وطبعات القاهرة مع شرح ابن هشام وشرح الباجوري على الهامش سنة ١٣٠٤ هـ. (١٨٨٧) وما بعدها . وطبعة ذي الفقار علي

(١ I. Guidi, *Ġemileddin Ibn Hišâmi commentarius in carmen Ka'b ben Zobair Bânat Su'âd appellatum*. Lipsiae, 1871.

(٢ في المجموعة : Noeldeke, *Delectus veterum carminum arabicorum*. Berlin, 1890.

(٣ A. Raux, *Bânat So'âd, poème arabe de Ka'b ben Zobair, publié avec les voyelles, le commentaire d'el-Bâdjoûri, un avant-propos et une traduction en Français*. Paris, 1904.

(٤ Fritz Krenkow, *Tabrîzî's Kommentar zur Burda des Ka'b ibn Zubair*. [Z. D. M. G., Leipzig, 1911, p. 241-280]

(٥ René Basset, *La Bânat So'âd, poème de Ka'b ben Zobair. Publiée avec une Biographie du Poète, une Traduction, deux Commentaires inédits et des Notes*. Alger, 1910.

(٦ Dr med. Leon Skuba-Pękosławski, *Kasyda (Oda) Ka'b'a syna Zubajra i Swięty płaszcz Mahometa (Khirka-i-Szerif)*, Beyrouth, Imprimerie Catholique, 1931.

دربندي مع شرح الباجوري وابن هشام ، وترجمة هندستانية وحواش ، في دهلي سنة ١٩٠٠ . وطبعة القاضي محمد ظهور الدين مع ترجمة نثرية بالهندستاني وترجمة شعرية بالبنجابي ، في لاهور سنة ١٩٠٣ . الى غير ذلك من الطبعات العديدة في بيروت والقاهرة ، وبومباي ، وجونبور ، وحيدر اباد وغيرها .

وقد نُشرت «بانت سُعاد» في جمهرة اشعار العرب لابي زيد القُرشي ، وهو يعدها من « المشوبات » (طبعة عمرن) مصر ، ١٣٠٨هـ ، ص ١٤٨—١٥١

ولها ترجمات الى لغات عديدة تقدّم لنا ذكر شيء منها مع الطبعات . وعدا ذلك فان لها ترجمتين المانيّتين احداهما نثرية لويل في ترجمة سيرة محمد لابن هشام[1] ، والثانية شعرية لروكرت[2] ، وترجمة انكليزية لردهوس في مجموعة كلوستون[3] ، وترجمة ايطالية لگبريالي[4] ، وترجمات فارسية منها واحدة للكاملي منشورة مع شرح لعبد الحافظ محمد نظير في لكنو سنة ١٨٧٥ ، وترجمة تركية لملجق زاده في احدى مكاتب قسطنطينية[5] .

قيمته

كان لكعب من اسرته تراث شعري ثمين ، وكان له من ابيه مثقف بصير حكيم ، وكان له من احوال بيئته ومنافسات احزاب زمانه دوافع متابعة للتمرين المستمر . فسمع الشعر ، ورواه ، وتذوّقه ، ونظمه في مختلف الفنون ، فاشتهر به حتى قال خلف الاحمر : «لولا ابيات لزهير اكبرها الناس لقلت ان كعباً اشعر منه .»[6]

١) Weil, *Das Leben Mohammeds*, Stuttgart, 1864, t. II, p. 251-257

٢) Rückert, *Hamasa*, Stuttgart, 1846, t. I, p. 152-157

٣) J. W. Redhouse, *The « Burda »*, *the Poem of the Mantle... Translated, with preface and notes*, [Clouston. *Arabian Poetry for English readers*, Glasgow, 1881, p. 305-318]

٤) G. Gabrieli, *Al-Burdatân ovvero i due Poemi arabi del Mantello in lode di Maometto*, Firenze, 1901.

٥) اطلب R. Basset, *op. cit.*, p. 82

٦) ابن قتيبة : الشعر والشعراء (طبعة de Goeje) ص ٥٨

ولكن لا نؤخـذنَّ بهوس خلف ، وقد عوَّدنا مثل هذه الاحكام الجازمة ، ولندرس عن كثب شاعرية كعب ، وحظّها من الابتكار ، وتأثير كل من عناصرها. فنرى ان الواقع يدفعنا الى شيء من التحفظ والاحتياط تجاه هذا الحكم .

لو استثنينا بعض الموادّ التي استخدمها الشاعر في الاعتذار الى النبي ، لما وجدنا في اللاميـة شيئاً من الطرافة يستحق الذكر . فالاستهلال بالغزل اسلوب مطروق في العصر الجاهلي ، « والسُعادات » كثيرات ، « وبينُهنَّ » معروف متداول بين الشعراء من النابغة الذبياني[1] ، الى الاعشى الاكبر[2] ، الى ربيعة بن مقروم[3] ، الى غيرهم ممن سبق كعباً وعاصره[4] . والتشكي من الفراق ، فذكر الاخلاف بالمواعيد ، فالتخلص الى وصف الناقة متداول كذلك حتى الابتذال .

على ان مدح النبي نفسه لا يخلو من التقليد . فان الشاعر ، بعد ان يتخلّص الى ذكر محمد على اسلوب لا بأس بطبيعته واخلاصه اذ يصوّر موقفه المضطرب من الوشاة ، وتمنّع اصحابه عن اجارته ، يعود الى التأثر بغيره فيبدأ اعتذاره على اسلوب النابغة في اعتذاره الى النعمان . ولا يكاد يصل الى المدح فيذكر هيبة النبي ، حتى يترك الممدوح ، ويندفع متوسّماً في شجاعة الأسد الذي شبّهه به ، وقوّة بطشه ، وشدّة وطأته في واديه . . . الى ان يختم بمدح المهاجرين مدحاً اعتيادياً لا يتعدّى ذكر الشجاعـة والاقدام . واكثر هذا من الموادّ الشعرية الجاهزة ، اذا صحّ التعبير . حتى ان النبي نفسـه لم يبدِ اهتماماً بالقسم الاكبر من القصيدة ، فاحتمل صامتاً خمسين بيتاً اكثرهـا لا يمسّ الموضوع في شيء ، الى ان بلغ الشاعر مدح « الرسول وعصبته » ، فنظر النبي الى من عنده من قريش « كأنـه يومئ اليهم ان يسمعوا » كما يقول ابن قتيبة[5] . كأن كل ما تقدم لم يكن ليستحق السماع ! أوَ ليس من الغريب ان

---

١) ديوانـه (مجموعة ابن الورد) ص ٣٥ ، وما يشبهه من « نأي سُعاد ، ص ١٧٦ ؛ والسيوطي : شرح شواهد المغني ، مصر ١٣٢٢ هـ . (١٩٠٤) ص ١٨٠

٢) الاغاني ١٦ : ١٩ ؛ والسيوطي : الكتاب المذكور ، ص ١٨٠

٣) السيوطي : ك . م . ص ١٨٠

٤) وقد عملت شهرة لامية كعب على زيادة القصائد المبتدئة « بانت سُعاد » حتى ان حمادا الراوية انشد الوليد سبعمائة منها ، على ما جاء في الاغاني (٥ : ١٧٢)

٥) ابن قتيبة : ك . م . ٦٨

يؤلف شاعر ككعب ، في حالته تلك من اليأس والاضطراب ، قصيدة في مدح شخص كالنبي مخيّر في حياته ومماته ، فيخصّ ثلثيها بوصف محبوبته ، وناقته ، والتخلّص الى الممدوح ، حتى اذا وصل اليه ، لم يتجاوز في مدحه ذكر الهيبة ، والشجاعة ، والهدى ، ثم انتقل يمدح قوم محمد من المهاجرين . فيكون ما نال النبي من الثانية والخمسين بيتاً ثلاثة عشر فقط منها خمسة في الاسد ، بينا نرى سُعاد تختص باستهلال يبلغ اثني عشر بيتاً ، والناقة تتمتع بوصف دقيق يتجاوز العشرين .

كل هذا لان الشاعر سار على الاسلوب المدحي المقرّر في الجاهلية ، فلم يكلّف نفسه على الغالب عناء الابتكار والتفنن — الا في امور اخذها من محيطه القريب فاتت لطيفة جميلة كوصف قلقه واضطرابه [1] — نقول ذلك لا في الافكار العامة فحسب ، بل في ما تفرّع عنها وفي ما اخذ به لشرحها من الافكار الثانوية والصور التشبيهية . فهو لا يتراجع ، امام النبي ، عن استعمال الخمر في تشبيهه ، ولا يُهمل ان يذكر الغول في كثرة التلوّن ، وان ينسب الدروع لداود ، وان يشبّه الابطال « بالجمال الزُهر » ، والنبي «بالاسد الخادر » . ويكاد لا يتجاوز ، في وصف الناقة ، ما نعرفه من اكتناز اللحم وملاسته حتى ليزلق عنه القراد ، وقوّة المرفقين وبعدهما عن الزور ، وصلابة القوائم . اما تلك الصورة الاخيرة ، التي يشبّه فيها ذراعي الناقة ، في سرعة حركتها ، بذراعي امرأة ثاكل تضرب صدرها وتندب ، فان المطالع يخالها طريفة ، على غرابتها ، لاول وهلة ، حتى اذا طالع الشعر المعاصر ضعفت طرافتها نوعاً . وكذلك القول مما يظهر من السذاجة البدوية الطبيعية في استعماله الفيل للتهويل والتعظيم .

ونكاد نرى الرأي نفسه في غير اللامية مما امكننا الاطلاع عليه من شعر كعب . فان مدحه للانصار [2] تقليدي محض بارزٌ فيه التكلّف . ورثاءه لأبي [3] « من اجفى شعر العرب » ، على قول المبرّد واكثر ما تبدّى جامد العاطفة ، صلب ، حتى ليمكننا القول ان اضعف العناصر الشعرية في كعب كان الشعور . فلا غزل رقيق ،

---

١) اطلب الروائع ٣٢ [كعب] ٨–١٠

٢) الروائع ٣٢ [كعب] ١٤

٣) الروائع ٣٢ [كعب] ١٨

ولا رثاء فاجع ، ولا تهكم لاذع ، ولا فخر عاطفي ، ولا شكوى اسيفة ، ولا رهبة مؤلمة في التعبير عن قلقه واضطرابه تجاه وعيد النبي ، وهو اخلص قسم في قصيدته . يتحقق ذلك من يقابل قوله هذا باقوال النابغة في موقفه الاعتذاري من النعمان . فبينا يُظهر النابغة كل ما يمدّه به شعوره الرقيق من بوادر الحزن العميق المقرون بالقلق المضطرب الى الاخلاص الشديد[1] نرى كعباً يكاد لا يفسح لشعوره المجال حتى يختم عليه بالحكمة ، فيسكن الى ان « كل ما قدّر الرحمن مفعولُ . »

ولا يضير حكمنا هذا بضعف الشعور ما يتناقل الرواة عن ميل كعب الشديد الى الشعر منذ نعومة اظفاره . اذ لا غرابة في هذا الميل ، والغلام يرى نفسه في اسرة شاعرة . فكان من الطبيعي ان يتأثر بتلك البيئة ، وان يميل الى النظم ، كما يميل ابن الجرّاح الى التشريح وابن المصوّر الى تنسيق الخطوط مثلاً ، دون ان يفرض ذلك في الناظم الحدث شعوراً قوياً ، او عبقرية بارزة .

على ان من الحقّ ان نحتاط بعض الشيء في هذا الحكم ، متنبهين لمواقف قليلة كان يتأثر بها كعب تأثراً عميقاً فيتألم او يتحمس ، فينظم فوراً ، دون ان يجتهد في « صنع » الشعر ، فيأتي قوله على شيء من الفطرة اوفى منه في شعره العادي . نتحقق ذلك في بعض المنافسات الحزبية ثم في ابيات كان يشكو بها دهره او شيبه . بيد انه ، حتى في هذه الموضوعات الخديرة بالعاطفة ، تظلّ على شعره مسحة من التعقّل والرزانة تميل به الى نوع الحكم .

انما شعره ، في اكثره ، تصوير ، وتصوير دقيق يسمو الى درجة عالية من الصناعة بل من الفنّ احياناً . ولا عجب ! فهو ابن زهير وتلميذه ، واحد افراد ذاك المذهب التصويري المادي الذي بدأ باوس بن حجر ، زوج ام زهير ، وبلغ اوجه مع زهير والنابغة ، وكان من ممثليه شاعرنا كعب والحطيئة كما قدّمنا . وليس من حاجة بهذا المذهب الى كثير من الشعور الرقيق السيال ؛ وان كان الشعور يمدّه رونقاً وتشخيصاً وحياةً تزيد في قيمته . انما حاجته خاصة الى الصبر في تتبع الموصوفات ، واختيار موادّ التشبيهات ، والى التعقل في التنسيق والتأليف ، «وتنخّل» التعابير ، « وتثقيف » القوافي ؛ والى قوّة الخيال ايضاً . وقد كان كعب على حظ من

---

١) اطلب درسنا للنابغة في الروائع ٣٠ : يط

الخيال لا بأس به ، وان لم يصل غالباً الى الابداع . وكان كذلك على قسطٍ وافر من التمثّل والصبر في « صنع » الشعر حتى انه فاخر « بتنخّله » للقوافي « وتثقيفه » اياها[1] كما انه فاخر باقتفائه اثر ابيه في قصائـده ، اذ

(يقول) شبيهات بما قال ، عالمًا جنّ ، ومن يشبه اباه فما ظلم !

والحق يُقـال انه سار على هذا الاسلوب مستفيدًا من ابيه ، ومن أوس ، ومن النابغة ، فترك لنا اوصافاً دقيقة جدًا على كثيرٍ من التفنن في تقصّي صفات المشبه به بعد ترك المشبّه ، كوصف الماء في اول « مَشوبته » ، وكثرة التـدقيق في وصف الناقة ، ووصف الحرّ في تلك الجملة الاعتراضيـة الجميلة[2] ، وتتبّع وصف المرأة الشكلي بعيـد ذلك ، وتلك الاستدارة التشبيهية التامّة في وصف الاسد . يعبّر عنها بتعابير « متنخّلة » ، والفاظ تصويرية منتقاة ، قـد يرى فيها البعض شيئاً من الضخامة الجاهلية ، فينسبون الشاعر الى الولع بالغريب في وصف الناقة والاسد وما اشبه ، ويرون انه يأخـذ باللفظ الرقيق الليّن اذا ما ترك هذه الموضوعات وعرض للتعبير عن المشاعر النفسية . والحقيقة ان ليس للشاعر اسلوبان محدّدان يأخذ باحدهما في التعبير عن شيء وبالآخر في التعبير عن غيره . انما هو يجري على طريقـة واحدة من المفردات والتعابير . الا انه يعبّر حيناً عن موضوعات تمسّ بيئته الخـارجية من رمال متراكمة وتكاوين ارضية لكل مشهد منها نعت خاصّ ، ومن حيوان متنوّع لكل مظهر من مظاهره بـل لكل عضو من اعضائه اسم بعينه ، ومن مرافق حيوية خاصة بعصره وعادات مميّزة لشعبه ؛ وحيناً يعبّر عن عواطفه النفسية المشتركة بين جميع الناس . فيكون ان المظاهر الاولى تتباين وتختلف باختلاف الازمنة والامكنة حتى لا نألف في عصرنا شيئاً من مألوفات الجاهليين مثلاً ، وتظلّ المظاهر الثانية على ما هي ، اذ ان مصدرها النفس البشرية وهي واحدة تحت كل كوكب . وبالتالي تصبح التعبيرات عن الموضوعات الخارجية غريبةً بالنسبة الينا بل وحشية ضخمة ، وتبقى الاخرى لطيفة رقيقة مقبولة . هذا ، على ما نرى ، هو سرّ الاختلاف بـين الاسلوبين المزعومين . واذًا فليس من حاجة الى « التعمق في الدرس » ، فالاستنتاج ان

١) الروائع ٣٢ [كعب] ٣٤
٢) الروائع ٣٢ [كعب] الابيات ٢٨-٣١

كعباً كان في وصفه للناقة والاسد يحتـذي اوس بن حجر ، وفي تعبيره عن شعائر نفسه يسير على اسلوب ابيه . . . والحق انه سار على اسلوب ابيه ، وهو في الاصل اسلوب أوس .

وان يكن من اثر واضح لاسلوب زهير ، في ما خلا تلك الاوصاف التي اشرنا اليها، فهو في الميل الدائم الى الحكم والاعتبارات العامة . ولا يحتاج المطالع الى كثير من التدقيق ليتحقق رغبة كعب في الكلام الجامع ، وارسال المثل ، حتى لا تخلو له مقطوعة من محاولة ذلك . فمن « إنّ الامانيّ والاحلامَ تضليلُ » ، الى « فكل ما قدر الرحمن مفعول » ، الى « كلّ ابن انثى . . . » الى « وأقربْ باحلام النساء الى الردى » ، حِكم تامة تذكرنا بزهير ، « ومن يُشبه اباه فما ظلم ! »[1].

وقد تتخذ الحكمة شكل النصيحة كما في « ردّه على احد الجهّال » .[2] وهذا غير غريب عن زهير ايضاً . وقد يرفعه النَّفَس الشعري ، على طريق الحِكم ، الى درجة سامية من التحقّق المؤلم فيلقي نظرةً بصيرةً شاملة يصل فيها الى فحص اعماق النفس البشرية فيقيس اتعابها ومشاقّها بالنسبة الى القدَر واحكامه ، ويعود ، وعلى شفتيه ابتسامة تتنازعها الشفقة والهزء ، فيقول :

لو كنت اعجب من شيءٍ لاعجبني سعيُ الفتى ، وهو مخبوءٌ له القدرُ ؛
يسعى الفتى لامورٍ ليس يُدركها ؛ والنفسُ واحدةٌ ، والهم منتشر ؛
والمرءُ ، ما عاش ، ممدودٌ له املٌ : لا تنتهي العينُ حتى ينتهي الاثرُ !(3)

هذا كعب بن زهير ، على قدر ما امكننا درسه من خلال شعره المنشور ، وهذا قليل بالنسبة الى ما تبقى في ديوانه المخطوط . وهو يظهر ، على الجملة ، شاعر صناعة وثقافة ، لا شاعر طبع وفطرة . وقد يكون ابن سلام على صواب اذ جعله في الطبقة الثانية[4] . ولكنه قدّمه على الحطيئة ، وحقّه ان يؤخر في نظرنا . ومهما يكن من امر فان الشاعرين من المذهب الزهيري المعروف ، مذهب « عبيد الشعر » ، على قول الاصمعي ، اي مذهب الذين « نقّحوه ولم يذهبوا به مذهب المطبوعين . »[5]

---

١) الروائع ٣٢ [كعب] ٢ ، ٩ ، ١٩ ، ٢٢
٢) الروائع ٣٢ [كعب] ٢٥ ٣) الروائع ٣٢ [كعب] ٢٥
٤) محمد بن سلام : طبقات الشعراء (طبعة Hell) ، ص١٦ – ٢١
٥) ابن قتيبة : ك . م . ٦١

مطبوعات شرقية جديدة

Maurice Bouyges, S. J.: AVERROÈS, Talkhiç Kitab al-Maqoulat. *Texte arabe inédit publié avec une recension nouvelle du KITAB AL-MAQOULAT (Catégories) d'Aristote. [Bibliotheca Arabica Scholasticorum, série arabe, t. IV] vol. in-8° de XL + 184 pp. Prix: 40 fs. Imprimerie Catholique, Beyrouth*, 1932.

تلخيص كتاب المقولات لابن رُشد

لا يخفى ان شهرة الفيلسوف ابن رُشد انما استندت الى شروحه لكتب ارسطو وتعليقه عليها. وكان من جملة تلك الشروح هذا الاثر المدعوّ « تلخيص كتاب المقولات » الذي عُرف في الغرب منذ القرون الوسطى، ولم يهتم به العرب الاهتمام الكافي بدليل انه لم يظهر بالطبع قبل اليوم. ولمّا كان حضرة الاب بويج اليسوعي، القائم بنشر المجموعة الفلسفية الجديدة المعروفة « بمكتبة فلاسفة العرب المدرسيين »، يهتمّ بجميع آثار ابن رُشد التي عرفها اللاتين في القرون الوسطى، رأى من الضرورة نشر هذا الكتاب، فيفيد الفلاسفة والمستشرقين من جهة، ومن جهة أُخرى يسهّل على أُدباء العرب الاطلاع على اثر فلسفي لم يظهر بالطبع بعد. والكتاب، وان لم يكن مثالاً لحسن الانشاء وصحة التعبير، فالاطلاع عليه ضروري لمن اراد تاريخ الحركة العقلية والفلسفية في الادب العربي. وقد استند الطابع الى بضع مخطوطات عربية منها ثلاث مهمة محفوظة الاولى في فلورنسة، والثانية في ليدن، والثالثة في القاهرة؛ فضلاً عن الترجمات العبرية واللاتينية التي اطّلع عليها. ثم رأى، تتميماً للفائدة، ان ينشر نصّ « كتاب المقولات » الاصلي الذي « لخصه » ابن رشد. ولا يخفى ان ابن رشد لم يعرّب النص اليوناني، بل شرح ترجمةً عربية توصّل الاب بويج الى الاستنتاج انها ترجمة اسحق بن حنين التي كان قد طبعها زنكر سنة ١٨٤٦، فاعاد طبعها مستندًا الى مخطوطات لم يقف عليها الطابع الاول. كل هذا خدمة لكتاب ابن رشد الذي بذل الاب في سبيله جهودًا جمّة، فعارض جميع

مخطوطاته وترجماته ، وقارن بينها مدققاً متقصياً حتى بلغ الغاية التي يرمي اليها العلماء ولا يدركونها في كثير من الاحيان، وقد اتى الطابع من حيث الدقة والترتيب والاتقان موافقاً للمادة ، فظهر نصّ « التلخيص » في القسم الاعلى من الصفحة ، فاختلاف الروايات في الحاشية ، فنص «كتاب المقولات » في الاسفل؛ يجمع بين هذه الاقسام ارقام وحروف واشارات تدلّ على فقرات الكتاب.

ومما يزيد قيمته مقدمة واسعة في الاثرين المطبوعين ، وذكر مخطوطاتها المختلفة ، ووصف طريقة الناشر ثم فهارس متعدّدة في آخر المجلد منها ما اختصّ بفصول « التلخيص » ، ومنها ما وافق بين هذه الفصول واسطر « المقولات » ، ومنها ما قارن بين الفصول وفقرات النص اليوناني. ويجب ان نشير اشارة خاصة الى الجدول الابجدي الجامع الفوائد الجمّة والتسهيلات الوافرة لاستخدام الكتاب مشتملاً على ستة فروع : ١ً باسماء الاعلام ، ٢ً بعناوين الكتب المذكورة ، ٣ً بالاقوال المهمّة والامثلة ، ٤ً بالالفاظ الوضعية ، ٥ً بالملاحظات الصرفية والنحوية ، ٦ً بجدول اجمالي.

هذا وصف سريع لمظهر الكتاب الذي يمكن القول انه يبدو ، مع سابقيه في المجموعة نفسها « تهافت الفلاسفة » ، « وتهافت التهافت » ، المثال الاعلى للنشر العلمي الدقيق. ف. ا. ب.

Sobhi Mahmassani : Les Idées Economiques d'Ibn Khaldoun. Essai historique, analytique et critique. *in-8° de 229 pp. Bosc Frères, M. et L. Riou, Lyon*, 1932.

آراء ابن خلدون الاقتصادية

كثرت في ايامنا هذه الابحاث عن ابن خلدون. فمنهم من درسوا تاريخ حياته الحافل بالحوادث والعبر ، ومنهم من رأوا فيه اول من بحث في فلسفة التاريخ؛ ومنهم من اقاموه اباً للتاريخ العلمي الصحيح، ومنهم من جعلوه سابقاً لمونتسكيو في الكثير من آرائه الاجتماعية ، ومنهم من قارنوا بينه وبين مكيافيلي ، او بينه وبين تارد... وقد تطول سلسلة المقارنات... ولا عجب فانه لا يصعب على الباحث ان يرى بين مفكري العالم في اي عصر وفي اي بلد كانوا ، من لم يمسّ ، وان قليلاً ، بعضاً من الموضوعات التي ضمّنها ابن خلدون مقدّمته الطويلة . وان

هذا المسّ القليل ليكفي الراغبين بالمقارنات والموازنات . . . ويسرّنا اليوم ان نرى احد وطنيّنا يهتمّ بطائفة من آراء ابن خلدون لم يفرد لها البحّاثون كتباً خاصة ، الا وهي آراء فيلسوفنا الاقتصادية. كان ابن خلدون ، كما يُستنتج من اطروحة الاستاذ صبحي المحمصاني ، من كبار علماء الاقتصاد ؛ ولا عبرة في ان يكون ابن خلدون نفسه قد جهل ذلك ، بل لا عبرة في ان يكون قد جهل وجود علم الاقتصاد. اما البراهين على ذلك فيجدها الكاتب في « المقدمة » التي يستغلّ قسمها الاقتصادي استغلالًا حسناً ، على الغالب ، ثم يقابل بين هذه الآراء وآراء الاقتصاديين من علماء العصر كجيد وتروشي ، وقد يصل في المقابلة الى من كتب في « السياسة » - والاقتصاد من فروعها - من قدماء العرب كابن سينا والفارابي ، مستفيدًا من اقوال المستشرقين في كل ذلك. وهو عمل جدير بالثناء لما كلّف من الجهود ، ولما وفّر من موادّ للمؤلف حتى انه ولّد من تلك المعلومات الاقتصادية المتفرقة في « المقدمة » كتاباً معتبرًا ذا عشرة فصول خصّ الاول منها بعموميات تاريخية واقتصادية وسياسية عن عصر ابن خلدون ، والثاني بحياة ابن خلدون وآثاره ، والثالث بتطوّر الفكرة الاقتصادية قبل ابن خلدون. حتى اذا وصل الى الفصل الرابع دخل صلب الموضوع فتكلم عن الاقتصاد السياسي والطرق العلمية عند ابن خلدون منتقلًا الى العناصر المكوّنة البنية الاقتصادية (الفصل الخامس) ، فالثمن والنقد (الفصل السادس) فالعلاقات بين الحاجات والاستهلاك والازمات (الفصل السابع) ، فدور الدولة في الاقتصاديات (الفصل الثامن) ، فعوامل الانتاج (الفصل التاسع) ، فطرق المعيشة المختلفة (الفصل العاشر). ولا يخفى ان إطارًا كهذا يتطلّب مواد كثيرة قد تفوق ما يراه الباحث في «المقدمة». واذًا فلا غرابة في ان نرى المؤلف يتوسّع تارةً في استنتاجه، ويبالغ طورًا في مقابلاته ، ويحطّ حيناً آراء الفيلسوف لتملأ إطاره الواسع. وقد لا يصيب تاماً في التعبير عن فكرة ابن خلدون ، كما حدث له في القسم الثاني من فصله السابع اذ تكلّم عن طريقة ابن خلدون في قسمة الحاجات (ص ١٣٦) فقال ان الفيلسوف يقسمها الى « ضرورية » « وكمالية » فقط. واندفع ينتقده مبيناً ان هناك من الحاجات ما يقع بين هاتين الدرجتين. ويظهر

لنا ان ابن خلدون يقسم هذه الحاجات الى ثلاث طبقات لا اثنتين: «الضروري» «والحاجي» «والكمالي» كما يستنتج من فصله المعنون «في ان اجيال البدو والحضر طبيعية»[1]. وهو ما ادركه المؤلف، او كاد، في كلامه عن «تأثير شريعة العرض والطلب في الثمن» (ص ١٢٠–١٢١).

على ان ما يؤاخذ عليه المؤلف، وما يبدو عيباً في مظهر كتابه، هو انه لم يهتمّ بكتابة الاسماء العربية بالحروف اللاتينية. فبدا فيها اضطراب غريب بل فوضى تحطّ من قيمة الكتاب لدى الاختصاصيين. وما قولهم مثلاً في «القاف» التي يعبّر عنها تارةً «بحرف C كما في «*mithcal*» (ص ١٠) و «*cal'at*» (ص٣١) وطوراً بحرف K كما في «*Tarik*» (ص٢٠) وحيناً بحرف q كما في «*Machreq*» (ص ٢٤)؟ وما قولهم في هذا التعبير عن «مروج الذهب» «*Mourouj ez-thahab*» (ص ١٥)؟ فضلاً عما هناك من الخلط في تصوير حروف العلة وما اليها مما لا مقابلة له في الافرنسية. اما استشهاد المؤلف بالدكتور غوستاف لوبون في ما يخص المدنية العربية فما يثير الابتسام.

بيد ان كل هذا لا يمنعنا من تقدير جهود المؤلف الجديرة بالثناء.

ف. ا ب.

Emile Rideau : Les rapports de la Matière et de l'Esprit dans le Bergsonisme. *in-8° de XI+182 pp. Prix : 20 f*ᵉ

Le Dieu de Bergson, Essai de critique religieuse. *in-16 de 138 pp. Prix : 12 f*ᵉ.. *Paris, Alcan*, 1932.

علاقة المادة بالروح في الفلسفة البرگسونية

اله برگسون

لقد قدّم مؤخراً الاب اميل ريدو اليسوعي اطروحتين لنيل شهادة الدكتوراه في الفلسفة درس فيها فلسفة برگسون. ويكفي ان نشير الى الحفاوة التي اولاها الاستاذ الكبير نفسه الكتابين المذكورين لتدل على اهميتها في درس الفلسفة البرگسونية التي، وان بدت على شيء من السهولة في الظاهر، فانها تمتنع على الطالب الا اذا سار وراء دليل مطّلع كالاب ريدو. وهذا بشهادة برگسون نفسه

١) اطلب الروائع ١٥ [ابن خلدون: القبائل والامم الوحشية] ص ٣

فقد كتب الى المؤلف ما يلي: «... ان هاتين الاطروحتين تدلان على ممرنة تامة ومدققة بما كتبتُ. وانك تدرسني بتعمق، دون ان تفرض على نفسك التوقف عند مظهر الكلام، بل تتابع التنقيب عن روحه. هذا واني لاشعر – الا ان اكون مخطئاً – بانك باشرت درس آثاري بتلك العاطفة الودادية التي تمد الانسان للفهم وتمكنه من الحكم. وقد قادك اسلوبك، من وقت لآخر، الى تمديد نظراتي الخاصة على طريقة مفيدة وجديرة بالانتباه. بل ان هذا التمديد يبدو لي احياناً نفس ما كنت قد افتكرت به دون ان اعبّر عنه، او ما لم اعبّر عنه الا جزئياً.»

وقد خصّ المؤلف الاطروحة الاولى بدرس التطوّر في الفكرة البرگسونية من «القضايا المسلّم بها مباشرة» (*Données Immediates*) حتى «المصدرين» (*Les Deux Sources*)، فاوجز بطريقة اجمالية سير تلك الفلسفة في مراحلها المتابعة، مظهرًا توسّعاتها المطّردة مبيّناً كيف ان ما اتّصفت به اولًا من المماكسة الجوهرية بين المادة والروح والخلاف بين الفكرة والحياة، اخذ يتحوَّر شيئاً فشيئاً مفسحاً المجال لفكرة في الكون اقلّ جزماً واوفر دقائق واحتياطات. حتى ان هذا «الكون» لم يعد يظهر منفردًا «مقفلًا»، بل اصبح ما فيه من نزوات الحياة يدلّ على وجود نزعة حبّ شديدة منبثقة من الحبّ اللاّمتناهي.

ولكن هذه الاطروحة التي تجمع الى درس المنطق الداخلي والتاريخي في الفلسفة البرگسونية درس المنطق الخاص في نظرية «الكون»، لا يمكن في اي حال ان تكون توطئة لقراءة برگسون. لانها تفرض، على من يقرأها، ان يكون قد عرف آثار الفيلسوف.

على ان الاطروحة الثانية اسهل منالاً، واقل اخذًا بالاسلوب الوضعي. وغايتها ان تبسط آراء برگسون في الاله وتردفها بنقد فلسفته الدينية.

ولا يخفى ما في هذا العمل من الصعوبة من حيث وجهة النظر المسيحية. بيد ان المؤلف عرف ان يميّز النزعات الموافقة لروح النصرانية من التي قد تضلّ المطالع. وعمل على وضع الحدّ الفاصل بكل ما اوتيه من موهبة سامية

دقيقة في كتابة التاريخ ، ومن محبة واسعة سمحة للحقيقة وللجهد المخلص الذي تمثله الفلسفة البرگسونية في التقرّب من الحقيقة. فكان بامكانه ، والحالة هذه ، ان يهدي من « يفتشون عن النور » في هذه المسائل الحيوية التي لا تزال موضوع نزاع الانسانية المفكرة ؛ وان يساعد من وجدوا النور على « التمييز الضروري في آثار هذا الفيلسوف العصري الذي قد يكون اكثر الفلاسفة قرّاء في العالم باسره.»

وان من فضل هذا الكتاب الصغير الحافل بالنظرات المثيرة والملاحظات المنبّهة ان يدفع من يقرأه برزانة الى ان يدقّق فكرته بالنصرانية ، فالى ان يحياها في معيشته كلها . هذا وان يكن « الحدس الغريزي قد قاد فكرة برگسون نحو المحور المركزي لتاريخ العالم ، اي المسيحية . » فاننا — بواسطة هذا الشارح الجديد الذي لا يهمل الاشارة ، عند اللزوم وبكل اخلاص وصراحة ، الى نقائص وشوائب الفلسفة البرگسونية — نتمكن من ان نتابع التأمل البرگسوني حتى الوصول الى الحقيقة بكاملها . ب . ش .

O. Lemarié : Précis d'une sociologie. *in-12, 192 pp. Prix : 12 fr. Paris, Librairie Alcan.*

ملخّص في علم العمران

تحقق المؤلف ما يناله علم العمران اليوم من اعراض بعض الخاصة لما يرون في استنتاجاته احياناً من تسرُّع وجزم وتحكم يبعد عن الروح العلمي الصحيح ، فرأى ان يوضح غاية هذا العلم ويبيّن طريقته بصراحة فخص بذلك القسم الاول من كتابه . اما القسم الثاني فدرس فيه حوادث العمران المستندة الى قابلية الانسان العمرانية . وبحث في القسم الثالث الاخير في المنتخبات العمرانية .

وقد جرّه ذلك الى السؤال : أيجب عدّ الانسان من هذه المنتخبات ؟ فاجاب عنه في خاتمة الكتاب قائلاً : ان المجتمع لا يمثّل للانسان قوّة داخلية . انما هو حقيقة خارجة عن الانسان تؤثر فيه منذ ولادته . ولكنها تظلّ بالنسبة اليه واسطةً لا غاية . ج . ل .

René Martel : Le mouvement antireligieux en U. R. S. S. 1917-1932. *Paris, M. Rivière*, 1933. *Prix : 12/s.*

الحركة المقاومة للدين في اتحاد الجمهوريات الروسية السوفيتية الاشتراكية من ١٩١٧-١٩٣٢

مؤلف الكتاب من اساتذة الجامعات لا يؤمن بشيء، وهو غيور على مذهبه الالحادي يعتقد اعتقاد سلفائه بان عصره الحالي هو زمن انتصار الآراء التي ينتمي اليها. وقد اهتمّ اهتماماً دقيقاً بهذا الكتاب. فبيّن اولاً ان الشعب الروسي كان اشدّ تعلّقاً بالخرافات الدينية منه بالدين الصرف، وان الاكليروس الارثوذكسي، المتعلّق بالحكومة تعلّق سائر الموظفين، كان على انحطاط عظيم، فلم يكن بامكانه القيام بواجباته. ثم يميّز المؤلف في الثورة الروسية ثلاث حقب بالنسبة الى الاضطهاد الديني: الحقبة الاولى ١٩١٧—١٩٢٠ لم تكن فيها المشكلة الدينية من الامور المهمة؛ الحقبة الثانية ١٩٢٠-١٩٢٧ هي اقرب الى السكينة النسبية. اما الحقبة الثالثة التي بدأت بالسنة ١٩٢٧؛ فتمتاز بحملة شديدة على الدين ومظاهره، حملة يعتبرها المؤلف دفاعاً عن المبادئ الجديدة، ويفصّل حوادثها بالتدقيق في الفصل الثاني من الكتاب. ثم، في الفصل الثالث، يجمع بينها وبين مظاهر القوميّات المختلفة في الاتحاد الروسي. ويخصّ الفصل الرابع بسرد العقبات والانتقادات التي يصادفها هذا العمل. والمؤلف على حق اذ يرى العلاقة متينة شديدة بين الاضطهاد الديني الذي برزت ظواهره في الثورة الفرنسوية، والاضطهاد الذي يقوم به رجال الثورة الروسية. ولا شكّ ان الروح واحد في الظاهرتين، على فرق هو ان الاضطهاد الروسي ينال الكنيسة الارثوذكسية خاصة بينما الثورة الفرنسوية كانت غايتها مقاومة الكثلكة.

هذا والمؤلف يظهر طافحاً بالتفاؤل العجيب حتى انه يختم قائلاً: «انما نحن سائرون نحو النور. وقد اخذ الفجر يظهر على مهله.»

ج. ل.

J. Blouet, P. S. S. : Théologie Pastorale. 1 *vol. in-16 de* 492 *pp.* 5[e] *édition. Prix :* 25 *fs. Librairie Lecoffre. J. Gabalda et Fils, Paris.*

اللاهوت الرعائي

طبّق المؤلف مادة كتابه واقسامه على قول السيّد المسيح لتلاميذه : «اذهبوا الآن وتلمذوا كل الامم معتّدين اياهم باسم الآب والابن والروح القدس . وعلّموهم ان يحفظوا جميع ما اوصيتكم به . وها انا معكم كل الايام الى منتهى الدهر.» فخصّ الفصل الاول منه بمحبة النفوس ، وهي الشرط الضروري لنجاح الرسالة . ثم بيّن ان تأثير الراعي الاول انما يكون بمثله الحيّ . وذكر في الفصل الثالث ضرورة الطرق والاساليب المؤدية الى معرفة النفوس . وانتقل من ثمّ الى درس طرق الوعاظة وفنونها من خطب ارشاد وتعليم ونشر ، خاصّاً بذلك الفصول الرابع والخامس والسادس . ولما كان العمل الذي يفرضه الراعي على نفسه عملاً روحياً فائق الطبيعة كان على المؤلف ان يبيّن كيف يجب ان يحافظ على الحياة الالهية في نفس المسيحي المتمد بالمواظبة على قبول الاسرار المقدّسة ، فاستوفى الكلام على ذلك في الفصول السابع والثامن والتاسع . اما الفصول الباقية من العاشر الى الرابع عشر فقد حدّد فيها طرق الادارة الروحية في ارشاد الاولاد والشبان والعائلات والخورنيات وما الى ذلك . وختم في الفصل الاخير بذكر ادارة الاملاك الضرورية لحياة الخورنيات وما فيها من جمعيات ومؤسسات.

J. Blouet, P. S. S. : Bienséances ecclésiastiques et pastorales. *vol. in-16 de* 234 *pp. Prix :* 12 *fs. Librairie Lecoffre, J. Gabalda et Fils, Paris.*

آداب كنائسية ورعائية

وهذا كتاب آخر للمؤلف نفسه في المكتبة نفسها رمى فيه الى سدّ ثلمة طالما شعر بها رجال الاكليروس . فاراد ان يفيدهم من اختباره الطويل ، وهو رئيس المدرسة الاكليريكية العالية في كوتانس ، فذكر ما يجب ان يتحلى به من الآداب رجال الكهنوت عامّة ومن يعهد اليهم بادارة الخورنيات خاصة . وقد عبّر عن مواده النزيرة باسلوب غاية في الرشاقة يضمن لكتابه ، دون شك ، رواجاً عظيماً يستحقه.

Annuaire pontifical catholique pour 1933. 1 *vol. petit in-8° de 960 pp. avec* 151 *illustr. Prix* : 45 *fs. Bonne Presse, Paris.*

التقويم الحبري الكاثوليكي لسنة ١٩٣٣

هي السنة السادسة والثلاثون لهذا التقويم المعروف في جميع الاوساط التي تهتم بالاطلاع على ما يجري في العالم الكاثوليكي . وقد ازدان هذه السنة بـ ١٥١ صورة ، وبما امتاز به في السنين السابقة من الدقة والوضوح ووفرة المعلومات .

M.-M. Vaussard : Charles de Foncauld, Maitre de vie intérieure. 1 *vol. in*-16 *de* 238 *pp. Prix* : 15 *fs. Les éditions du Cerf, Juvisy, Seine-et-Oise.*

شارل دي فوكو استاذ الحياة الداخلية

لا تزال حياة الاب دي فوكو تثير في النفوس المسيحية نزعات شريفة عميقة ونزوات سامية نحو الكمال الروحي ، بل انها في اول عملها هذا ؛ ولا شك في ان ذاك المثل الحيّ سيظلّ مدة طويلة من ينابيع الحياة الروحية في النصرانية . وها انا اليوم ، بعد ان اطلعنا على تفاصيل تلك الحياة الدقيقة في الكتاب النفيس الذي خصّه رينه بازَن بالاب دي فوكو ، نتقدّم مع مؤلف الكتاب الحاضر نحو مظاهر الحياة الداخلية في نفسية « رسول الصحراء » وما فيها من تشويق لاحياء الدعوات الكهنوتية والعواطف السامية التي تتطلب التضحيات التامة . ولهذا لم يهتمّ المؤلف بالتفتيش عن الجديد في حياة بطله ولم يصرف وقته في درس الوثائق والاسانيد التاريخية ، بل اكتفى بدرس حياة الاب دي فوكو اليومية داعياً المطالع الى التأمل بما تتطلّبه تلك الحياة من روح التجرد المطلق والمحبة السامية العجيبة .

رسالة امراء غسان للمستشرق ثيودور نولدكه

عربها عن الالمانية الدكتور بندلي جوزي والدكتور قسطنطين زريق

٩٤ ص . كبيرة – المطبعة الكاثوليكية – بيروت ، ١٩٣٣

ودعت مجلة «الكلية» ، لسان حال الحركة العلمية في جامعة الاميركان في بيروت ، قراءها في مجلدها الثامن عشر والاخير في السنة الماضية ، على ان تظهر

بطريقة انسب الى الاحتياجات الحالية . وهوذا ثمرة من ثمار وعودها ، شهية ، لذيذة ، تقدمها على يد احد اساتذتها الدكتور قسطنطين زريق .

ليس المقام لتعريف القراء بالمستشرق نولدكه الشهير الذي انتقل الى رحمة ربه سنة ١٩٣١ وليس من مجال التوسع في تعريف الدواعي لتأليف كتاب امراء غسان باصوله وفصوله وكل ذلك بيّن في صفحاته العربية الاولى. وحسبنا القول انه ظهر سنة ١٨٨٧ بالمانية ، وعليه من الصبغة العلمية الصادقة ، وفيه من التعليلات التاريخية ، وهو انموذج للتحليل التاريخي ، ما جمله ويجعله الى يومنا خليقاً بان يطالعه خاصة الطلاب والمعلمين ؛ ولذلك بذل السيد زريق العناية في تعريبه بمساعدة الدكتور بندلي جوزي استاذ اللغة العربية في جامعة باكو .

« قد يجد من يطالع هذه الرسالة بعض العناء في قراءتها.» هذه ملاحظة ابداها المعربان في التمهيد فسبقا ودفعا عنهما لوم اللائم ، وما على المترجم الا ان يؤدي اقوال المترجَم ويترك على صاحبها عهدة الوضوح او الغموض . فلا عجب ان يحار القارئ في فهم معنى من المعاني مثلاً صفحة ١ سطر١٣–١٥ . وصفحة ٤٣ سطر ١٣–١٧ ، ورب سقطة صدرت عن تسرع في التعريب: جاء في الصفحة ٩ السطر ١٢ ، ان ملالا المؤرخ السرياني. ولم يذكر نولدكه هناك جنسيته . وملالا وضع تاريخه باليونانية لا بالسريانية .

تلك هنات لا تكاد تحسب بالنسبة الى محاسن الكتاب فنهنئ عليه صاحبيه ونتوسم منه خيرًا ليسائر ما يسوف تنشره الجامعة الاميركية من امثاله . وقد ذيّل المعربان الكتاب بفهارس الاعلام عربيةً وافرنجيةً فزادا بمنافعه .

ولا اقل من ان نروي خلاصة مــا انتهى اليه المؤلف من وضع الارقام المحددة ازمنة الغساسنة (ص ٥٧–٥٨) ، ولانحته متبعة في الموسوعة الاسلامية في مادة غساسنة .

امراء بني غسان :

ابو شمر جبلة حوالي سنة ٥٠٠ ؟

الحارث بن جبلة اشتل والملك العامل الاكبر من سنة ٥٢٩ توفي سنة ٥٦٩

ابو كرب المنذر بن الحارث ٥٦٩–٥٨٢
النعمان بن المنذر ٥٨٢–٥٨٣

الحارث الاصغر ابن الحارث الاكبر
([الحارث ؟] الاعرج ابن الحارث الاصغر
ابو حجر النعمان (ابن الحارث الاصغر ؟) } بين ٥٨٣ و٦١٤
اخوه عمرو (ولعله قبل النعمان)
حُجر بن النعمان
....

جبلة بن الايهم سنة ٦٣٥

ف . ت .

ادب وذوق

للاب بشير اجيا اليسوعي

١٢٦ ص . متوسطة – المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ١٩٣٣

منذ ظهرت اجزاء « المنتخبات الادبية » المعروفة لحضرة الاب بشير اجيا اليسوعي ، وارباب المدارس ينتظرون كتاباً للصفوف الابتدائية يدرسه التلاميذ قبل اخذهم بالجزء الاول من المنتخبات . فكان لهم هـذا الكتاب اللطيف الحجم ، الزاهي الطبع ، المتقن الصور ، الآخاذ العنوان . وما اجمل « الادب والذوق » يتوّجان كتاب التهذيب الابتـدائي ، ويسيطران على جميع موادّه ، وهي وافرة مهمّة ، فيهديان الصغير الى « مراعاة كرامة وعاطفة الآخرين ، وجمال ولطف العلاقات الاجتماعية ، حفظاً لتقارب القلوب واتحادهـا ، ومنعاً للتنـافر والتباغض بين الافراد والجماعـات » ، اذ يطّلع على مبادئ التهـذيب وطرق تطبيقها في ظروف الحياة جميعها ، منفرداً ومجتمعاً ، في اشغالـه الخـاصة وفي معاملاته مع الناس . حتى يكاد المؤلف لا يترك مظهراً من مظاهر المعيشة التي تعترض الولد الا ويذكره ويدل على كيفية السلوك فيه . وقد اردف كل ذلك ببضع عشرة قطعة نثرية وشعرية للاستظهار . فنعم الغاية ، ونعم الاسلوب ، وهنيئاً لاولئك الصغار !

ف . ا . ب .

الرئاسة البابوية في الكنيسة السريانية

تأليف الخوري اسحق ارملة السرياني

١٩٢ص. متوسطة – المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٣٣

تاريخ دقيق، الى استشهاد واسع، الى شرح رصين، الى اسلوب سهل، الى غيرة ملتهبة في سبيل الوحدة الكاثوليكية. هذا ما يؤثر بالمطالع اذ يلقي نظرة اجمالية على الكتاب القيّم، فينتقل في اقسامه الاربعة من وحدة الكنيسة، الى وحدة الرئاسة، الى وحدة الرئاسة البطرسية في عهد الرسل، الى وحدة الخلافة البابوية في الرئاسة البطرسية. وما هو ان يدقق الدرس فتبدو له الشواهد العديدة في الوحدة وما يدعمها من اقوال آباء الكنيسة السريانية من مار اغناطيوس النوراني، الى مار افرام، الى مار اسحق الانطاكي، الى ماريعقوب السروجي، الى ساويرا بطريرك انطاكية، الى موسى بركيفا، الى ميخائيل الكبير، الى ابن العبري الشهير، حتى يذعن لنتيجة الكاتب. ويتمنى ان يكون تأثير كتابه في ابناء الطائفة السريانية المنفصلة مناسباً لجهوده الجمّة المخلصة، فيقرّبهم الى الوحدة الحقيقية التي لا تضمحل ولا تتجزأ. ف. ا. ب

مراقي النجاح

بقلم الارشمندريت انطونيوس بشير

٢١٦ ص. متوسطة صغيرة – المطبعة العصرية، مصر ١٩٣٢

مجموعة نصائح نظرية واختبارية للنجاح في هذه الحياة، وضعها المؤلف خدمة لبني قومه، ورتّبها على اثني عشر فصلاً تدور حول النجاح بين الشك واليقين، والحق وطريقه اسهل الطرق المؤدية الى النجاح، والشخصية وقوتها في النجاح، والخوف وهو العقبة الكأداء في سبيل النجاح، والفكر الصحيح اساس النجاح، والموافقة والموازنة وتأثيرهما، والعمل اساس السعادة والنجاح، والايمان، والصداقة واثرهما، والاحساس ودواؤه، ودستور العمل، والمحبة وعملها في النجاح. كل ذلك بأسلوب سهل يجعل للكتاب لذة وفائدة.

ف. ا. ب.

الرياضة البدنية وابطالها في سوريا ولبنان

تأليف عارف الجبال

١٤١ + ٣٢ ص . متوسطة – مطبعة وزنكوغراف المعرض،
بيروت ، ١٩٣٣ – الثمن : ٥٠ غ . س.

يبدأ الكتاب بشيء من تاريخ الرياضة البدنية في بيروت . ثم يذكر اكثر الاندية الرياضية . وينتقل الى الموضوع البارز في العنوان فيعدّد الفنون الرياضية، ومشاهير ابطالها ، وما يُعرف عنهم من المعلومات مع نشر صورهم . ويخص بيروت بالقسم الاوفر من الكتاب . ثم يأتي على ذكر دمشق ، وحلب ، وطرابلس ، وصيدا . ويردف الكتاب بملحق ضمنه « مواضيع ذات اهمية في عالم الرياضة » هذا وقد لاحظنا شيئاً من النقص او الاهمال في ذكر « ابطال » الرياضة . ولكن يشفع بذلك ان الكتاب الاول من نوعه في مدينتنا ، على ما نعرف .

* جمعية تعاون الاكليروس السرياني الكاثوليكي * المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ١٩٣٣ – ١٦ ص . متوسطة – كرّاسة تضمَّنت تفاصيل انشاء الجمعية المذكورة ، وقانونها الرسمي . ولا شك في انها ستكون جزيلة الفائدة ومدعاةً لان يقتدي بها اكليروس سائر الطوائف ، على نحو الآية التي صُدّر بها الكراس : « كونوا مهتمّين بعضكم ببعض برأي واحد » . (رومية ١٢ : ١٦)

* سيدة النجاة في بكفيا ١٨٣٣–١٩٣٣ * ٢٦ ص . صغيرة – نشرة غاية في الاتقان الطبعي اصدرتها المطبعة الكاثوليكية بمناسبة مرور مائة سنة على تأسيس دير الآباء اليسوعيين في بكفيا . فضمنتها تاريخ تلك المؤسسة وختمتها بعشرين صورة جميلة طُبعت منفردة على ورق صقيل .

— ضاق نطاق هذا العدد عن استيعاب وصف ما لدينا من الكتب العربية الجديدة ، فارجأنا ذلك الى عدد قادم . فضلًا عن اننا احتفظنا ببعضها لإعداد بحث عامّ عن حركة الدروس الادبية والنقدية في ايامنا الحاضرة . فنرجو المعذرة من اصحابها ، ونعدنا بذلك قريب ان شاء الله . . .

اهم حوادث الشرق في شهرين

١٥ حزيران — ١٥ آب ١٩٣٣

لبنان وسوريا — سافر المفوض السامي السيد پونسو الى فرنسة في ٢ تموز. ثم وردت الاخبار انه عُيّن مقيماً عاماً في مراكش. وعيّن مكانه في المفوضية السيد دي مارتل.

* سُويت قضية الديون العمومية الفرنسوية بين الدول الواقعة تحت الانتداب الفرنسوي وحملة اسهم هذه الديون على مبلغ مقطوع قدره ٣٢٨٥٠٠٠٠٠ فرنكاً.

* قدّم سيادة المطران باسيليوس قطان، الموجود في رومية، استقالته من ابرشية بيروت وجبيل، فقبلها الاب الاقدس.

* وصل الطياران الفرنسيان كودوس وروسي الى رياق (٧ آب) رأساً من نيويورك بعد ان طارا مدة ٥٥ ساعة فاحرزا قصب السبق في قطع ابعد مسافة.

* لا تزال الحكومة السورية توالي تنسيق الموظفين والغاء بعض الوظائف.

العراق — قام الاشوريون بفتنة جديدة لم تلبث ان تفاقم امرها فاضطر الملك فيصل الى الرجوع من اوربة فجأة. وقد اهتمت الاوساط السياسية الاوربية بهذا الامر.

فلسطين — اقيم في القدس الشريف معرض دعي «المعرض العربي» وقد صار افتتاحه في ٧ تموز.

* لا يزال سيل المهاجرين الصهيونيين يتدفق على فلسطين.

مصر — قامت مؤخراً حملة قوية على التبشير بالنصرانية اتصفت بكثير من التهوّر وعدم التمييز.

بلاد العرب — من اخبار جزيرة العرب ان جيوش ابن سعود وجيوش الامام يحيى على وشك الاشتباك بالحرب.

المطبعة الكاثوليكية — المدير المسؤول: يوسف ماهر